الجامعة الأردنية
كلية الدراسات العليا

٩٨/١٥
٩٩
٤٧

الكتابة الدّيوانيّة في عصر صدر الإسلام

[illegible] الدراسات العليا

إعداد
فريال عبد الله محمود هديب

المشرف
الأستاذ الدكتور صلاح جرار

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات درجة الدكتوراة في اللغة العربية وآدابها
في الجامعة الأردنية
آب ١٩٩٨م

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نوقشت هذه الرسالة وأجيزت بتاريخ ٤/٨/١٩٩٨م.....

أعضاء لجنة المناقشة	التوقيع
الأستاذ الدكتور صلاح جـــــرار، رئيساً	.....
الأستاذ الدكتور عبد العزيز الدوري، عضواً	.....
الأستاذ الدكتور نصرت عبد الرحمن، عضواً	.....
الأستاذ الدكتور مصطفى عليّـــــان، عضواً	.....

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الشكر والتقدير

أتوجه بالشكر والتقدير إلى أساتذتي الكرام أعضاء لجنة المناقشة:

أستاذي الدكتور عبد العزيز الدوري، الذي منحني الاهتمام العلمي، وكان مثالاً للشيخ العالم بصبره على طلبته وتحمله الأبويّ لهفواتهم، وأتمنى له دوام الصحة والعافية، وأرجو من الله إطالة عمره ليفيد أمته العربية والإسلامية بغزير علمه وثاقب رأيه.

وأستاذي المشرف الأستاذ الدكتور صلاح جرّار، فقد كان أستاذاً جاداً ومشرفاً حريصاً دائم المتابعة، وأخاً لا يتوانى عن تقديم النصح والمشورة بكل أمانة، فله من تلميذته عميق التقدير والامتنان، وسدّد الله خطاه في سبيل خدمة العلم.

وأستاذي الأستاذ الدكتور نصرت عبد الرحمن، الذي أدين له بتلمذة طويلة منذ المراحل الدراسية الأولى، نهلت خلالها من علمه الغزير، وتذكيره الدائم لنا بسبر غور النصوص، ودعوة الطلبة إلى سعة الاطلاع وأخذ العلم مأخذ الجدّ والحزم، وأتمنى له التوفيق والصحة الدائمة.

وأستاذي الأستاذ الدكتور مصطفى عليان الذي عرفته عن طريق مؤلفاته ورأيت فيه الباحث الجادّ غزير الإطلاع، رقيق الأسلوب في دقة ومتانة، حريصاً على تراث أمته، وتخليصه مما علق به من شوائب الوضع والاختلاق ليظهر بصورته الناصعة القوية.

ولا يفوتني إسداء الشكر لثلة من الأساتذة الذي لم يألوا جهداً في مساعدتي بمشورة، أو تقديم مصادر غير متوفرة في الجامعة أو قراءة متأنية وهؤلاء الأستاذ الدكتور إبراهيم السعافين، الأستاذ الدكتور إبراهيم شبوح من المجمع العلمي الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية (مؤسسة آل البيت)، الدكتور محمد الأطرش من جامعة الزرقاء الأهلية، الباحث الجاد هزاع الشمري، صاحب دار أمية للنشر في المملكة العربية السعوديّة، وفق الله هؤلاء جميعاً ونفع بهم هذه الأمة.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

محتويـات الرسالـة

الموضـــــــــوع	رقم الصفحة
لجنة المناقشـــــــة	ب
الشكر والتقديـــــــر	جـ
محتويات الرسالـــــة	د
الملخـــــــــص	
البـــــاب الأول	١-٧٣
الفصـــل الأول: رسائل الدعوة إلى الإسلام	٢-١٤
الفصل الثانـــي: رسائل الدعوة إلى الجهاد	١٥-١٨
الفصل الثالـث: رسائل التعليمات والتوصيات	١٩-٣٧
الفصل الرابـع: رسائل أخبار الفتح والفاتحين	٣٨-٥٧
الفصل الخامس: رسائل الفتن الداخلية	٥٨-٧٣
الباب الثانـــي	٧٤-١٥٠
الفصـل الأول: إدارة الولايات	٧٥-١٢٠
الفصل الثانـي: علاقات الدولة الإسلامية مع العالم الخارجي	١٢١-١٤٠
الفصل الثالـث: التنظيمات المالية	١٤١-١٥٠
الباب الثالـــث	١٥١-١٥٢
الفصـل الأول: البناء الفنّي للرسائل والعهود	١٥٢-١٦١
الفصل الثانـي: خصائص الأسلوب	١٦٢-١٧٦
ثبت المصار والمراجع	١٧٧-٢٠١
الملخص باللغة الانجليزية	٢٠٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الملخص

الكتابة الديوانيّة في عصر صدر الإسلام

إعداد

فريال عبد الله محمود هديب

المشرف

الأستاذ الدكتور صلاح جرار

يستهدف هذا البحث دراسة الوثائق الديوانيّة المنسوبة لعصر صدر الإسلام والخلافة الراشدة من جهتي الشكل والمضمون، وذلك لأهمية هذه الوثائق؛ فما جاء فيها من مضامين تتصل بإدارة الحرب وإدارة الولايات، وتنظيم العلاقات الماليّة مع الشعوب الأخرى يُعد تشريعاً ودستوراً للعهود اللاحقة من الخلفاء لأنها صادرة عن الرسول - عليه السلام - ومن بعده الخلفاء الراشدين، وتعطينا هذه الوثائق صورة عن الأسس والقواعد التي سار عليها أولو الأمر في إدارة الدولة والمصادر التي استقوا منها هذه الأسس، وتكمن أهميّتها كذلك في أنها أرست قواعد كتابة الرسائل والعهود وسار على نهجها من جاء بعد هذه الحقبة وأضافوا إليها وطوّروا فيها، وهي بذلك تعدُّ رائدة في هذا المجال إذ لم تحذ حذو نموذج سابق.

ويقصد بالكتابة الديوانيّة " الوثائق الرسمية التي كانت تصدر عن أولي الأمر في هذا العصر، والرسائل التي كانت ترد إليهم ردّاً على رسائلهم ومع أنّ العهد النبوي كان يخلو من هذا المصطلح إلا أنّ النظام الإداري فيه يسّوغ للباحث اطلاقه عليه كما نبّه إلى ذلك القلقشندي في كتابه " صبح الأعشى " حيث قال عن ديوان الإنشاء: " اعلم أن هذا الديوان أول ديوان وضع في الإسلام، وذلك أن النبي كان يكاتب أمراءه، وأصحاب سراياه من الصحابة - رضوان الله عليهم - ويكاتبونه، وكتب إلى مَن قرب من ملوك الأرض يدعوه إلى الإسلام....، وهذه المكتوبات كلها متعلقها ديوان الإنشاء... ".

وقد اعتمدت الدراسة منهجاً قوامه ردّ الروايات إلى أصولها ومصادرها وأصحابها الأولين، ومن ثم يقوم المنهج على محاكمة هذه الروايات معتمداً على أدلّة عقليّة ونقليّة مبنية على مقابلة

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الرّوايات والتثبت من صحة إسنادها ونسبتها إلى عصر النبوة والخلافة الراشدة وذلك لمعرفة أثر ميول الرواة وأثر اتجاهاتهم الحزبية والدينية في رواية الوثائق، وكذلك لتبيين دور الرواية الشفويّة وضياع الأصول لهذه الوثائق في ما لحق بها من تحريف وتزيّد ووضع وكل ذلك بهدف تقديم صورة لقضايا العصر الأدبية ودور اللغة في التعبير عن هذه القضايا.

وجاءت الدراسة في ثلاثة أبواب يتضمن كل باب عدداً من الفصول، واوقف الباب الأول للحديث المفصل عن رسائل الفتوحات والحروب التي خاضها المسلمون في سبيل نشر دعوة الإسلام، وفي الباب الثاني دار البحث في الأسس الإدارية التي حملتها الوثائق وتطبيقها عمليّاً في إدارة الرعية وسياسة الدولة في علاقاتها الخارجية وفي إدارة موارد الدولة المالية، وخصّص الباب الثالث لتبيّن السمات الفنيّة لهذا النوع من الوثائق.

وقد تنوعت مصادر الدراسة وذلك لتنوع موضوعات الوثائق، فاستعنت بالمصادر التاريخية، والفقهيّة، والأدبيّة، وكتب السياسة الشرعية والوسائل المثلى لإدارة الرعية، بالإضافة إلى كتب التفسير والحديث النبوي الشريف.

وخلصت الدراسة إلى جملة من النتائج أهمها:

أولاً: لقد أظهرت الدراسة أن الوضع والتحريف لحق معظم موضوعات وثائق هذا العهد لذلك فإن دراسة أدب هذا العصر ينبغي أن تكون دقيقة يتم فيها تمحيص الزائف من الصحيح حتى لا ننسب إلى العصر ما ليس منه.

ثانياً: بيّنت الدراسة الدور الذي لعبته المراسلات في إدارة دفة الدولة على اختلاف مجالاتها، إذ حملت الرسائل توصيات وتعليمات في الحرب، وطرق التعامل مع الرعية مسلمين وغير مسلمين، وهذه التعليمات لم تكن مجرّد قواعد وأسس نظرية وحسب بل أنّها قد تجسدت في الواقع العملي، وربطت ما يقال بما يفعل.

ثالثاً: أما الدراسة الفنية فقد خلصت إلى أن هذه الوثائق سارت في بنائها على نهج مخصوص، وهذا البناء الجديد مستمد من روح الشريعة الإسلامية، وتميّز أسلوب النثر الديواني بالبساطة والتركيز الفكري وغلب عليه الإيجاز ولم يكن يحفل بالصنعة اللفظية، وجاءت فيه الصور الفنية قليلة متأثرة بالبيئة، لذلك كان أسلوباً تقريرياً، يسعى إلى إيصال الفكرة بألفاظ محددة الدلالة بعيدة عن الألفاظ المشتركة والمبهمة.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

رابعاً: ولعل أهم ما انجلت عنه الدراسة بيان مدى التنظيم الإداري الذي اتبع في الدولة الإسلامية، وإذا ما قابلناه بالنظم الإدارية الحديثة فإنه يعد أساساً لها، وقد يتفّوق عليها بما فيه من إنسانية واحترام لحقوق الرّعية الماديّة والنفسيّة.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الباب الأول

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الأوّل:

رسائل الدّعوة إلى الإسلام

قال تعالى: " وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً "[١]، وقال تعالى: " قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً "[٢] وقال تعالى: " تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً "[٣].

تؤكد هذه الأيات أنّ الاسلام دين لا يقتصر على العرب وحدهم، بل هو دين عالمي بعث الرسول عليه السلام لتبليغه إلى الناس كافة؛ لذلك انبرى الرسول يبث دعاته مبشرين بالدين الجديد، داعين غيرهم من الأمم الأخرى للدخول فيه، ووصل دعاته إلى أقطاب العالم في تلك الحقبة مثل: هرقل وكسرى والمقوقس، وأرسل كتب الدعوة إلى حكام الدول المجاورة ورؤساء القبائل.

وقد حظي موضوع كتب دعوة الرسول إلى القوى العظمى آنذاك بعناية القدماء والمحدثين، وتعاور تفاصيل هذه البعوث الباحثون العرب والمستشرقون، يتنازعهم في ذلك الموقف المنكر لخبر البعوث والمؤيّد لفكرة عالمية الاسلام وضرورة إرسال هذه البعوث، ولمزيد من التفصيل في هذه القضيّة لعلّ من المفيد عرض آراء القدماء والمحدثين بشأن رسائل الدعوة المرسلة إلى كسرى وهرقل والمقوقس والنجاشي.

أنكر عدد من الباحثين فكرة هذه البعوث منطلقين في موقفهم هذا من أنّ عالم سيدنا محمد هو شبه جزيرة العرب، وأنّ الرسول غير مكلف ولا معنياً بإيصال الدين الاسلامي إلى خارج الجزيرة، وأنّ هذه الخطابات تباين ما عرف عن الرسول من التوسط والاتزان والمعقولية، لأنّه يخاطب حكام قوى عظمى لا سبيل أمامه للتغلّب عليها في ذلك الوقت

---

(١) سورة سبأ أية ٢٨.

(٢) سورة الأعراف، أية ١٥٨.

(٣) سورة الفرقان، أية ١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الذي لم ينتشر فيه الاسلام في الجزيرة العربية[١]، وقد تصدى للرّد على هذه الآراء باحثون عرب ومستشرقون؛ إذ أكّد ارنولد نولدكه وجولد تسيهر عالمية العقيدة الاسلاميّة وانّها للناس كافة، وبيّن الباحثون العرب أنّ القرآن تضمن كثيراً من الآيات التي تسند عالمية الرسالة، وحرص الرسول على الاتصال بالقوى الأخرى خاصة بعد أن أخضع الكثير من اجزاء الجزيرة لنفوذه، وذلك من أجل تبليغ الدعوة الجديدة لهم ومن أجل الحفاظ على سلامة جزيرة العرب وتمكينها من التصدّي للقوى والدويلات التي أقامتها على الحدود وجعلت حكامها من العرب، فالجزيرة لم تكن وكراً قصيّاً بعيداً عن أيدي هاتين الدولتين، لذا كان لا بدّ من هذه البعوث.

وفيما يتصل بضعف الدولة الاسلامية زمن هذا الاتصال بيّن بعض الباحثين أن دولة الاسلام بعد صلح الحديبية لم تعد ضعيفةً؛ فقد أعقبته عمرة القضاء وفتح مكة، وأنّ القوى العظمى لم تكن بالقوة المتخيلة لها في ذلك الوقت بسبب تتابع الحروب بين فارس والروم وهزيمة الأولى؛ والصراع الداخلي الذي كانت تعاني منه الدولة الرومانية الشرقية. وقد أوضح الباحثون جانباً مهماً في هذه البعوث وهو أنّ الدعوة إلى الاسلام بطريق الرسائل والوفادات هي من أعمال النبوّات وليست من قبيل التحدي العسكري أو السياسي، لأنّ الرسول استهدف من وراء بعوثه تبليغ الدعوة الاسلاميّة بوصفها آخر الرسالات السماويّة ، وقد قدّر للاسلام بعد مدّة ليست بالطويلة الوصول إلى هذه الأمم دعوة وحضارة بعد أن قويت شوكته، وكذلك إنّ رسائله إلى هؤلاء الحكام لم تحمل أيّ نوع من التهديد أو التلويح بالقوة بل اقتصرت على تأكيد وحدانية الله، ودعوة الناس سلميّاً للدخول في الدين الجديد[٢] وترك الحرية للشعوب لاختيار الدين الذي يرضونه كما سيتضّح من دراسة نصوص الرسائل.

ومما يرتبط بهذه الرسائل عدم اتفاق المؤرخين على تحديد تأريخ لها وكانت المدّة التي تقع بين صلح الحديبية في السنة السادسة للهجرة وغزوة تبوك في السنة الهجرية التاسعة هي المدّة التي

---

(١) انظر : عون قاسم الشريف، نشأة الدولة الاسلامية على عهد رسول الله، ط٢، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨١، ص: ١٠٩ - ١١١؛ عز الدين ابراهيم، الدراسات المتعلقة برسائل النبي إلى الملوك، المؤرخ العربي، عدد: ٢٣، بغداد، ١٩٨٣، ص: ٢٤٥؛ محمد ارشيد العقيلي، السفارات النبويّة إلى ملوك العالم وأمراء أطراف الجزيرة العربية، ط١، دار احياء العلوم، بيروت، مكتبة المحتسب، عمان، ١٩٨٦، ص: ٩٧ - ١٠٠؛ صالح أحمد العلي، الدولة في عهد الرسول، مطبعة المجمع العلمي العراقي، ١٩٩٨، ١: ٣٢١؛ محمود خطاب السفارات النبويّة، المجمع العلمي العراقي، ١٩٨٩، ص: ٤٧٧-٤٨٠.

(٢) نشأة الدولة الاسلامية، ص: ١١٢؛ الدراسات المتعلقة برسائل النبي، ص: ٢٤٦-٢٦١؛ السفارات النبوية، ص: ٩٤-١١٣؛ الدولة في عهد الرسول، ص ٣١٤-٣٢٤؛ السفارات النبويّة، ص: ٤٨١-٥٨١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

دارت حولها اختلافات القدماء[١] والمحدثين[٢] في تحديد تاريخ الرسائل النبويّة من أجل الدعوة الاسلاميّة، وليس من السهولة بمكان ترجيح تأريخ على آخر لغياب المسوّغات المقنعة التي تجعل هذا الرأي أو ذاك أقرب إلى الصواب، ولكن الأمر المتفق عليه تاريخياً هو أنّ الرسول أرسل هذه البعوث للدعوة.

ولم يقف الخلاف حول التأريخ بل تعدّاه إلى الاختلاف في أسماء من انتدبهم الرسول وأوكل إليهم مهمة ايصال الرسائل إلى أصحابها وهذا الخلاف في الأسماء والعدد [٣] لا يعدّ مطعناً في حقيقة هذه الرسائل لأنّ هذا الضرب من الخلاف يحدث في الكثير من الأخبار التاريخية خاصة المهمة منها والمتتبع مثلاً لأخبار الفتوح يواجه ذلك.

أمّا القضايا المرتبطة بنصوص الكتب واختلاف رواياتها فقد روى سعيد بن المسيّب أن الرسول كتب إلى كسرى وقيصر والنجاشي كتاباً واحداً هو " بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، إلى كسرى وقيصر والنجاشي أما بعد (تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألاّ نعبد إلاّ الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضُنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولّوا فقولوا اشهدوا بأنّا مسلمون) "[٤]، وقد ذكر الزهري أن كتب الرسول كانت من نسخة واحدة وكلها فيها هذه الأية أي الأية الثالثة والستين من سورة آل عمران[٥]، وقد روت بعض المصادر نصوص هذه

---

(١) أبو جعفر، محمد بن جرير الطبري، (ت ٣١٠هـ)، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق: محمد أو الفضل ابراهيم، ١٠م، بيروت، لبنان، ٦٤٤/٢، ٦٤٥؛ محمد بن سعد (ت ٢٣٠هـ) الطبقات الكبرى، ٩م، دار صادر، بيروت، ٢٥٨/١؛ ابن كثير، أبو الفداء اسماعيل بن عمرو (ت ٧٧٤هـ)، البداية والنهاية، ط٤، تحقيق: أحمد أبو ملحم وآخرين، ٧م، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٨، ٢٦٢/٤.

(٢) نشأة الدولة الإسلامية، ص: ٧٦؛ محمد أبو زهرة، خاتم النبيين، ط١، دار الفكر العربي، ١٩٧٣، ١٢٦/٣؛ الدراسات المتعلقة برسائل النبي، ص: ٢٥٤.

(٣) تاريخ الرسل والملوك، ٦٤٤/٢ – ٦٤٥؛ الطبقات الكبرى، ٢٥٨/١-٢٦٣؛ السّهيلي، ابو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد (ت ٥٨١هـ)، الروض الأنف في تفسير السيرة النبويّة لابن هشام، ط١، تحقيق: مجدي بن منصور بن سيد الشورى، ٤ م، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧، ٣٨٩/٤؛ الزرقاني، محمد ابن عبد الباقي، (ت٩٢٣هـ)، شرح المواهب اللدنية، ط١، الطبعة الازهرية المصرية، ١٣٣٦هـ، ٣٦٧/٣-٣٦٨.

(٤) أبو عبيد القاسم بن سلاّم (ت ٢٢٤هـ)، كتاب الأموال، ط١، تحقيق/ محمد خليل هرّاس، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٦، ص: ٢٩.

(٥) شرح المواهب اللدنيّة، ٣٤٦/٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الرسائل التي تتضمن هذه الآية[١]، ومثال ذلك: " بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط، سلام على من اتبع الهدى، أمّا بعد، فإنّي أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فعليك اثم القبط، (يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله، فإن تولّوا فقولوا اشهدوا بأنّا مسلمون) "[٢].

وقد استخدم بعض الباحثين هذه الآية مطعناً في الرسائل فقالوا إنّ إيفاد الرسل إلى الملوك كان في نهاية السنة السادسة للهجرة أو أوائل السابعة، وهذه الرواية تتضمن آية قيل إنّها نزلت في السنة التاسعة للهجرة في وفد نصارى نجران، وهذا تناقض يفضي إلى الشك في حقيقة هذه الكتب[٣]، ولمناقشة هذا الرأي لا بدّ من إلقاء الضوء على جملة من الأمور المتصلة بقضيّة المراسلات النبويّة إلى الملوك وهي:

١. لم يحدث اتفاق بين جمهور العلماء قديماً وحديثاً على تحديد تأريخ لبعوث النبي إلى الملوك.
٢. إنّ الأخذ بالرأي القائل بارتباط هذه الأية بوفد نجران إنما هو اختيار من آراء أخرى قيلت في سبب النزول؛ فقد ذكر الطبري أنّ بعض العلماء قال إنّها " نزلت في يهود بني اسرائيل الذين كانوا حوالي مدينة رسول الله "[٤]. أما ابن كثير فقد وضع جملة اقتراحات للتوفيق بين ما ذكره ابن اسحق من أنّ " صدر سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية منها نزلت في وفد نجران[٥] وما ذكره الزهري من أنّ وفد نجران هم " أوّل من بذل الجزية "[٦]، وآية الجزية

---

(١) علي بن حسين علي الأحمدي، مكاتيب الرسول، دار صعب، بيرون، ١/٩٠-١٤٤، نشأة الدولة الاسلامية، ص: ٣٠٠-٣٠٨؛ محمد حميد الله، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، ط٦، دار النفائس، ١٩٨٧، ص: ٩٩-١٤٨.

(٢) ابن عبد الحكم، أبو عبد الله محمد (٢٦٨هـ)، فتوح مصر وأخبارها، ١م، تحقيق: محمد صبيح، دار التعاون للطبع والنشر، ص: ١٤١؛ الكلاعي، أبو الربيع سليمان بن موسى، (ت ٦٣٤هـ)، الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء، ط١، تحقيق: محمد كمال الدين عز الدين علي، ٤م، عالم الكتب، بيروت، ١٩٩٧، ٣٩٣/٤.

(٣) الدراسات المتعلقة برسائل النبي، ص: ٣٥٢؛ السفارات النبويّة، ص: ٥٠٠.

(٤) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق: محمود محمد شاكر، دار المعارف، مصر، ٤٨٣٣/٦.

(٥) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، نسخة مأخوذة عن طبعة دار الكتب، ٣٩٨/٣؛ السيرة النبوية، ١٦٠/٢.

(٦) تفسير القرآن العظيم، ٣٩٨/٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نزلت بعد الفتح ولا خلاف في ذلك[١]، وبين كتب النبي إلى الملوك، واقترح ابن كثير ما يلي[٢]:

١. احتمال نزول الآية مرتين، مرة قبل الحديبية، ومرّة بعد الفتح.
٢. يحتمل أنّ صدر سورة آل عمران نزل في وفد نجران إلى هذه الآية التي نزلت قبل ذلك ويكون قول ابن اسحق " إلى بضع وثمانين آية " ليس بمحفوظ.
٣. احتمال أن قدوم وفد نجران كان قبل الحديبية.
٤. الاقتراح الأخير هو أنه يُحتمل نزول هذه الآية موافقة لما جاء في كتاب الرسول قبل ذلك كما نزل بموافقة عمر بن الخطاب في الحجاب وفي الأسارى وفي عدم الصلاة على المنافقين.

وكلُّ ذلك يفضي إلى أنّ ارتباط آية آل عمران بوفد نجران أمر غير مسلّم به[٣]، ومن الملاحظ أنّه لا أحد من القدماء والمحدثين الذين اعتنوا بأمر الرسائل النبويّة اقترح احتمالية خلوّ الرسائل من هذه الآية، وانها قد تكون اقحمت عليها فيما بعد أي بعد نزول الآية، ولعلّ مما يعزز ذلك رواية بعض هذه الرسائل من غير ورود الآية كما جاء في تاريخ اليعقوبي[٤]، وتاريخ الطبري[٥]، وإعجاز القرآن[٦] وبرواية الرسائل من غير الآية فإنّ المعنى فيها مكتمل، ورسالة الدعوة التي تحملها واضحة وجليّة، وخبر اتصال آية آل عمران برسائل النبي روي عن طريق سعيد بن المسيّب المتوفى سنة ٩٤هـ والزهري المتوفى سنة ١٢٤هـ.

أما الروايات الأخرى للرسائل النبويّة فقد احتوت ما يقدح في صحتها ويلقي ظلالاً من الشك فيها مثل الرواية التي يخاطب فيها الرسول النجاشي بقوله " ودع التّجبّر "[٧] لأنّ مثل هذه العبارة "يضر بمصلحة من كانوا تحت رعاية النجاشي من المسلمين الذين ظلوا يعيشون في الحبشة حتى غزوة الخندق في العام السابع الهجري "[٨]، وكذلك رسالته إلى المقوقس التي تخالف أسلوب الرسول

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ٣٩٨/٣.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ٣٩٩/٣؛ شرح المواهب اللدنية، ٢٢٣/١.
(٣) الدراسات المتعلقة برسائل النبي إلى الملوك، ص: ٢٥٤.
(٤) اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب (٢٩٢هـ)، تاريخ اليعقوبي، ٢م، دار صادر، بيروت، ١٩٦٠، ٦٦/٢.
(٥) تاريخ الرسل والملوك، ٦٥٤/٢.
(٦) أبو بكر بن الطيب الباقلاّني، (ت ٤٠٣هـ)، اعجاز القرآن، ط٣، تحقيق: السيد أحمد صقر، ١م، دار المعارف، مصر، ص: ١٣٤.
(٧) تاريخ الرسل والملوك، ٦٠٢/٢.
(٨) نشأة الدولة الاسلامية، ص: ٩٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في الكتابة وقد جاء فيها: " أما بعد، فإنّ الله تعالى ارسلني رسولاً، وأنزل عليّ قرآناً، وأمرني بالإعذار والإنذار، ومقاتلة الكفار، حتى يدينوا بديني، ويدخل الناس في ملتي، وقد دعوتك إلى الإقرار بوحدانية الله تعالى، فإن فعلت سعدت، وإن أبيت شقيت "[١].

إن كتب الرسول عليه السلام، إلى الملوك ذوي القوة لم تكن تحمل أيّ تهديد بل كانت تأكيداً على وحدانية الله، ودعوة سلمية للدخول في الاسلام ونوعاً من السياسة الاعلاميّة لنشر خبر الدعوة الجديدة[٢]، في حين أنّ رسائله إلى رؤساء القبائل ومن هم تحت إمرة الفرس والروم اتخذت صوراً أخرى في دعوتهم إلى الاسلام بعد أن غدا قوّة، وبعد نزول آية الجزية وقتال من يرفض الإسلام أو يرفض الجزية كما ستيضح في الفصول القادمة.

ومما له صلة بالمراسلات النبويّة ما دار من نقاش بين العلماء المحدثين حول خمسة رقوق يظن أنها أصول رسائل الرسول عليه السلام إلى المقوقس عظيم القبط في مصر، والمنذر بن ساوى حاكم البحرين، والنجاشي عظيم الحبشة، وكسرى عظيم فارس، وهرقل عظيم الروم، وابتدأ ظهور هذه الرقوق منذ سنة ١٨٥٠م.

وقد تعاقب على دراسة هذه الرقوق مجموعة من الباحثين، ووثّقها بعضهم، وكثيرٌ منهم توصل إلى أنّها لا تمتّ بصلة إلى عصر النبوّة، وقد بنوا رأيهم على جملة من المآخذ المرتبطة بالرّق، والخط، والحبر.

وقام الباحث محمد حميد الله بعرض آراء المستشرقين في هذه الرقوق، وردّ على بعض ما ذكروه من آراء بشأنها[٣]، وأوسع دراسة نشرت حول هذه الرقوق ما قامت به سهيلة الجبوري، وقام البحث على دراسة خطوط الرقوق واللغة والأسلوب وما اعتراها من أخطاء [٤]، وخلصت الباحثة إلى أنّ الوثائق بعيدة " عن أن تكون الرسائل الأصلية التي أرسلها النبي الكريم إلى ملوك وأمراء

---

(١) الواقدي، ابو عبد الله محمد بن عمر، (ت ٢٠٧هـ)، فتوح الشام، ١م، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ١٩٣٤، ٣٩/٢.

(٢) أحمد عبد المنعم خفاجي، عبد العزيز شرف، التفسير الاعلامي للسيرة النبوية، ط١، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٢، ص: ٢٦٠-٢٦٧.

(٣) Hamidulla, M. Some Arabic Inscriptions of Medinah of the Early Years of Hijrah, Islamic Culture, 1939, USA. Vol. 13, No. 4, pp. 429-443.

(٤) سهيلة ياسين الجبوري، أصل الخط العربي وتطوره حتى نهاية العصر الأموي، مطبعة الأدب البغدادية، ١٩٧٧، ص: ٨-٩١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الدول المجاورة "[١]. وقامت دراسات أخرى على هذه الرقوق وتضاربت حولها الآراء[٢]، ومع ذلك فإنّ الشك في هذه الرسائل لا ينفي الخبر التاريخي الذي يؤكد اتصال النبي عليه السلام بهؤلاء الحكام ودعوتهم إلى الإسلام انطلاقاً من عالميّة الدعوة الإسلاميّة.

استخدم الرسول عليه السلام أسلوب الترغيب والترهيب في دعوته إلى الاسلام؛ إذ وعد أصحاب الملك بالمحافظة عليه في حال دخولهم الاسلام مثل رسالته إلى الحاكم الغساني الحارث بن أبي شمر الذي كان تابعاً للبيزنطيين، ورسالته إلى هوذة بن علي الحنفي شيخ اليمامة حليف الملك الفارسي، وجاء في خطابه: " من محمد رسول الله إلى الحارث بن أبي شمر، سلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله وصدّق فإني أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده لا شريك له، يبقى لك ملكك "[٣]، وأرسل إلى هوذة بن علي: " ... أسلم تسلم، واجعل لك ما تحت يديك "[٤].

وعُني الرسول بدعوة كل الجماعات للانضمام تحت لوائه، متناسياً خصومات الماضي في الحياة الجديدة فأرسل إلى مجموعة من قطاع الطرق التي كانت تغصب المارّة كتاباً يتعهد لهم فيه بعدم الظلم والعدوان عليهم وعدم محاسبتهم على فعل قاموا به قبل الاسلام: " بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد النبي رسول الله لعباد الله العتقاء، إنهم إن آمنوا، وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فعبدهم حرّ ومولاهم محمد، ومن كان منهم من قبيلة لم يُردّ وما كان لهم من دين في الناس رُدّ إليهم ولا ظلم عليهم ولا عدوان، وإنّ لهم على ذلك ذمة الله وذمة محمد ... "[٥]، إنّ هؤلاء على الرغم من ماضيهم " يستطيعون الدخول في تعاقد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، ما داموا قد

---

(١) أصل الخط العربي، ص: ٩٢.

(٢) الدراسات المتعلقة برسائل النبي، ص: ٢٥٥-٢٥٧.

(٣) الكلاعي، ٤٠٢/٤، ابن حديدة، أبو عبد الله محمد بن علي بن أحمد (ت ٧٨٣هـ)، المصباح المضيء في كتاب النبي الأمي ورسله إلى ملوك الأرض من عربي وعجمي، ط١، ١م، دار الندوة الجديدة، بيروت، ١٩٨٦، ص: ٣٦٥؛ محمد بن طولون الدمشقي، (ت٩٥٣هـ)، اعلام السائلين عن كتب سيد المرسلين، ط٢، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط، ومحمود الأرناؤوط، ١م، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٧، ص: ١٠٧؛ احمد بن محمد القسطلاني، (٩٢٣هـ) المواهب اللدنية بالمنح المحمديّة، ط١، تحقيق: صالح أحمد الشامي، ٤م، المكتب الاسلامي، ١٩٩١، ١٤٩/٢.

(٤) الاكتفاء، ٤٠٦/٤؛ المصباح المضيء، ص: ٣٩٢؛ اعلام السائلين، ص: ١١٠.

(٥) الطبقات الكبرى، ٢٧٨/١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قبلوا الأسس العامة للعقيدة الجديدة، والتزموا بالقيود التي تفرضها على نشاطهم مما يحقق لهم ولغيرهم الأمن والسلام، فالاسلام يجبّ ما قبله "[١].

ومن الوسائل التي اتبعها الرسول لنشر الاسلام والدعوة إليه كتب الأمان التي أعطاها لمن يدخل الاسلام ويلتزم بأحكامه وقوانينه، وقد تضمنت هذه الكتب جملة من الالتزامات التي يقابلها تعهد من الرسول يحافظون بموجبها على ما تحت أيديهم من ممتلكات، أما ما عليهم من التزامات فهي الدخول في الإسلام، ومفارقة المشركين، وإقامة الصلاة، وايتاء الزكاة، وحج البيت، وعدم إيواء من أحدث حدثاً يضرّ بالإسلام والمسلمين، ومقابل ذلك فإنّهم آمنون على أنفسهم وأموالهم، ولهم ما أسلموا عليه من الأرض والماء، أما من كان حاكماً فإن إسلامه يفضي إلى إقرار ولايته، وكتب الأمان هذه تتشابه كثيراً في مضمونها ومن أمثلتها: " من محمد رسول الله لبني زهير بن أقيش من عكل: إنكم إن شهدتم أن لا إله الا الله، وأنّ محمداً رسول الله، وأقمتم الصلاة، وآتيتم الزكاة، وفارقتم المشركين، وأعطيتم من المغانم الخمس وسهم النبي وصفيّه، فأنتم آمنون بأمان الله ورسوله[٢]، وكتب إلى عمير ذي مرّان ومن أسلم من همدان في اليمن: " ... وانكم إذا شهدتم أن لا إلى الا الله، وأنّ محمداً عبد الله ورسوله، وأقمتم الصلاة وأتيتم الزكاة، فإنّ لكم ذمة الله وذمة رسوله، على دمائكم وأموالكم، وأرض البور التي أسلمتم عليها، سهلها وجبلها وعيونها وفروعها، غير مظلومين ولا مضيّق عليكم ... "[٣]. ٤٩٤٨٧٨

وفي حالة رفض دعوة الرسول فإنّ من له ملك سيزول، ويهدد بالغزو ويلغى ما أعطي له من الأمان وذلك كما جاء في دعوته جيفر وعبد ابني الجلندي من الأزد وكانا شيخي عُمان: " ... وإنكما إن أقررتما بالإسلام وليتكما، وإن أبيتما أن تقرا بالإسلام، فإن ملككما زائل، وخيلي تحلّ بساحتكما، وتظهر نبوتي على ملككما "[٤]، وكذلك رسالته إلى أهل عمان، وأساقفة نجران في حال رفضهم الإسلام[٥].

إن كتب الأمان وما حملته من وعود نبويّة للترغيب في الإسلام تبين معرفة الرسول الكريم بالنفس البشرية، وأهمية الرغبة في المحافظة على المكاسب المادية فمن يرغب في الإسلام يرغب كذلك في الاحتفاظ بما يملك فحرص الرسول في هذه العهود على إظهار الإسلام بمظهر المكسب

---

(١) نشأة الدولة الإسلامية، ص:٢٢٣.

(٢) الطبقات الكبرى، ٢٧٩/١؛ إعلام السائلين، ص: ٨٨-٨٩.

(٣) إعلام السائلين، ص: ٩١-٩٢.

(٤) المصباح المضيء، ص: ٣٦٠؛ إعلام السائلين، ص: ٩٧، الاكتفاء، ٣٩٨/٢.

(٥) مجموعة الوثائق، ص: ١٦٣، ١٧٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المادي لهؤلاء فضلاً عن المكسب المعنويّ، لأن الاسلام سيؤمّن هؤلاء على حياتهم وعلى ما يملكون وبذلك تتسع فرص الترحيب بالانضمام إلى الرسول وصحبه.

وقد اتضح أن إخضاع الشعوب بالقوة لم يكن الوسيلة الأولى من وسائل الدعوة الاسلاميّة لاعتناق الاسلام، لأنه دين سلام وحق، وفكرة السلام تحتل مكانة هامة ضمن الأهداف التي حملتها الدعوة الاسلامية، قال تعالى: " قد جاءكم من الله نور، وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام "(١)، وبناءً على دعوة الإسلام إلى اتباع طريق السلم لم يكن المسلمون يعلنون الحرب قبل اتخاذ مجموعة من الإجراءات مثل انذار غير المسلمين على اختلاف فئاتهم بأنّهم معرّضون للحرب في حال فشل الوسائل السلمية والإغراءات بحقن الدماء والحفاظ على الأموال، وقد تبدّى ذلك فيما سبق من نصوص، وفي النص التالي الذي رواه ابن إسحق وتضمن رسالةً من خالد بن الوليد بعث بها إلى الرسول الكريم يخبره فيها بنتائج بعثته إلى بني الحارث بن كعب بنجران لدعوتهم إلى الاسلام في السنة العاشرة للهجرة: " ... فإنك بعثتني إلى بني الحارث بن كعب وأمرتني إذا أتيتهم ألا اقاتلهم ثلاثة أيام، وأن أدعوهم إلى الإسلام، فإن أسلموا أقمت فيهم وقبلتُ منهم، وعلمتهم معالم الاسلام، وكتاب الله وسنة نبيه، وإن لم يسلموا قاتلتهم ... "(٢)، إنّ مهلة الإيام الثلاثة كافية لاتخاذ قرار بشأن الدعوة الإسلامية، إذ فيها متسع للتفكير برويّة في البديل الآخر وهو الحرب؛ فالمشركون لا يقبل منهم إلا الإسلام الذي إن رفضوه تعرضوا للقتال، وهذا ينسجم مع الآية القرآنية التي تحتمّ على المسلمين قتال المشركين حيثما كانوا: " ... فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم "(٣).

وبعد انتقال الرسول صلى الله عليه وسلم إلى جوار ربّه ارتدّت بعض القبائل عن الإسلام، وهؤلاء المرتدّون لم يواجههم أبو بكر الصديق بالحرب بل سبق قرار الحرب دعوتهم إلى العودة للاسلام بطريقة سلميّة لا تُراق فيها الدماء للمحافظة على وحدة المسلمين ودرءاً للفتنة؛ فروي أن أبا بكر أرسل كتاباً إلى الأشعث بن قيس ومن معه من قبائل كندة المرتدة جاء فيه " ... أما بعد، فإنّ الله تبارك وتعالى يقول في كتابه المنزل على نبيه عليه السلام: " يا أيها الذين أمنوا اتقوا الله حقّ تقاته، ولا تموتن إلاّ وأنتم مسلمون "(٤)، وأنا آمركم بتقوى الله وحده، وأنهاكم أن تنقضوا عهده وأن

---

(١) سورة المائدة، آية ١٥، ١٦.

(٢) ابن هشام، أبو محمد عبد الملك (ت ٢١٣هـ)، السيرة النبوية، تحقيق: طه عبد الرؤوف، ٤م، دار الجيل بيروت، ١٩٨٧، ١٧٧/٢؛ تاريخ الرسل والملوك، ١٢٦/٣.

(٣) سورة التوبة، آية ٥.

(٤) سورة آل عمران، آية ١٠٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ترجعوا عن دينه إلى غيره، ولا تتبعوا الهوى؛ فيضلكم عن سبيل الله، وإن كان إنما حملكم عن الرجوع عن دين الاسلام، ومن منع الزكاة ما فعله بكم عاملي زياد بن لبيد فإني أعزله عنكم وأولّي عليكم من تحبون، وقد أمرت صاحب كتابي هذا ان أنتم قبلتم الحق أن يأمر زياداً بالإنصراف عنكم، فراجعوا إلى الحق، وتوبوا من قريب، وفقنا الله وإيّاكم لكل ما كان فيه رضى، والسلام "[١]، إن هذه الدعوة السلمية تضمنت التذكير بضرورة الالتزام بالعهود، وتقوى الله، والبعد عن اتباع الهوى، وقد لجأ أبو بكر إلى تقديم بعض التنازلات الإدارية؛ فتعهد لهم بعزل عامله زياد بن لبيد، وترك الحرية لهم لاختيار من يريدون موهماً أن موقفهم منه كان سبباً في ردتهم، وكان ذلك بغية تشجيعهم على التراجع عن ردّتهم. وقيل إن حسان بن ثابت كتب اليهم يحثهم على العودة، مذكراً إيّاهم بأصلهم الشريف قائلاً[٢]:

أنيبوا إلى الحق يا قومنـــا ... فإني لكم ناصح فاقبلـــوا
ولا تأنفوا اليوم أن ترجعوا ... فإنّ الرجوع بكم أجمـــلُ
رميت بنصحي لكم جاهداً ... فلا ترتدوا ثم تستجهلـوا
فأنتم أناس لكم ســـــؤددٌ ... ويُنميكم الشرفُ الأطـولُ
صباح الوجوه نماهم إلـــى ... كريم الثناء الشرف الأوّلُ
فسيموا السيوف ولا تبعثوا ... حروباً تذلُّ بها النـــزّلُ

وأكد أبو بكر دعوة الاسلام إلى السلام في كتابه إلى القبائل المرتدة، وبين في كتابه قدره الله على الانتقام من أعدائه، وأن من لا يهديه الله سوف يبقى على ضلاله، فالله بيده الأمن والرزق والحفظ والسعادة والنصرة، لذا فإنّ عليهم لزوم الجماعة وتقوى الله: " ... يهدي الله من أقبل إليه وضرب بالحق من أدبر عنه وتولى. ألا إنّي أوصيكم بتقوى الله وأدعوكم إلى ما جاء به نبيكم محمد صلى الله عليه وسلم، فقد علمتم أنه من لم يؤمن بالله فهو ضال، ومن لم يؤمنه الله فهو خائف، ومن لم يحفظه الله فهو ضائع، ومن لم يصدقه فهو كاذب، ومن لم يسعده فهو شقي، ومن لم يرزقه فهو محروم، ومن لم ينصره فهو مخذول، ألا فاهدوا بهدى الله ربكم، وبما جاء به نبيكم "[٣].

---

(١) الواقدي، كتاب الردة، ط١، تحقيق: محمد حميد الله، المؤسسة العالمية للنشر، باريس، ١٩٨٩، ص: ١٠٨؛ ابن أعثم الكوفي، (ت٣١٤هـ)، الفتوح، ط١، ٨م، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، ١٩٧١، ٦٨/١.

(٢) كتاب الردة، ص: ١٠٨-١٠٩.

(٣) تاريخ الرسل والملوك، ٢٥٠/٣؛ كتاب الرّدة، ص: ٤٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكانت الخطوة التالية في خطاب أبي بكر للمرتدين بعد أن بين لهم قدرة الله عليهم ذكر فعلتهم وأسبابها الحقيقية المتمثلة بالغرور والجهل، واتباع وساوس الشيطان، وان ارتدادهم لم يكن قائماً على أسباب ذات قيمة، وذلك من أجل زعزعة ثقتهم بقرارهم: " ... وقد بلغني رجوع من رجع منكم عن دينه بعد الإقرار بالإسلام والعمل بشرائعه اغتراراً بالله عز وجل، وجهالة بأمره، وطاعة للشيطان و (الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً، انما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير)[١] "[٢].

وفي خاتمة الكتاب يبين أبو بكر الأسلوب الذي سيعامل به هؤلاء المرتدون، والمهلة التي تقدم لهم من قبل قادة الجيش قبل البدء بقتالهم وقد توسع في بيان طريقة عقابهم من أجل تخويفهم والتأثير في نفوسهم مما يساهم في إضعاف " قوتهم الحربية بإشعارهم بأنهم قد اخترقوا الحدود المحرمة عليهم حين ارتدوا عن الاسلام من غير روية، أو تفكير عميق بما جاء به من عقائد، وأفكار وقواعد وسلوك للمبالغة في وصمهم بعقدة الذنب "[٣]. " فقد وجهت اليكم خالد بن الوليد في جيش من المهاجرين والأنصار وأمرته أن لا يقاتل أحداً حتى يدعوه إلى الله عز وجل، ويعذر إليه وينذر فمن دخل في الطاعة وسارع إلى الجماعة، ورجع عن المعصية إلى ما كان يعرف من دين الاسلام، ثم تاب إلى الله تعالى وعمل صالحاً قبل الله منه ذلك وأعانه عليه، ومن أبى أن يرجع إلى الاسلام بعد أن يدعوه خالد بن الوليد، ويعذر إليه فقد أمرته أن يقاتله أشد القتال بنفسه ومن معه من أنصار دين الله وأعوانه لا يترك أحداً قدر عليه إلا أحرقه بالنار إحراقاً، ويسبي الذراري والنساء، ويأخذ الأموال، فقد أعذر من أنذر والسلام ... "[٤]، واستمر أبو بكر في محاولته السلمية لإعادتهم للاسلام وظهر ذلك جلياً في وصيته لأمرائه حين عقد الألوية وجهز البعوث فطلب إليهم إعطاء فرصة للمرتدين ليعودوا إلى الاسلام فإن أجابوا حقنوا دماءهم وامتنعوا من السباء، وإن أبوا فلا سبيل أمام القادة إلا قتالهم[٥]، فالمشركون والمرتدون لا يقبل منهم الا الاسلام أو القتل[٦].

---

(١) سورة فاطر، آية ٦.

(٢) كتاب الردة، ص: ٤٢.

(٣) محمود المقداد، تاريخ الترسل النثري عند العرب في صدر الاسلام، ط١، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، سورية، ١٩٩٣، ص: ١٠١

(٤) تاريخ الرسل والملوك، ٢٥١/٣؛ كتاب الردة، ص: ٤٢.

(٥) المصدر نفسه، ٢٥٢/٣؛ صبح الأعشى، ١٩٥/١٠.

(٦) أبو يوسف، الخراج: ١٨٥-١٨٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولما انساح المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها فاتحين لم يكرهوا أحداً على الدخول في الاسلام[١]؛ فكانوا يعرضون على الاعداء ثلاثة خيارات آخرها الحرب؛ جاء في رسالة أبي عبيدة إلى بطارقة إيلياء وسكانها: " ... أما بعد، فإنّا ندعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وأنّ محمداً عبده ورسوله، (وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأنّ الله يبعث من في القبور)[٢]، فإذا شهدتم بذلك حرمت علينا دماؤكم، وأموالكم، وكنتم إخواننا في ديننا، وإن أبيتم فأقروا لنا بإعطاء الجزية عن يد وأنتم صاغرون، وإن أبيتم سرتُ إليكم بقوم هم أشدّ حباً للموت منكم للحياة "[٣].

وجاء في رسالة أخرى أرسلها اليهم عمر بن العاص: " ... فإذا أتاكم كتابي هذا فأسلموا تسلموا، وإلا فاقبلوا الينا حتى أكتب لكم كتاباً أماناً على دمائكم وأموالكم، وأعقد لكم عقداً، تؤدون إلي الجزية عن يد وأنتم صاغرون، وإلا فوالله الذي لا إله إلا هو لأرمينكم بالخيل بعد الخيل، وبالرجال بعد الرجال، ثم لا أقلع عنكم حتى أقتل المقاتلة، وأسبي الذرية، وتكونون كأمة كانت فأصبحت كأنها لم تكن "[٤]، فالخيارات الثلاثة هي الإسلام أو دفع الجزية أو القتال، فإن أجابوا إلى الإسلام أو الجزية أحرزوا دماءهم وأموالهم، وإن رغبوا عن الاسلام أو دفع الجزية قوتلوا[٥].

لقد كان في النصوص السابقة إثبات أنّ دعوة السلام في الإسلام قاعدة أصيلة أقرها القرآن واتبعها الرسول عليه السلام ومن بعده الخلفاء الراشدون، فلم يقاتلوا قوماً قطّ حتى يدعوهم إلى الله ورسوله، فالأصل في العلاقات بين المسلمين وغيرهم كان يقوم " على تقديم السلام من جانب

---

(١) محمود أحمد عبد الله أبو ليل، أسس العلاقات الدولية في الاسلام، رسالة دكتوارة، جامعة الأزهر، ١٩٧٨، ص ١٥٤، ١٥٩.

(٢) سورة الحج، آية ٧.

(٣) الواقدي، أبو عبد الله محمد بن عمر، (ت ٢٠٧هـ)، فتوح الشام، م١، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ١٩٣٤، ٢٤٣/٢. (وهذا الكتاب غير ثابت النسبة للواقدي).

(٤) الأزدي، محمد بن عبد الله، (ت ٢٣١هـ)، فتوح الشام، تحقيق: عبد المنعم عبد الله عامر، مؤسسة سجل العرب، القاهرة، ١٩٩٧، ص: ١٦١.

(٥) أبو يوسف الخراج، ص: ٣٦-٣٧؛ ابن قيم الجوزية، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر (ت ٧٥١هـ) احكام أهل الذمة، ط١، تحقيق: صبحي الصالح، ٢م، دار العلم للملايين، ١٩٨١، ٦٩١/١-٧٥١؛ مجيد خدوري، الحرب والسلام في شرعة الاسلام، ط١، الدار المتحدة للنشر، بيروت، ١٩٧٣، ص: ١٠٨؛ عارف خليل أبو عيد، العلاقات الخارجية في دولة الخلافة، ط٢، دار الأرقم، بريطانيا، ١٩٩٠، ص: ٢٧٣-٢٨٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المسلمين، واعتباره الأصل في العلاقة، واعتبار الحرب ضرورة لا يلجأ اليها إلا عند مقتضياتها "[١].

(١) عبد الشافي محمد عبد اللطيف، دولة الاسلام، وعلاقاتها الدولية في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، مجلة كلية العلوم الاجتماعية، العدد الثاني، الرياض، ١٩٧٨، ص: ٤٧٥؛ محمد جمال الدين محفوظ، المدخل إلى العقيدة والاستراتيجية الاسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٦، ص: ٣٧؛ أسس العلاقات الدولية في الاسلام، ص: ١٥٤ وما بعدها.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثاني

رسائل الدعوة إلى الجهاد

قال تعالى: " وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم "[١].

وقد تبين أنّه انطلاقاً من جوهر الدين الاسلامي المنزل إلى الناس كافة كان لا بدّ للمسلمين من حمل رسالته ونشرها في مختلف أرجاء العالم المعروف في تلك الحقبة، والدعوة إلى الاسلام ابتدأت دعوة سلمية دون إكراه، وفي حال فشل المسلمين في ذلك فإنّ قرار الحرب يغدو قراراً حتمياً، ولم يخض المسلمون حرباً من غير اتخاذ الاحتياطات كافة والاستعدادت الماديّة والمعنوية؛ فكانوا يعلنون التعبئة العامة، ويصدرون الأوامر لحشد الجيوش، وبين أيدينا جملة من النصوص التي تحمل دعوة للجهاد والاستعداد العسكري.

إنّ أوّل ما يطالعنا من رسائل الجهاد رسالة أبي بكر الصديق إلى عكرمة بن أبي جهل وهو بمكة يأمره بالمسير لقتال أهل الرّدة، ويطلب إليه استنهاض إحياء العرب للقتال: " ... أما بعد، فقد بلغك ما كان من أمر الأشعث بن قيس وقبائل كندة، وقد أتاني كتاب زياد بن لبيد يذكر أنّ قبائل كندة قد اجتمعوا عليه وعلى أصحابك، وقد حصروهم في مدينة تريم بحضرموت، فإذا قرأت كتابي هذا فسر إلى زياد بن لبيد في جميع أصحابك، ومن أجابك من أهل مكة، واسمع له وأطع، فإنه الأمير عليك، وانظر لا تمرّنّ بحيّ من أحياء العرب إلا استنهضتهم فأخرجتهم معك إلى محاربة الأشعث بن قيس وأصحابه إن شاء الله، والسلام "[٢].

وقد عُني الخلفاء بإعداد المقاتلين من ناحية نفسية، فعمدوا إلى تحريض الأمة على القتال، وحضها عليه، ليوقظوا فيهم دوافع الحماسة والإقدام، ولينشروا في نفوسهم روح الفداء، ليزهدوا في الدنيا، ويقاتلوا من أجل عقيدة تستحق أن يُستشهد من أجلها[٣]؛ روى الحارث بن كعب عن عبد الله ابن أبي أوفى الخزاعي أن أبا بكر أرسل إلى أهل اليمن كتاباً يدعوهم فيه إلى قتال الروم، واتبع في دعوته سبل الإقناع والترغيب؛ فالجهاد فريضة من الله، والمجاهد لا بدّ أن ينال إحدى الحسنين،

---

(١) سورة الانفال، آية ٦٠.

(٢) كتاب الردة، ص: ١٧٤-١٧٥.

(٣) ياسين سويد، الفن العسكري الاسلامي، ط٢، شركة المطبوعات، بيروت، ١٩٩٠، ص: ٤٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وضرب لهم مثلاً بمن قبله من المسلمين الذين سبقوهم في تلبية نداء الجهاد ليزيد الحماسة في نفوسهم، والرغبة في المنافسة " ... أما بعد، فإنّ الله كتب على المؤمنين الجهاد وأمرهم أن ينفروا خفافاً وثقالاً، وقال: (جاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله) "(١)، فالجهاد فريضة مفروضة، وثوابه عند الله عظيم، وقد استنفرنا من قبلنا من المسلمين إلى جهاد الروم بالشام، وقد سارعوا إلى ذلك، وعسكروا وخرجوا، وحسنت في ذلك نيتهم، وعظمت في الخير حسبتهم، فسارعوا عباد الله إلى فريضة ربكم، وإلى إحدى الحسنيين، أما الشهادة وأما الفتح والغنيمة، فإنّ الله لم يرضَ من عباده بالقول دون العمل "(٢).

وعمل أبو بكر على إدامة الروح المعنوية العالية في دعوته للجهاد عن طريق بيان ما وعد الله المقاتلين من الأجر والثواب؛ روى الخزاعي أن أبا بكر أرسل إلى خالد بن الوليد إثر مقتل مسيلمة الكذاب يدعوه ومن معه من المهاجرين والأنصار إلى السير نحو العراق؛ " ... وقد أخبرنا الصادق المصدوق محمد صلى الله عليه وسلّم أنّ الشهداء يوم القيامة يُحشرون وسيوفهم على عواتقهم، وأوداجهم تشخب دماً، فلا يتمنون على الله شيئاً إلا أعطاهم إيّاه، حتى يوفوا أمانيهم وما لم يخطر على قلوبهم، فما من شيء يتمناه الشهداء يومئذ بعد دخول الجنة إلا أن يردوا إلى الدنيا فيقرضوا بالمقاريض في ذات الله لعلمهم ثواب الله "(٣).

ولم يصوّر القادة الحرب طريقاً مفروشاً بالورد والغنائم، بل كانوا واقعيين في نظرتهم؛ فالمجاهدون لا بد أن يواجهوا المصاعب والمشاق والفجيعة بالأموال والأنفس والأولاد، فالحرب مركب صعب يستفرغ فيها المجاهد الوسع والطاقة، ومن يخوض غمارها معرّض في كل لحظة لفقدان غالٍ وعزيز، لذلك كانت مرتبة الشهداء عند الله عالية: "... فثقوا عباد الله بموعود الله وأطيعوه فيما فرض عليكم، وارغبوا في الجهاد رحمكم الله وإن عظمت فيه المؤنة، وبعدت فيه المشقة، وفجعتم فيه بالأموال والأنفس والأولاد، ... ، فسيروا معه رحمكم الله، ولا تتناءوا عن المسير فإنّه سبيل يعظم الله فيه الأجر والثواب ويزيد فيه الحسنات، لمن حسنت بالجهاد نيته، وعظمت في الخير رغبته..."(٤).

---

(١) سورة التوبة، آية ٤١.

(٢) الأزدي: فتوح الشام، ص: ٨-٩.

(٣) كتاب الردة، ص: ١٢٨؛ الأزدي، فتوح الشام، ص: ٥٤، البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي (ت: ٤٥٨هـ) السنن الكبرى، ط١، ٩م، دار المعرفة، بيروت، ١٣٥٦هـ، ١٧٩/١.

(٤) كتاب الردة، ١٢٨-١٢٩؛ الأزدي، فتوح الشام، ص: ٥٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ودعوة الجهاد هذه كانت تجد صدىً إيجابياً في نفوس عامة المسلمين؛ روى أنس بن مالك حامل رسالة أبي بكر إلى أهل اليمن أن كل من قرأ عليه كتاب الخليفة يحسن الرد قائلاً: " نحن سائرون "(١)، وحين قُرئ كتاب ابي بكر على أهل مكة قالوا: " أجبنا داعي الله، وصدقنا قول نبيه محمد "(٢)، وفي هذه الاستجابة السريعة دلالة على النجاح الذي حققته دعوة أبي بكر.

وباستمرار الفتوحات وتزايد الخطر الذي تواجهه الدولة الاسلامية، اتخذت الدعوة إلى الجهاد في عهد عمر بن الخطاب منحنىً آخر نلمح فيه الحزم والأمر المباشر أكثر من كونها دعوة قائمة على الترغيب والاختيار؛ روى الطبري عن عدد من الرواة أنّه في السنة الثالثة عشرة للهجرة وحّدت الفرس كلمتها واجتمعت جيوشها لمواجهة الجيش الاسلامي، وزاد خطرهم، فأعلم عمر بذلك فأرسل إلى المثنى بن حارثة ومن معه يقول: " ... لا تدعوا في ربيعة أحداً ولا مضر ولا حلفانهم أحداً من أهل النجدات، ولا فارساً إلاّ اجتلبتموه، فإن جاء طائعاً، وإلاّ حشرتموه، احملوا العرب على الجدّ، إذ جدّ العجم، فلتلقوا جدهم بجدكم "(٣)، وعزز هذا الأمر برسالة أخرى بعث بها إلى عمال العرب على الكور والقبائل جاء فيها: "... لا تدعا أحداً له سلاح أو فرس أو نجدة، أو رأي إلا انتحبتموه، ثم وجهتموه إليّ، والعجل العجل "(٤)، وتؤكد هاتان الرسالتان الفئات التي دعا الخليفة عمر إلى إشراكهما في القتال بحيث تشمل كل ما من يملك القدرة الماديّة والعقليّة للإفادة منه في مراحل المعركة وإدارتها؛ فمن يملك السلاح أو الخيل، والقدرة الجسدية، وصاحب الرأي والمشورة لا بدّ من اختياره للمشاركة في الحرب. وروى فروة بن لقيط أن عثمان بن عفان أرسل إلى عامله الوليد بن عقبة كتاباً يطلب إليه إرسال نجدة من أهل الكوفة لنصرة معاوية في قتال الروم وجاء فيه: " أما بعد، فإنّ معاوية بن أبي سفيان كتب إليّ يخبرني أنّ الروم قد أجلبت على المسلمين بجموع عظيمة، وقد رأيت أن يمدّهم إخوانهم من أهل الكوفة؛ فإذا أتاك كتابي هذا فابعث رجلاً ممن ترضى نجدته، وبأسه، وشجاعته، وإسلامه "(٥).

---

(١) الأزدي، فتوح الشام، ٨-٩.

(٢) المصدر نفسه، ص: ٨-٩.

(٣) تاريخ الرسل والملوك، ٤٧٨/٣؛ ابن حبيش، عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن يوسف، (٥٨٤هـ)، كتاب الغزوات الضامنة الكاملة والفتوح الجامعة الحافلة الكائنة في أيام الخلفاء الأول الثلاثة، ط١، ٢م، تحقيق: سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٢، ١٠٦/٢.

(٤) تاريخ الرسل والملوك، ٤٧٨/٣-٤٧٩؛ غزوات أبن حبيش، ١٠٨/٢.

(٥) المصدر نفسه، ٢٤٧/٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي رسالة تنسب لأبي عبيدة دعوة إلى الجهاد، ومما يميز هذه الرسالة أنها آيات قرآنية فيها حض على القتال، وتقريع غير مباشر لما لمسه من تقاعس عن نجدته ونصرته، وقد وجه أبو عبيدة الرسالة إلى الخليفة عمر بن الخطاب " سلام عليك، أمّا بعد، فإن الله تبارك وتعالى قال: (إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم، وتكاثر في الأموال والأولاد، كمثل غيث أعجب الكفار نباته، ثم يهيج فتراه مصفراً، ثم يكون حطاماً، وفي الآخرة، عذاب شديد، ومغفرة من الله ورضوان، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور، سابقوا إلى مغفرة من ربكم، وجنة عرضها كعرض السماء والأرض، أُعدت للذين آمنوا بالله ورسله، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم)[١]"[٢].

وفي عدد من رسائل الجهاد أمر بتحديد عدد المتطوعين المطلوبين للاشتراك في معارك الفتوح، روى أبو جعفر أن أبا بكر كتب إلى عتّاب بن أسيد: "... ان اضرب على أهل مكة، وعملها خمسمائة مقو، وابعث عليهم رجلاً تأمنه "[٣]، وحدد القائد يزيد بن أبي سفيان نسبة الاختيار؛ فطلب من أمراء الأجناد أن يبعثوا إليه من كل ثلاثة رجال رجلاً: " أما بعد، فإني قد ضربت على الناس بعثاً، أريد أن أسير بهم إلى قيسارية، فأخرجوا من كل ثلاثة رجلاً وعجلوا إشخاصهم إليّ، والسلام "[٤]، وخيّر عثمان بن عفان قائده الوليد بن عقبة في إرسال " ثمانية آلاف أو تسعة آلاف، أو عشرة آلاف "[٥].

---

(١) سورة الحديد، آية ٢٠-٢١.

(٢) أبو يوسف، الخراج، ص: ٣١٢.

(٣) تاريخ الرسل والملوك، ٣/٣٢٢.

(٤) الأزدي، فتوح الشام، ص: ٢٧٦؛ غزوات ابن حبيش، ١/٣٢٤.

(٥) تاريخ الرسل والملوك، ٤/٢٤٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثالث:

رسائل التعليمات والتوصيات

حملت المصادر لوناً ذا أهمية في الحرب وهو الرسائل التي تضمنت تعليمات وأوامر صادرة من مركز الخلافة أو القيادة العامة للجيوش، موجهة إلى القادة في ساحات القتال.

وأول ما يطالعنا في هذا الشأن إصرار الخليفة على أن يكون متصلاً بالأحداث ومتابعاً لمجريات الحرب ليعطي رأيه ويوجه تعليماته؛ روى كرب بن أبي كرب أحد المشاركين في القادسية أن عمر بن الخطاب كتب إلى سعد بن أبي وقاص يقول: "... واكتب إليّ في كلّ يوم"[١]، وروى الشعبي أن عمر أرسل إلى سعد في كتاب آخر يقول: "... واكتب بالذي يستقر عليه أمرهم..."[٢]، وحين كان عمر بن الخطاب لا يعرف جغرافية المكان الذي تدور فيه رحى المعركة كان لا يكتب إلى قادته بشأن الحرب والتخطيط لها إلاّ بعد أن يرسل إليه القائد وصفاً بالمكان الذي فيه المسلمون دقيقاً، كأنه يشاهده، ويطلب إليه كذلك أن يتنسّم أخبار العدو، ومن الذي يقوده، ليقف عليها ويتصفّح أحواله فيسلم من مكره، ويلتمس الغرّة في الهجوم[٣]؛ ومن ذلك كتابه إلى سعد: "... واكتب إليّ أين بلغك جمعهم، ومن رأسهم الذي يلي مصادمتكم، فإنّه قد منعني من بعض ما أردت الكتاب به قلة علمي بما هجمتم عليه والذي استقر عليّه أمر عدوكم، فصف لنا منازل المسلمين ... "[٤]. ويتضح من ذلك أن المسلمين كانوا حريصين على تعرّف مناطق الحرب ودراستها دراسة جيدة لمعرفة أسرارها، حتى لا يدفعوا بقواتهم إلى منطقة تكون معلومة إلى العدو، ويجهلونها هم، فيكون فيها ضياعهم، ويعدّ ذلك من سمات القيادة الرشيدة " التي تدرس وتلم بظروف المعركة قبل أن تخوضها، وتضع هذه القيادة الخطة التي يدخل الجيش المعركة بناءً عليها، وهذه الخطة لا توضع

---

(١) تاريخ الرسل والملوك، ٤٩٥/٣.

(٢) المصدر نفسه، ٤٨٨/٣؛ غزوات ابن حبيش، ١٢١/٢.

(٣) أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي الماوردي، ت (٤٥٠هـ)، الأحكام السلطانية، ط١، تحقيق: محمد بدر الدين النعساني، ١م، مطبعة السعادة، مصر، ١٩٠٩، ص: ٣٥.

(٤) تاريخ الرسل والملوك، ٤٩١/٣؛ غزوات ابن حبيش، ١٢١/٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بأسلوب ارتجالي، وإنما تأتي بعد دراسة واعية لكل جزيئات المعركة، وتوضع بناءً على ما يمكن التوصل إليه من معلومات سليمة وصحيحة وحقيقية ..."[١].

وكان المسلمون على معرفة بأن من أهمّ المسؤوليات الملقاة على عاتق القائد عدم تعريض أرواح الجند للخطر جرّاء سوء التخطيط، أو بسبب الغفلة عن مواضع الخطر في المعارك، والسعي إلى كسب الحرب بأقل الخسائر في الأرواح؛ روى الحسن بن عبد الله أن أبا عبيدة أرسل إلى قائده ميسرة بن مسروق يقول: "أما بعد، فإذا أتاك رسولي هذا فأقبل إليّ حين تنظر في كتابي هذا، ولا تعرّجنّ على شيء، فإنّ سلامة رجل واحد من المسلمين أحب إليّ من جميع أموال المشركين..."[٢]، وروى ابن اسحق أن عمر بن الخطاب أرسل إلى النعمان بن مقرن يطلب إليه الحفاظ على المسلمين جاء فيه: " ... فإذا أتاك كتابي هذا فسر بأمر الله، وبعون الله، وبنصر الله، بمن معك من المسلمين، ولا توطئهم وعراً فتؤذيهم، ولا تمنعهم حقهم فتكفرهم، ولا تدخلنهم غيضة، فإن رجلاً من المسلمين أحب إليّ من مائة ألف دينار... "[٣]، إن سلامة الجند تتطلب من القائد اختيار المكان المناسب لاقامتهم فلا يكون وعراً ولا يكون غيضة ذات شجر ملتف يعيق حركة الجند ويفرق جموعهم فيصبحوا هدفاً سهلاً للعدو، ويحضه على إعطاء الجنود حقهم الذي أوجبه الله لهم[٤]، وعزز عمر حرصه على سلامة المقاتلين في رسالة بعث بها إلى حرقوص بن زهير، دعاه فيها إلى تجنب الأماكن الوعرة "... بلغني أنك نزلت منزلاً كؤوداً لا تؤتى فيه الا على مشقة، فاسهل، ولا تشق على مسلم ولا معاهد ..."[٥]، وامتدت مظلة العناية لتشمل المسلمين ومن دخلوا معهم في عهد، وكان عمر بن الخطاب لا يشجع غارات الشتاء لما يواجهه المقاتلون فيها من مصاعب التعرّض للمهالك، فأرسل إلى عامله جَعْوَنَة بن الحارث: " إياي وغارات الشتاء "[٦]، وهذه الرسالة كان دافعها قصة

---

(١) محمد مزيد محمود عزت، المعلومات ودورها الفعّال في السرايا والغزوات النبوية، مجلة المكتبات والمعلومات العربية، العدد الثالث، الرياض، ١٩٨٤، ص: ١٤؛ وليد محمد جرادات، استراتيجية الفتوحات الاسلامية، ص: ٤٨-٥٢.

(٢) الأزدي، فتوح الشام، ص: ٢٤٢.

(٣) تاريخ الرسل والملوك، ١١٥/٤.

(٤) أبو سعيد الشعراني الهرثمي، مختصر سياسة الحروب، تحقيق: عبد الرؤوف عون، ١م، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة، ص: ١٦.

(٥) تاريخ الرسل والملوك، ٧٨/٤.

(٦) الدولابي، أبو بشر محمد بن أحمد بن حماد، (ت ٣٣٠هـ)، الكنى والأسماء، ط١، ١م، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٨٣، ١٠٢/١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مؤثرة؛ جاء في كتاب " الكُنى أن جَعْوَنَة بن الحارث بعث رسولاً إلى عمر، وكان عاملاً له على غزاة، فقال له عمر: "أسلِم المسلمون؟ فقال نعم كلهم الا رجلاً واحداً، عَذَلَت به دابته فساخ في الثلج، قال، فصنع ماذا؟ قال: هلك، قال: لقد أطلعتها غير مكترث؛ عليّ بفلان – كاتبه – فكتب إلى عامله جعونة: إياي وغارات الشتاء، فوالله لرجل من المسلمين أحب إليّ من الروم وما حوت "[١]، إن سلامة المسلمين كانت من الأهمية إذ يسأل الخليفة الرسول عنها قبل أن يسأل عن نتيجة الغزاة، ولم يرضه رد الرسول حين سأله عمّا حل بالرجل الذي هلك في الثلج، وكأنّه كان غير متعاطف معه أو عدّ الأمر شيئاً عادياً يحدث في أثناء القتال إلا أن عمر كان أكثر إنسانية وحرصاً على حياة الجندي المسلم، فأصدر أمره بمنع القتال في الشتاء، ودعا كذلك أبا عبيدة للترفق بالمقاتلين والمحافظة على سلامتهم من أجل تحقيق الكفاية القتالية اللازمة، فطلب إليه أن لا يغترّ بالغنائم ولا يصيبه الطمع فيلقي الجند في المهالك، ولا يرسل سريّة لتعرّف أخبار العدو إلاّ ويرافقها عدد من الجند لضمان حمايتها وسلامتها، وتجنب مواضع الخطر حيثما كانت: " ... لا تقدم المسلمين إلى هلكة رجاء غنيمة، ولا تنزلهم منزلاً قبل أن تستريده لهم وتعلم كيف مأتاه، ولا تبعث سرية الا في كثفٍ من الناس، وإياك وإلقاء المسلمين في الهلكة ... "[٢]، ولا يخفى أن القائد الذي يحرص على أرواح جنوده ويعنى أشد العناية بالمحافظة عليها يستطيع أن يحقق النصر بأقل الخسائر في الأرواح لأنه يحصل على ثقة جنوده، ويتبعونه عن ايمان وثقة راسخة[٣].

وكانت الصراحة والصدق عنصرين مهمين فيما يأمر به الخليفة من غير مجاملة في مجال الحرب ولا سيما في شؤون تولية القادة أو التوصية بعدم اشراك بعضهم في المعارك؛ روى سيف ابن عمر أن أبا بكر حين قرر إرسال بعوث الفتح أرسل إلى قادته تعليمات يتقرر بموجبها عدم إشراك المرتدين في معارك الفتوح: "... لا تستعينوا بمرتد في جهاد عدو "[٤]، وأكدّ ذلك في رسالة بعثها إلى خالد بن الوليد وعياض بن غنم جاء فيها: "... استنفرا من قاتل أهل الردة، ومن ثبت على الاسلام بعد رسول الله، ولا يغزون معكم أحد ارتدّ حتى أرى رأيي ..."[٥]، ولم يشهد أيام القتال مرتد في زمن أبي بكر ويعود قرار الصديق إلى أنّ جهاد العدو يتطلّب ثقة القائد بمن معه من

---

(١) االكُنى والأسماء، ١٠٢/١.

(٢) تاريخ الرسل والملوك، ٤٣٤/٣؛ البداية والنهاية، ١٩/٦.

(٣) مونتجمري وات، الحرب عبر التاريخ، ترجمة: فتحي عبد الله النمر، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧١، ص: ٣٢.

(٤) تاريخ الرسل والملوك، ٥٤١/٣.

(٥) المصدر نفسه، ٣٤٧/٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الجنود في أرض المعركة، ليكونوا وحدة عراها متماسكة، وقلباً واحداً، لا تتنازعهم الأهواء والرغبات فيهزمون، خاصة والفتوحات ما تزال في بدايتها، وحين ضرب الاسلام بجرّانه وانتشر في مناطق واسعة سمح عمر بن الخطاب لمن ارتدّ بالاشتراك في الفتوحات[١] وكان القادة على علم بجنودهم، وقيمة كل منهم في الحرب؛ روى ابن سيرين أن عمر بن الخطاب أرسل إلى أحد عماله قراراً يقصي البراء بن مالك عن قيادة أيّ جيش مسلم: " لا تستعملوا البراء بن مالك على جيش من جيوش المسلمين، فإنه مهلكة من المهالك يقدم بهم "[٢]، والبراء كان شديداً في القتال، إذ روي أنه قتل تسعة وتسعين من المشركين وحده، سوى ما شارك فيه المسلمين[٣]، فكأن عمر استهدف من وراء قراره الحدّ من قوة البراء وقدرته على القتل لأنّ قتال العدو لا يقصد منه الفتك به بل نشر الاسلام، وكان القائد يعمل على كبح جماح جنده حتى لا تستبد بهم شهوة الانتقام أو النصر فيلجأ الجند إلى العنف، والقائد لا بدّ أن يكون على علم بخصائص رجاله والفروق الفردية بينهم ليعمل على توجيه كل منهم إلى ما يناسبه من مهمات في الحرب ومن أجل استغلال أقصى ما لديهم من طاقات ماديّة ومعنوية لتحقيق الأهداف المرجوة والمتوخاة منهم[٤]، فالهرثمي يدعو الرئيس إلى ضرورة أن يعرف مرؤوسيه فعليه أن يعرف من منهم الحافظ للسرّ، والمساعد على الأمر، وذا الرأي الأصيل، والناصح الشفيق، والسامع المطيع، والوادّ المحبّ، والذكي الوفي، والصدوق اللهجة، والسليم الناحية، والصبور على الشدة والثابت على خلق واحد[٥] ويدعوه كذلك إلى معرفة المضاد لكل خصلة من هذه الخصال[٦].

وكان قادة المسلمين يعرفون خصائص القادة فيصدرون تعليماتهم وفق هذه المعرفة؛ روى ثابت بن سهل بن سعد أن أبا بكر حين أمر خالد بن الوليد على جند الشام أرسل إلى أبي عبيدة كتاباً

---

(١) تاريخ الرسل والملوك، ٤٨٩/٣.

(٢) ابن عبد البر، يوسف بن عبد الله، (ت ٤٦٣هـ)، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ٢م، تحقيق: علي محمد البجاوي، مكتبة نهضة مصر، ١٥٤/١؛ ابن قدامة، موفق الدين عبد الله، (ت ٦٢٠هـ)، الاستبصار في نسب الصحابة من الأنصار، تحقيق: علي نويهض، دار الفكر، ص: ٣٤؛ عز الدين بن الأثير بن أبي الحسن علي بن محمد الجزري، (ت ٦٣٠هـ)، أسد الغابة في معرفة الصحابة، تحقيق: محمد عبد المنعم البري وآخرين، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٤، ٣٦٤/١.

(٣) المصدر نفسه، ١٥٤/١.

(٤) الحرب عبر التاريخ، ص: ٤٢٦.

(٥) مختصر سياسة الحروب، ص: ٥٤-٥٥.

(٦) المصدر نفسه، ص: ٥٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

جاء فيه: " أما بعد، فإني قد ولّيت خالداً قتال الروم بالشام، فلا تخالفه، واسمع له، وأطع أمره، فإني وليته عليك، وأنا أعلم أنك خير منه، ولكن ظننت أن له فطنةً في الحرب ليست لك، أراد الله بنا وبك سبل الرّشاد "(١). وقال بشأن عمرو بن العاص حين أرسله مدداً لأبي عبيدة موصياً الأخير للأخذ برأيه والاستعانة بتجربته: "... وقد وجهت اليك عمرو بن العاص في جيشٍ لجبٍ، وعمرو قد علمت أنه من ذوي الرأي والتجربة والصبر والإقدام والجدّ، والحذر، وقد أوصيته أن لا يضيع لك حقاً، فاستعن برأيه، واستوصِ به خيراً "(٢)، وطلب عمر إلى عتبة بن غزوان الاستعانة بمشورة عرفجة ابن هرثمة لأنه: " ذو مجاهدة للعدو ومكايدة "(٣)، وأرسل إلى النعمان بن مقرن رسالة يطلب اليه مشاورة اثنين من الرجال في الحرب مع عدم توليتهما أمر شيء فيها: " إن قبلك رجلين هما فارسا العرب، عمرو بن معدي كرب، وطليحة بن خويلد، فشاورهما، ولا تولهما من الأمر شيئاً "(٤). ويتضح من كل ذلك أن المصلحة العامة في المعركة وضعت فوق أي اعتبارات أخرى؛ فأبو عبيدة لا ينكر فضله لكن القائد الأعلى رأى أن قيادة الجيش تستدعي ميزات ليست متاحة لعمرو وطليحة، ولكنهما يملكان قدرة على إسداء الرأي، وفي الحرب يوظف القائد كل قدرات جيشه العقلية والجسدية وينضاف إلى ذلك أنّ عمراً وطليحة كانا من المرتدين وقد أشرك عمر مَن ارتدّ في القتال ولم يكن يسمح لهم بإمرة الجيش، وحرص عمر بن الخطاب على تتبع أخبار المقاتلين وبلاء كل منهم في الحرب فقيل إنه أرسل إلى سعد بن أبي وقاص يقول: " أنبئني أي فارس كان يوم القادسية أفرس، وأي راجل كان أرجل، وأي راكب كان أثبت "(٥)، وأرسل إليه كذلك: " أنبئني من وجدت أصبر ليلة الهرير "(٦)، وذلك من أجل معرفة من أبلى بلاءً حسناً في المعركة ليكافئه.

أما إدارة المعركة فلم تكن وقفاً على قادة ساحة القتال، بل كان الخليفة في مركز الدولة يضع الخطوط العريضة للقادة العسكريين في سيرهم للقاء الأعداء، وقد حملت الرسائل تعليمات متنوعة مرتبطة بإدارة دفة المعارك على الجبهات المختلفة، ومن هذه الكتب ما له صلة بالمهمات

---

(١) الأزدي، فتوح الشام، ص: ٨٦.

(٢) الفتوح، ١/١٢٥؛ وانظر: الأزدي، فتوح الشام، ص: ٥٠.

(٣) تاريخ الرسل والملوك، ٣/٥٩٣.

(٤) أبو حنيفة، أحمد بن داود الدينوري، (ت ٢٨٢هـ)، الاخبار الطوال، ط١، تحقيق: عبد المنعم عامر، ١م، ١٩٦٠، ص: ١٣٥.

(٥) غزوات ابن حبيش، ٢/٢٣٦.

(٦) المصدر نفسه، ٢/٢٣٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الاستطلاعية الاستخبارية لتعرف أحوال العدو في شتى نواحيها: " قوتهم، وعددهم، ومخططاتهم ليمكن مجابهتم بقوة مكافئة "[١].

ومن الرسائل التي تحمل في ثناياها أوامر استخبارية كتاب رسول الله الذي حمّله لعبد الله بن جحش الأسدي؛ روى نافع بن جبير أنه في شهر رجب على رأس سبعة عشر شهراً من هجرة الرسول بعث رسول الله عبد الله بن جحش بن رئاب الأسدي قائداً لسرية استطلاعية تضم ثمانية من المهاجرين وكتب له كتاباً وأمره ألاّ ينظر فيه إلا بعد يومين من مسيره، وحين فتحه عبد الله فهم ما فيه ومضى في تنفيذه[٢]، وقد جاء فيه: " إذا نظرت في كتابي هذا فامضِ حتى تنزل نخلة[٣] بين مكة والطائف، فترصد فيها قريشاً، وتعلم لنا من أخبارهم "[٤]، إن اختيار موضع نخلة يعود إلى أنها " ممر للقوافل الذاهبة إلى مكة، وأقرب نقطة إليها، وهي منطقة ليست في حسبان قريش من حيث التهديد، ولإشعار قريش بقوة المدينة وخطرها، بالإضافة إلى أهمية هذا الموقع واستراتيجيته من الدفاع والهجوم ضد المدينة "[٥].

وباتساع الفتوحات زمن خليفتي رسول الله فإنّ أخبار الفتوح حملت العديد من كتب الخطط الحربية؛ روى الشعبي أن أبا بكر أرسل إلى عياض بن غنم خطة لدخول العراق جاء فيها: "... سر حتى تأتي المصيّخ[٦] فابدأ بها، ثم ادخل العراق من أعلاها، وعارق حتى تلقى خالداً "[٧]، وأرسل

---

(١) العلاقات الخارجية في دولة الخلافة، ص: ١٧١.

(٢) الطبقات الكبرى، ١٠/١.

(٣) نخلة: واديان لهذيل على بعد ليلتين من مكة؛ ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي، (ت ٦٢٦هـ)، معجم البلدان، ٥م، دار صادر، بيروت، ٢٧٧/٥.

(٤) السيرة النبوية، ١٧٩/٢؛ المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي، (ت ٨٤٥هـ)، امتاع الأسماع، تحقيق: محمود محمد شاكر، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٤١، ٥٦/١؛ وبرواية أخرى في: الأبيّ، أبو سعد منصور بن الحسين، (ت ٤٢١هـ)، نثر الدر، تحقيق: محمد علي قرنة، وعلي محمد البجاوي، ٧م، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨١، ٢٥٩/١.

(٥) عبد الجبار منسي العبيدي، سرية نخلة احدى سرايا الرسول الهامة، المؤرخ العربي، ع ٩، بغداد، ١٩٧٨، ص: ١٤٥ – ١٧٩؛ وانظر: بريك محمد بريك العمري، السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة (دراسة نقدية تحليلية)، ط١، دار ابن الجوزي، السعودية، ١٩٩٦، ص: ٩٣-١٠٦.

(٦) المُصيّخ: موضع يقع بين حوران والقلت، صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادي، (ت ٧٣٩هـ)، مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، ط١، تحقيق: علي محمد البجاوي، ٣م، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٣، ١٢٨٠/٣.

(٧) تاريخ الرسل والملوك، ٣٤٦/٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إلى خالد أن يدخل العراق من أسفلها، وأن يبدأ بفرج أهل السّند والهند وهي الأبلّة[١]، وحين يلتقي خالد وعياض في العراق فعليهما اتباع تعليمات أبي بكر وهي: "... إذا اجتمعتما بالحيرة[٢]، وقد فضضتما مسالح فارس، وأمنتما أن يُؤتى المسلمون من خلفهم فليكن أحدكما ردءاً للمسلمين ولصاحبه بالحيرة وليقتحم الآخر على عدوّ الله، وعدوكم من أهل فارس، دارهم ومستقر عزهم المدائن "[٣]، ومن أجل الضغط على جيش الروم طلب أبو بكر من أبي عبيدة إجراء تدابير تكفل له ذلك فأرسل إليه: "... فبثّ خيلك في القرى والسّواد، وضيق عليهم بقطع الميرة والمادّة، ولا تحاصرنّ المدائن حتى يأتيك أمري، فإن ناهضوك، فانهد إليهم ... "[٤].

وفي فتوح الشام طلب عمر بن الخطاب من أبي عبيدة أن يبدأ بفتح الأردن من ناحية دمشق لأنها " حصن الشام وبيت مملكتهم "[٥]، ورسم للقائد خطة السير في الفتح فأرسل إليه يقول: " واشغلوا عنكم أهل فحل[٦]، بخيل تكون بإزائهم في نحورهم، وأهل فلسطين وأهل حمص، فإن فتحها الله قبل دمشق فذاك الذي نحب، وإن تأخر فتحها حتى يفتح الله دمشق فلينزل بدمشق من يمسك بها، ودعوها، وانطلق أنت وخالد إلى حمص ودع شرحبيل وعمراً، وأخلهما بالأردن وفلسطين ... "[٧]. وكان القادة بعيدي النظر في خططهم الحربية؛ فعمر بن الخطاب يطلب إلى يزيد بن أبي سفيان المسير إلى قيسارية[٨] وفتحها حتى لا تكون بوابة للروم لإعادة ما فتحه المسلمون فقال له: "...فعسكر بالمسلمين، ثم سر إلى قيسارية فانزل عليها، ثم لا تفارقها حتى يفتحها الله عليك، فإنه لا ينبغي افتتاح ما افتتحتم من أرض الشام مع مقام أهل قيسارية فيها، وهم عدوكم وإلى جانبكم، وأنه لا يزال قيصر طامعاً في الشام ما بقي فيها أحد من أهل طاعته متبعاً، ولو قد فتحتموها

---

(١) الأبلّة: بلدة على شاطيء دجلة في زاوية الخليج الذي يدخل إلى مدينة البصرة، معجم البلدان، ٧٧/١.

(٢) الحيرة: مدينة كانت على ثلاثة أميال من الكوفة على موضع يقال له النجف، معجم البلدان، ٣٢٨/٢.

(٣) تاريخ الرسول والملوك، ٣٤٧/٣.

(٤) المصدر نفسه، ٣٤٧/٣-٤٣٨؛ ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن، (ت ٥٧١هـ)، تاريخ مدينة دمشق، ٤٠م، تحقيق: محب الدين ابي سعيد عمر بن غرامة العمروي، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٥، ١٢٨/٢.

(٥) المصدر نفسه، ٣٤٧/٣-٤٣٨.

(٦) فحل: موقع أثري يقع في شمال الأردن في الغور الأوسط.

(٧) تاريخ الرسل والملوك، ٣٤٧/٣-٤٣٨؛ تاريخ مدينة دمشق، ط، ١٩٩٥، ١٢٨/٢.

(٨) قيسارية: بلد على ساحل بحر الشام تعدّ في أعمال فلسطين، معجم البلدان، ٤٢١/٤؛ وهي الآن قرية عربية على بعد ٤٢ كيلو جنوب غرب حيفا، محمد محمد حسن شرّاب، معجم بلدان فلسطين، ط٢، الأهلية للنشر والتوزيع، ١٩٩٦، ص: ٦١٢-٦١٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قطع الله رجاءه من جميع الشام، والله عز وجل فاعل ذلك "[١]، وحَمَل الأمر بفتح قيسارية في هذه الرسالة المسوّغات المنطقية له؛ حتى لا تصبح هذه المدينة منفذاً للروم للعودة إلى الأراضي التي تمت سيطرة المسلمين عليها، لا سيّما وأنه ما زال فيها موالون للروم، وبفتحها فإنّ المسلمين يحكمون سيطرتهم على الشام كله.

وفي بعض الأحيان كان القائد يختار الموقع الذي تنزل فيه القوات بحيث إذا أراد أن يتقدم منه إلى العدوّ قدر على ذلك، وإن أراد التأخر عنه كان ذلك في مكنته[٢]؛ روى سيف بن عمر أن عمر ابن الخطاب كتب إلى سعد بن أبي وقاص يقول: "... إن هزم الله الجندين: جند مهران وجند الأنطاق، فقدّم القعقاع حتى يكون بين السّواد وبين الجبل على حدّ سوادكم "[٣]، وأرسل إليه ورحى القادسية دائرة: "... فارتحل بالناس حتى تنزل فيما بين عذيب الهجانات وعذيب القوادس[٤]، وشرّق بالناس وغرّب بهم "[٥].

وكان اختيار قادة الجيوش يقع ضمن دائرة اهتمام الخليفة الذي كان ينتقي القادة ممن يرى فيهم الكفاية والقدرة حتى لا يحدث فتور في معنويات المقاتلين، والخليفة يحدد مكان كل قائد في الجيش انطلاقاً من حسن معرفته بالرجال واختياره لهم؛ روى سيف بن عمر أن الفاروق عمر أرسل إلى سعد بن ابي وقاص يطلب إليه المسير نحو جلولاء[٦] في جيش قوامه اثنا عشر ألفاً، وحدد له القادة على النحو التالي: " ... واجعل على مقدمته القعقاع بن عمرو، وعلى ميمنته سعر بن مالك، وعلى ميسرته عمرو بن مالك بن عقبة، واجعل على ساقته عمرو بن مرّة الجهني... "[٧]، وكتب إليه في فتح تكريت: " سرّح إلى الأنطاق عبد الله بن المعتم، واستعمل على مقدمته ربعي بن الأفكل العنزي، وعلى ميمنته الحارث بن حسان الذهلي، وعلى ميسرته فرات بن حيان، وعلى ساقته هانىء بن قيس"[٨]، وكان عمر حريصاً على اتخاذ الاحتياطات في حالة استشهاد القائد، فلا شيء يُترك للصدفة، فهناك تسلسل قيادي في القوات؛ كتب عمر بن الخطاب إلى النعمان بن مقرن في أثناء فتح

---

(١) الأزدي، فتوح الشام، ص: ٢٦.

(٢) مختصر سياسية الحروب، ص: ٣١.

(٣) تاريخ الرسل والملوك، ٢٤/٤.

(٤) العُذيب: هو حد السواد، يخرج إليه من قادسية الكوفة، وكانت مسلحة للفرس، معجم البلدان، ٩٢/٤.

(٥) تاريخ الرسل والملوك، ٢٤/٤.

(٦) جلولاء: ناحية من نواحي السواد في طريق خراسان، معجم البلدان، ١٥٦/٢.

(٧) تاريخ الرسل والملوك، ٢٤/٤.

(٨) المصدر نفسه، ٣٥/٤، ٨٣، ٨٤؛ وانظر: غزوات ابن حبيش، ٣١٤/٢، ٣٢٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نهاوند: " إن حدث بك حدث فعلى الناس حذيفة بن اليمان، فإن حدث لحذيفة حدث فعلى الناس نعيم ابن مقرن ... "[١].

وتضمنت تعليمات الحرب الصادرة من مراكز القيادة وصايا وتنبيهات موجهة للقادة في ساحة القتال للعمل بها، وهذا اللون من الرسائل كان عرضة للوضع والتزيد، ومع ذلك يمكننا إثبات عدد من النصوص التي تكاد تخلو من مظاهر الوضع في لغتها ومضمونها، مثل وصية أبي بكر لعمال الردة في عهده لهم إذ أوصاهم بالبعد عن السرعة والفساد، وبأن يتفحص القائد كل من يدخل في جيش المسلمين ليتيقن من ألا يكون هؤلاء عيوناً على المسلمين ليخدعوهم، ودعاهم إلى الترفق بالمسلمين ومخاطبتهم بالكلام الحسن اللين: "... وأن يمنع أصحابه العجلة والفساد، وألا يدخل فيهم حشواً حتى يعرفهم ويعلم ما هم؛ لا يكونوا عيوناً، ولئلا يؤتى المسلمون من قبلهم، وأن يقتصد بالمسلمين ويرفق بهم في السير والمنزل ويتفقدهم، ولا يعجل بعضهم عن بعض، ويستوصي بالمسلمين في حسن الصحبة ولين القول "[٢]، وأوصى خالد بن الوليد بعدم الخوف وقت لقاء العدو، ومواجهته بشجاعة والا يغسل الشهداء بل يدفنهم بدمائهم ليكون هذا الدم نوراً لهم يوم القيامة: " إذا لقيت العدو، فاحرص على الموت توهب لك السلامة، ولا تغسل الشهداء من دمائهم فإن دم الشهيد يكون له نوراً يوم القيامة ...)[٣]، ومن الوصايا التي تدل على إنسانية الحرب الإسلامية وصية أبي بكر بعدم إرسال رؤوس الاعداء اليه فأرسل إلى عماله: " لا تبعثوا إلى برأس، انما يكفيكم الكتاب والخبر "[٤]، وأوصى عمر بن الخطاب النعمان بن مقرن حين بعثه لقتال الفرس بالصبر والتحمل في ساحة المعركة لأن الله وعد الصابرين بإيتائهم أجرهم بغير حساب يوم القيامة: "... فانظر يا نعمان إذا لقيتم عدوكم فقدموا الصبر امامكم، فإن الله تبارك وتعالى قد وعد الصابرين أنهم يؤتون أجرهم بغير حساب والعاقبة بعد ذلك للمتقين... "[٥]، وأوصاه بتقوى الله في السر والعلانية، وإحقاق الحق، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: " وعليك بتقوى الله في السر والعلانية، أنت ومن معك،

---

(١) تاريخ الرسل والملوك، ١٢٧/٤.

(٢) المصدر نفسه، ٢٥٢/٣؛ النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب، (ت ٣٢٣هـ)، نهاية الأرب في فنون الأدب، ٢٤م، تحقيق: محمد أبو الفضل ابراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٥، ٦٨/١٩-٦٩.

(٣) أبو حيان التوحيدي، علي بن محمد بن العباس، (ت ٤١٤هـ)، البصائر والذخائر، ط١، ٩م، تحقيق: وداد القاضي، دار صادر، بيروت، ٢١٩/١.

(٤) سعيد بن منصور، (ت ٢٢٧هـ)، السنن، تحقيق: حبيب عبد الرحمن الأعظمي، ٢م، الدار السلفية، الهند، ١٣٨٧هـ، ٢٦٥٣/٢.

(٥) الواقدي، فتوح الشام، ٢٢٢/٢؛ الفتوح، ٤١/٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وانصف المظلوم من الظالم، وأمر بالمعروف وانه عن المنكر، وخذ حق الضعيف من القوي، ولا تأخذك في الله لومة لائم "[١]، وروى عبد الله بن فروخ عن أبيه أن عمر بن الخطاب كتب إلى عمّاله: " لا تفرّقوا بين الأخوين، ولا بين الأم وولدها في البيع "[٢]، وهذا غاية في الإنسانية التي دعا الإسلام إلى اتباعها في أثناء الحروب، وحين أبطأ المسلمون عن فتح مصر أرسل عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص مدداً بلغ أربعة آلاف رجل يتقدمهم أربعة من المقاتلين الأشداء الذين وصفهم عمر بقوله: " رجال مقام الألف "[٣]، وهم: الزبير بن العوام، والمقداد بن الأسود، وعبادة بن الصامت، ومسلمة بن مخلد، ومع ذلك فقد استعصى على المسلمين الفتح، فكتب عمر إلى عمرو بن العاص يوصيه بحضّ الجند على القتال، والصبر، وأن يقاتلوا العدو كأنهم رجل واحد، وأن يسألوا الله النصر، وحثهم على بدء القتال في يوم الجمعة عند الزوال: " ... فإذا أتاك كتابي، فاخطب الناس، وحضّهم على قتال عدوهم، ورغّبهم في الصبر والنية، وقدّم أولئك الأربعة في صدور الناس، ومر الناس جميعاً أن يكون لهم صدمة كصدمة رجل واحد، وليكن ذلك عند الزوال يوم الجمعة، فانها ساعة تنزل الرحمة فيها، ووقت الإجابة، وليعجّ الناس إلى الله، ويسألوه النصر على عدوّهم "[٤]، وينحسر هذا الكتاب عن الارتباط الوثيق بين إعداد العدة النفسية والمادية لقتال العدو والدعاء إلى الله تعالى بإحراز النصر على العدو، ووجود رجال أقوياء في مقدمة الجيش يبث القوة والشجاعة في نفوس بقية المقاتلين، وفي الدعوة إلى القتال وكأنهم يملكون قدرة على التوحّد بيان لأهمية الروح الجماعية في القتال فالهدف واحد والنية واحدة، وكلهم متوجهون إلى الله ليكون معهم، وأوصى عمر بن الخطاب النعمان بن مقرن ومن معه بعدم الفرار من لقاء العدو، وإذا غنموا ألا يخونوا في الفيء والمغنم: " إذا لقيتم العدو فلا تفرّوا، وإذا غنمتم فلا تَغُلُّوا "[٥]. وطلب إليه كذلك

---

(١) الواقدي، فتوح الشام، ٢/٢٢٢.

(٢) سنن سعيد بن منصور، ٢/٢٦٥٧.

(٣) المقريزي، تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ)، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ٢م، دار صادر، بيروت، ١/٢٨٩؛ السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن، (ت ٩١١هـ)، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، مطبعة الموسوعات، ٢م، مصر، ١/٥٢.

(٤) المصدر نفسه، ١/٢٨٩؛ ١/٥٢.

(٥) أبو يوسف، الخراج، ص: ١٢٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أداء الصلاة في وقتها: " وصل الصلاة لوقتها وأكثر من ذكر الله "[١]، وأوصاه بالتواضع لأن الكبر يجعل الناس ينفضون من حوله بغضاً له: " وإياك أن تنازعك نفسك إلى كبر يُفسد عليك إخوتك "[٢].

وقد حملت المظان نصوصاً تتضمّن وصايا حربية يجد الباحث نفسه أميل إلى الحذر في قبولها بعد القراءة المتأنية ومن ذلك العهد المنسوب إلى أبي بكر الصديق الذي أرسله إلى خالد بن الوليد وهو مقيم في البطاح في أمر مسيلمة الكذّاب.

" بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله بن عثمان خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى خالد بن الوليد ومن معه من المهاجرين والأنصار والتابعين باحسان، أما بعد يا خالد، فاني قد أمرتك بالجد في أمر الله والمجاهدة لمن تولى عن سبيل الله إلى غيره ورجع عن دين الإسلام والهدى إلى الضلالة أو الردى، وعهدي إليك يا خالد أن تتقي الله وحده لا شريك له، وعليك بالرفق والتأني، وإياك ونخوة بني المغيرة، وسر نحو بني حنيفة ومسيلمة الكذاب، واعلم بأنك لم تلق قوما قط يشبهون بني حنيفة في البأس والشدة، فإذا قدمت عليه فلا تبدأهم بقتال حتى تدعوهم إلى داعية الإسلام، واحرص على صلاحهم، فمن أجابك منهم فاقبل ذلك منه، ومن أبى فاستعمل فيه السيف، واعلم يا خالد بأنك إنما تقاتل قوماً كفاراً بالله وبالرسول محمد صلى الله عليه وسلم، فإذا عزمت على الحرب فباشرها بنفسك ولا تتكل على غيرك، وصف صفوفك واحكم بعينك واجزم على أمرك، واجعل ميمنتك رجلا ترضاه، وعلى ميسرتك مثله، واجعل على خيلك رجلاً عالماً صابراً، واستشر من معك من أكابر المسلمين أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فان الله تبارك وتعالى موفقك بمشورتهم، واعرف للمهاجرين والأنصار حقهم وفضلهم، ولا تكسل ولا تفشل، وأعد السيف للسيف والرمح للرمح والسهم للسهم، واستوص بمن معك من المسلمين خيراً، ولين الكلام ,احسن الصحبة واحفظ وصية نبيك محمد صلى الله عليه وسلم في الأنصار خاصة أن تحسن إلى محسنهم وتتجاوز عن مسيئهم، وقل: لا حول ولا قوة إلا بالله "[٣].

ويثير هذا النص عدداً من الملاحظات:

أولاً: تزعم الرواية أن الرسالة أرسلت إلى خالد وهو مقيم في البطاح، في حين أن سير الأحداث يبين أن خالد بن الوليد تلقى أمراً بالمثول أمام أبي بكر ليسأله عما حل بالأسرى الذين قتلوا

---

(١) تاريخ الرسل والملوك، ٣/٩٥١.

(٢) المصدر نفسه، ٣/٩٥٣.

(٣) كتاب الردة، ص، ٦٢-٦٣؛ الفتوح، ١/٢٦-٢٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في البطاح، وحين وصل إليه خالد بعثه إلى قتال مسيلمة وأوعب معه الناس[١]، ولم يرسل أبو بكر وصية منفردة لأي قائد من قادة حروب الردة بل كان عهده لهم ذا نسخة واحدة[٢].

ثانياً: تميل لغة النص إلى الضعف والركاكة في التعبير وهذا لم يعهد عن أبي بكر، ولو قابلنا بين هذا العهد وعهده لأمراء الجيوش جميعاً لظهر الفارق جلياً، "... ولا تكسل، ولا تفشل، وأعد السيف للسيف والرمح للرمح، والسهم للسهم "[٣]، " واحكم بعينك، واجزم على أمرك، واجعل على ميمنتك رجلاً ترضاه، وعلى ميسرتك مثله "[٤].

ثالثاً: في النص حكم على المرتدين بالكفر بالله وبالرسول: " ... واعلم يا خالد بأنك إنما تقاتل قوماً كفاراً بالله وبالرسول محمد صلى الله عليه وسلم .. "[٥]، والكفر بالله لم يكن دافعاً من دوافع الرّدة في هذا العصر[٦] (وأبو بكر لا يتسطيع أن يحكم عليهم بذلك) فمسيلمة أرسل رسالة إلى الرسول الكريم جاء فيها: " من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله، سلام عليك؛ فإني قد أشركت في الأمر معك، وإن لنا نصف الأرض ولقريس نصف الأرض، ولكن قريشاً قوما يعتدون "[٧].

رابعاً: ورد في الرسالة وصايا تتعارض مع بعضها؛ ففي افتتاحية العهد جاء: " وعليك بالرفق والتأني، وإيّاك ونخوة بني المغيرة "[٨]، وبعد ذلك قال له: " وسر نحو بني حنيفة ومسيلمة الكذاب، واعلم بأنك لم تلق قوماً قط يشبهون بني حنيفة في البأس والشدة ... "[٩]، فهل تقابل شدة العدو وبأسه بالرفق والتأني؟!. ألم يتمثل قوله تعالى: " محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم "[١٠]. وهذه الرسالة تتعارض مع رسالة أخرى أرسلها أبو

---

(١) تاريخ الرسل والملوك، ٣/٣٧٨-٣٨١.

(٢) المصدر نفسه، ٣/٢٥١-٢٥٢.

(٣) كتاب الردة، ص: ٦٣؛ الفتوح، ١/٢٧.

(٤) المصدر نفسه، ص: ٦٣.

(٥) المصدر نفسه، ص: ٦٣.

(٦) غيداء خزنة كاتبي، الردة، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، ١٩٨٧، ص: ١٢٨-١٦٢.

(٧) تاريخ الرسل والملوك، ٣/١٤٦.

(٨) كتاب الردة، ص: ٦٣؛ الفتوح، ١/٢٧.

(٩) المصدر نفسه، ص: ٦٣.

(١٠) سورة الفتح، آية ٢٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بكر لقادة حروب الرّدة ويدعوهم فيها إلى أخذ المرتدين بالشدة والحزم، فكتب إلى العلاء بن الحضرمي بشأن بني شيبان: " ... فابعث إليهم جنداً، فأوطئهم، وشرد بهم من خلفهم ... "[١]، وأرسل إلى الطاهر بن أبي هالة: "... فعاجلوا هذا الضرب ولا تُرفّهوا عنهم ... "[٢].

خامساً: أوصى أبو بكر القائد بالأنصار في قوله: " ... واحفظ وصية نبيك محمد صلى الله عليه وسلم في الأنصار خاصة أن تحسن إلى محسنهم وتتجاوز عن مسيئهم ... "[٣]، وجاءت هذه الوصية الخاصة بعد أن أوصاه بالمهاجرين والأنصار " ... واعرف للمهاجرين والأنصار حقهم وفضلهم ... "[٤]، ولو تجاوزنا عن التكرار غير المسوّغ فإن طلب أبي بكر بالتجاوز عمن أساء في ساحة الحرب أمر غير متقبل في هذا الظرف وغيره، وإذا تجاوز عمن أساء من الأنصار فهل يعاقب من أساء من المهاجرين؟ ويفضي ذلك إلى انعدام العدالة في صفوف الجيش وهو أمر له خطره على وحدة الصف، وكل ذلك لا يصدر عن أبي بكر الصديق.

أما النص الآخر الذي يثير في مضمونه ملاحظات وتساؤلات فهو رسالة عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقاص. وقد جاء فيه:

"كتب عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنهما ومن معه من الأجناد: أما بعد، فإني آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال، فإن تقوى الله أفضل العُدة على العدو، وأقوى المكيدة في الحرب، وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراساً من المعاصي منكم من عدوكم، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم. وإنما يُنصر المسلمون بمعصية عدوهم لله، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة؛ لأن عددنا ليس كعددهم، ولا عُدتنا كعدتهم، فإن استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة، وإلا نُنصر عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا. واعلموا أن عليكم في مسيركم حفظة من الله يعلمون ما تفعلون، فاستحيوا منهم، ولا تعملوا بمعاصي الله وأنتم في سبيل الله، ولا تقولوا إن عدونا شرٌ منا فلن يُسلط علينا [وإن أسأنا]، فرب قوم قد سُلط عليهم شر منهم كما سُلط على بني اسرائيل، لما عملوا بمساخط الله، كفار المجوس (فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولا). واسألوا الله العون على أنفسكم، كما تسألونه النصر على عدوكم، أسأل الله ذلك لنا ولكم. وترفق بالمسلمين في مسيرهم ولا تجشمهم مسيراً يُتعبهم، ولا تُقصّر بهم عن منزل يرفق بهم، حتى يبلغوا عدوهم والسفر لم ينقص قوتهم،

---

(١) تاريخ الرسل والملوك، ٣١٣/٢.

(٢) المصدر نفسه، ٣٢٠/٣.

(٣) كتاب الردة، ص: ٦٣؛ الفتوح، ٢٧/١.

(٤) المصدر نفسه، ص: ٦٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فإنهم سائرون إلى عدو مقيم حامي الأنفس والكراع. وأقم بمن معك في كل جمعة يوماً وليلة، حتى تكون لهم راحة يُحيُون فيها أنفسهم، ويرمون أسلحتهم وأمتعتهم ونح منازلهم عن قُرى أهل الصلح والذمة، فلا يدخلها من أصحابك إلا من ثِق بدينه، ولا يرزأ أحداً من أهلها شيئاً، فإن لهم حُرمة وذمة ابتُليتم بالوفاء بها كما ابتُلوا بالصبر عليها، فما صبروا لكم فتولوهم خيراً. ولا تستنصروا على أهل الحرب بظُلم أهل الصلح. وإذا وطئت أرض العدو فأذكِ العيون بينك وبينهم، ولا يخف عليك أمرُهُم. وليكن عندك من العرب أو [من أهل الأرض] من تطمئن إلى نصحه وصدقه، فإن الكذوب لا ينفعك خبره وإن صدقك في بعضه، والغاشّ عينٌ عليك وليس عيناً لك. وليكن منك عند دنوّك من أرض العدو أن تُكثر الطلائع وتبث السرايا بينك وبينهم فتقطع السرايا أمدادهم ومرافقهم، وتتبع الطلائع عوراتهم. واتق للطلائع أهل الرأي والبأس من أصحابك، وتخير لهم سوابق الخيل. فإن لقوا عدوا كان أول ما تلقاهم القوة من رأيك، واجعل أمر السرايا إلى أهل الجهاد والصبر على الجلاد، لا تخُص بها أحداً بهوى، فيضيع من رأيك وأمرك أكثرُ مما حابيت به أهل خاصتك. ولا تبعثن طليعة ولا سرية في وجه تتخوف عليها فيها [غلبة] أو ضيعة ونكاية. فإذا عاينت العدو فاضمُم إليك أقاصيك وطلائعك وسراياك، واجمع إليك مكيدتك وقوتك، ثم لا تعاجلهم المناجزة، ما لم يستكرهك قتال، حتى تُبصر عورة عدوك ومقاتله، وتعرف الأرض كلها كمعرفة أهلها بها، فتصنع بعدوّك كصُنعه بك. ثم أذكِ أحراسك على عسكرك، وتيقظ من البيات جهدك. ولا تؤتى بأسير ليس له عقد إلا ضربت عنقه، لترهب بذلك عدو الله وعدوك. والله ولي أمرك ومن معك، وولي النصر لكم على عدوكم، والله المستعان"[1].

ويثير هذا النص عدداً من القضايا التي تبعده عن ساحة القتال في القادسية، وتجعل من الصعب على الباحث اثبات نسبته للعصر ووضعه جنباً إلى جنب مع نصوص فتح بلاد فارس وهذه القضايا هي:

١- لم تذكر مصادر القرن الثالث والرابع خبر هذه الرسالة أو بعضاً منها، في حين أن نصوصاً كثيرة رويت مثل الوصايا والرسائل وكل ما له صله بقتال سعد بن أبي وقاص مع الفرس[2].

---

(١) العقد الفريد، ١/١٣٠-١٣٢.

(٢) نهاية الأرب، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، ٦/١٦٨-١٧٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٢- تتسم الرسالة بالطول والاسهاب اللذين لم يعهدا في رسائل عمر، خاصة رسائل معركة القادسية التي تراوحت بين القصر والتوسط؛ وذلك لأن المعركة كانت حاسمة وتحتاج إلى تعليمات وخطط حربية واضحة ودقيقة[١].

٣- ابتدأت الرسالة بقول عمر: " أما بعد، فإني آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال... "[٢] وقوله: " وآمرك ومن معك أن تكونوا أشدّ احتراساً من المعاصي منكم من عدوكم... "[٣]، والفعل " آمرك " يدل على لهجة حادة وفيه شيء من التسلط في حين أن رسائل الوصايا أو التي تضمنت وصايا لم تصدر وكأنها أمر الزامي ومباشر، بل وجّه الخطاب فيها بأسلوب ليّن فيه إسداء للنصح بأسلوب رقيق محبب، ومن ذلك نصيحته لسعد حين أراد أن يسرّحه للقتال " إني قد وليتك حرب العراق فاحفظ وصيتي فإنك تُقدم على أمرٍ كريه لا يخلّص منه إلاّ الحق، فعود نفسك ومن معك الخير فاستفتح به. واعلم أن لكل عادة عتاداً، فعتاد الخير الصبر؛ فالصبر على ما أصابك أو نابك؛ يجتمع لك خشية الله ... "[٤].

٤- طلب عمر من قائدة سعد أن يقيم بمن معه من " كلّ جمعة يوماً وليلة، حتى تكون لهم راحة يحيون فيها أنفسهم ويرمّون أسلحتهم وأمتعتهم "[٥]، إنّ ظروف معركة القادسية تجعلَ الباحث أميلَ إلى عدم قبول هذه النصحية من عمر الذي أعلن التعبئة العامة للجيش بعد أن وحّدت الفرس كلمتها وقيادتها لقتال المسلمين؛ فالأمر عاجل ويستدعي غذّ السّير، وطلب عمر إقامة الجيش يوماً وليلة في كل جمعة يخالف الأحداث وتطورها واحتياجات المواجهة مع الفرس،

---

(١) تاريخ الرسل والملوك، ٣/٤٨٢، ٤٨٣، ٤٨٤، ٤٨٧، ٤٨٨، ٤٩٠، ٤٩٢؛ وانظر: ناجي ابراهيم محمد العبيدي، أدب معارك تحرير العراق في صدر الاسلام، رسالة ماجستير، الجامعة المستنصرية، بغداد، ١٩٨٦، ص: ٤٨٠-٥٠٠؛ جابر قميحة، أدب الخلفاء الراشدين، دار الكتب الاسلامية، دار الكتاب المصري، دار الكتاب اللبناني، ١١٢-١١٩؛ شاكر محمود رامز، تحرير العراق - القادسية، ١٩٨٤، ص: ٢٦١-٣٣٦؛ بسام العسلي، فن الحرب في عهود الخلفاء الراشدين والأمويين، عمليات الجبهة الشمالية والشرقية والبحرية، ط١، دار الفكر، ١٩٧٤، ص: ٢٠٢-٢٢٦.

(٢) العقد الفريد، ١/١٣٠، نهاية الأدب، ٦/١٦٨.

(٣) المصدر نفسه، ١/١٣٠.

(٤) تاريخ الرسل والملوك، ٣/٤٨٣-٤٨٤؛ الاكتفاء، ٤/١٥٨، ١٥٩.

(٥) العقد الفريد، ١/١٣٠-١٣١؛ نهاية الأدب، ٦/١٦٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتعليمات كهذه ليست من حسن الرأي أو التخطيط الحربي السّليم الذي عُرف به عمر بن الخطاب وقادته[١].

٥- أكدت الرسالة أن النصر الذي يحرزه المسلمون إنّما يحرزونه بسبب معصية أعدائهم لله: "...وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة؛ لأنّ عددنا ليس كعددهم، ولا عُدتنا كعدتهم ، فإن استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة، والاّ نُنصر عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا ..."[٢]، إن هذا المعنى للنصر والهزيمة لم يرد في أي نص في زمن أبي بكر وعمر؛ فقد كان النصر من عند الله وبمساعدة منه، وليس بقوة المسلمين أو بفساد عدوهم، وكان الخليفتان يربطان هذا المعنى بمعرفة قيمة القوّة؛ إذ بدأ عمر حربه مع الفرس بدراسة واقعية للموارد المتاحة للمعركة، وعرف جيداً كم من الجند تحت يده، كما كان يدرك نوع هؤلاء الجند مشاتهم وفرسانهم، وإمكاناتهم المادية والمعنوية، وقد اهتم اهتماماً خاصاً بحشد الخطباء والشعراء ورؤساء القبائل لما لهؤلاء من أثرٍ معنوي في الحرب عند العرب[٣].

٦- ورد في النص ما يوحي بانتهائه بعد ثمانية أسطر، وذلك في قوله: " وأسألوا الله العون على أنفسكم كما تسألونه النصر على عدوكم، أسأل الله ذلك لنا ولكم "[٤]، وقد الحق بهذه النهاية نص آخر طويل وكأنه ألصق به تزيّداً مما يوحي بأن النص قد لحقه التغيير والزيادة لو افترضنا أنه صدر عن عمر بن الخطاب.

٧- في النص تكرار لا مسوّغ له مثل دعوته الجند إلى الابتعاد عن المعاصي التي وردت في موضعين الأول: " آمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراساً من المعاصي من عدوكم "[٥] والثاني: " ولا تعملوا بمعاصي الله وأنتم في سبيل الله "[٦]، وتكررت نصيحته بتتبع أخبار

---

(١) عمر بن الخطاب، ص: ٣٤٩-٣٥٠.

(٢) العقد الفريد، ١/١٣٠، نهاية الأدب، ٦/١٦٨.

(٣) تاريخ الرسل والملوك، ٣/٤٨٨-٤٨٩؛ ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن أبي محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني، (ت ٦٣٠هـ)، الكامل في التاريخ، ١٠م، دار صادر، دار بيروت، بيروت، ١٩٦٥، ٢/٤٥٠-٤٥٣؛ أحمد كمال، القادسية، ط٩، دار النفائس، ١٩٨٩، ص: ٢٣٥.

(٤) العقد الفريد، ١/١٣١.

(٥) المصدر نفسه، ١/١٣١.

(٦) المصدر نفسه، ١/١٣١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

العدو: "... إذا وطئت أرض العدو فأذك العيون بينك وبينهم..."[١]، وقوله: " وليكن منك عند دنوك من أرض العدو أن تكثر الطلائع وتبث السرايا بينك وبينهم، ... ، وتتبع الطلائع عوراتهم "[٢].

٨- يتعارض بعض ما جاء في الرسالة بما جاء في رسالة أخرى يضع فيها عمر خطة حربية للقتال في المعركة؛ إذ جاء في النص موضع الدراسة قول عمر: " إذا عاينت أرض العدو فاضمم إليك أقاصيك وطلائعك وسراياك، واجمع اليك مكيدتك وقوتك، ثم لا تعاجلهم المناجزة ما لم يستكرهك قتال ..."[٣]، في حين أن خطة عمر قائمة على البدء بقتالهم لأن الوضع بين الجانبين لا يتطلب الانتظار: " إذا لقيتم القوم، أو أحداً منهم فابدأوهم الشدّ والضرب، واياكم والمناظرة لجموعهم ... "[٤].

٩- ورد في الرسالة نصحية جاء فيها: "... وليكن عندك من العرب أو من أهل الأرض من تطمئن إلى نصحه وصدقه، فإنّ الكذوب لا ينفعك خبره وإن صدقك في بعضه، والغاش عين عليك وليس عيناً لك "[٥]، إن هذه الوصية لا يترشح منها معنىً محددٌ فمن هم العرب؟ هل هم الذين معه من المسلمين أم هم ممن يقيمون في العراق؟ وما الفرق بينهم وبين " أهل الأرض "؟.

١٠- ولم يؤثر عن عمر بن الخطاب أنه قال إن كفار المجوس هم الذين جاسوا خلال الديار كما جاء في نص الرسالة [٦].

إن كل ما ورد من ملاحظات تبين ضعف احتمال نسبة الرسالة إلى عمر بن الخطاب فالأحداث على الجبهة العراقية لا تحتمل هذا الإطناب بما فيه من تكرار لا ضرورة له، وتعارض مع نصوص أخرى أكثر صحة، فما بين أيدينا نص مفكك، فيه تعليمات عامّة لا صلة لها بسعد وحربه ولو اننا قابلنا هذه الرسالة بالرسائل التي أرسلها عمر إلى سعد منذ إعلان التعبئة العامة إلى

---

(١) العقد الفريد، ١٣٢/١.

(٢) المصدر نفسه، ١٣٢/١.

(٣) العقد الفريد، ١٣١/١، نهاية الأدب، ١٧٠/٦.

(٤) تاريخ الرسل والملوك، ١١٢/٣.

(٥) العقد الفريد، ١٣٠/١.

(٦) الطبري، التفسير، ط١، تحقيق: بشار عواد معروف، عصام فارس الحرستاني، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٤، ١٠/٥-١١؛ جلال الدين السيوطي، الدرّ المنثور في التفسير بالمأثور، ط١، دار الفكر، ١٩٨٣، ٢٣٨/٥-٢٤٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

انتهاء المعركة لصالح المسلمين لظهر الفارق جلياً ولبدت هذه الرسالة غريبة في مضمونها وأسلوبها عن تلك الرسائل، ونختار من رسائل القادسية هذه الرسالة، روى أبو عثمان النهديّ أن كتاباً من قبل عمر بن الخطاب قدم على سعد وهو بشراف جاء فيه:

" أمّا بعد، فسر من شراف[١] نحو فارس بمن معك من المسلمين؛ وتوكل على الله، واستعن به على أمرك كله؛ واعلم فيما لديك أنك تقدم على أمة عددهم كثير، وعدتهم فاضلة، وبأسهم شديد، وعلى بلد منيع - وإن كان سهلاً - كؤود[٢] لبحوره وفيوضه ودآدئه؛ إلا أن توافقوا غيضاً من فيض. وإذا لقيتم القوم أو أحداً منهم فابدؤوهم الشد والضرب، وإياكم والمناظرة لجموعهم ولا يخدعنكم؛ فإنهم خدعة مكرة؛ أمرهم غير أمركم؛ إلا أن تجادّوهم، وإذا انتهيت إلى القادسية[٣]- والقادسية باب فارس في الجاهلية، وهي أجمع تلك الأبواب لمادتهم، ولما يريدونه من تلك الآصُل؛ وهو منزل رغيب خصيب حصين دونه قناطر، وأنهار ممتنعة - فتكون مسالحك على أنقابها[٤]، ويكون الناس بين الحجر والمدر على حافات الحجر وحافات المدر، والجراع[٥] بينهما؛ ثم الزم مكانك فلا تبرحه؛ فإنهم إذا أحسوك أنغصتهم ورموك بجمعهم الذي يأتي على خليهم ورجلهم وحدّهم وجدّهم؛ فإن أنتم صبرتم لعدوكم واحتسبتم لقتاله ونويتم الأمانة؛ رجوت أن تُنصروا عليهم؛ ثم لا يجتمع لكم مثلهم أبداً إلا أن يجتمعوا؛ وليست معهم قلوبهم، وإن تكن الأخرى كان الحجر في أدباركم؛ فانصرفتم من أدنى مدرة من أرضهم إلى أدنى حجر من أرضكم؛ ثم كنتم عليها أجرأ وبها أعلم، وكانوا عنها أجبن وبها أجهل؛ حتى يأتي الله بالفتح عليهم، ويردّ لكم الكرّة "[٦].

وتتطلب خطة عمر هذه مقاتلة العدو على حدود أرض المسلمين ولا يقاتلونه بعقر داره، فتكون المعركة على الحدود الطبيعية بين الصحراء والشبكة المعقدة المسالك والمسطحات المائية؛ وذلك ليحفظ المسلمون خط الرجعة ففي حالة انهزامهم يكون لهم ما وراءهم من الصحراء، ويكونون

---

(١) شراف: ماء بنجد، وهي بين وافصة والقرعاء على ثمانية أميال من الإحساء، معجم البلدان، ٣/٣٣١.

(٢) كؤود: الصعب الشاق، القاموس المحيط، مادة: كأد.

(٣) القادسية: قرية قرب الكوفة من جهة البرّ، مراصد الاطلاع، ٣/١٠٥٤.

(٤) الأنقاب: طرق بين الجبال، القاموس المحيط، مادة: نقب.

(٥) الجراع: رملة مستوية لا تنبت شيئاً، القاموس المحيط، مادة: جرع.

(٦) تاريخ الرسل والملوك، ٣/٤٩٠-٤٩١؛ غزوات ابن حبيش، ٢/١١٩-١٢٠؛ ابن الجوزي، ابو الفرج عبد الرحمن بن علي، (ت ٥٥٧هـ)، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق سهيل زكار، ١٠م، دار الفكر، ١٩٩٥، ٣/١٠١٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أعلم بسيلهم، وأجرأ على أرضهم، وإن انتصروا وأظهرهم الله على أعدائهم فإن الفرس يُحصرون بين الأنهار التي تعوق انسحابهم[١]، في حين أن المسلمين لهم القدرة على الاتصال بغيرهم في الجزيرة.

ويؤكد عمر في رسالته على تمسك المسلمين بالمبادأة في الشدّ والضرب وعدم المماطلة، وعدم الانخداع بما قد يظهره العدو من النوايا أو ما يتخذه من إجراءات ومناورات، مما يضع العدو دائماً وباستمرار أمام مواقف متجددة تحرمه من استخدام قواته بشكل صحيح، ويرى عمر أن المسألة ليست حشداً للقوى بقدر ما هي مسألة إدارة لاستخدام هذه القوى، فما فائدة الحشود والقلوب غير مجتمعة[٢]؟.

(١) الكامل في التاريخ، ٤٥٣/٢؛ القادسية، ص: ٤٥، ٢٣٥.

(٢) بسام العسلي، المذهب العسكري الاسلامي، ط١، دار النفائس، بيروت، ١٩٩٣، ص: ٢٩٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الرابع:

رسائل أخبار الفتح والفاتحين

إن التواصل بين الخليفة وقادة الفتوح كان مستمراً على الرغم من امتداد حركة الفتح الإسلامي خارج الجزيرة العربيّة في الشام والعراق ومصر؛ إذ كان الخليفة على اطلاع بكل ما يجري في ساحة المعارك، ليتمكن من إعطاء رأيه فيما يحدث، ويعرف ما أحرزه جند المسلمين من انتصارات أو ما حلّ بهم من هزائم، وإن كان الجند يعوزهم المدد من جيش وعتاد.

وقد حملت الرسائل ألواناً مختلفة من قضايا الفتح وأنبائه، وكان في طليعة هذه الأنباء ما يتصل بنتائج اللقاء بين المسلمين وأعدائهم؛ روى ابن اسحق أن خالد بن الوليد بعث كتاباً إلى الرسول عليه السلام يعلمه فيه نتائج بعثته إلى بني الحارث جاء فيه: "... وإني قدمت عليهم فدعوتهم إلى الإسلام ثلاثة أيام كما أمرني رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبعثت فيهم ركباناً قالوا: " يا بني الحارث أسلموا تسلموا، فأسلموا ولم يقاتلوا، وأنا مقيمٌ بين أظهرهم، آمرهم بما أمرهم الله به، وأنهاهم عما نهاهم الله عنه، وأعلمهم معالم الإسلام وسنة النبي ... "[1]، ولقاء المسلمين بالأعداء لم يكن ينتهي دائماً نهاية سلمية كما حدث مع خالد بن الوليد وبني الحارث، بل كان المقاتلون المسلمون يظهرون على أعدائهم ويحرزون النصر بعد قتال مرير ومواجهة شاقة مع العدو، روى الواقدي أن خالد بن الوليد أرسل إلى أبي بكر يبشره بنصر المسلمين على الروم في أجنادين: "... وإنا لقينا جموعهم بأجنادين، وقد دفعوا صلبانهم وتقاسموا بدينهم ألاّ يفرّوا ولا ينهزموا، فخرجنا إليهم واستعنا بالله عز وجل متوكلين على الله خالقنا، فرزقنا الله الصبر والنصر، وكتب الله على أعدائنا القهر، فقاتلناهم في كلّ وادٍ وسبسب[2]... "[3]، وكتب عمرو بن العاص إلى أبي عبيدة في الذي حدث معه في فلسطين: "... إني قد وصلت إلى أرض فلسطين، ولقينا عساكر الروم مع بطريق يقال له روبيس في مائة ألف فارس، فمنّ الله بالنصر، وقتل من الروم خمسة عشر ألف فارس وفتح الله على يدي

---

(١) السيرة النبوية، ١/١٧٧؛ الروض الأنف، ٤/٣٧١-٣٧٢.

(٢) السبسب: القفر والمفازة، اللسان، مادة: سبسب.

(٣) الواقدي، فتوح الشام، ١/١٦٧؛ الاكتفاء، ٣/١٥٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فلسطين بعد أن قتل من المسلمين مائة وثلاثون رجلاً... "[١]، وكتب العلاء بن الحضرمي إلى أبي بكر يقول: "أما بعد، فإن الله تبارك وتعالى فجر لنا الدهناء فيضاً لا ترى غواربه، وأرانا آية وعبرة بعد غمّ وكرب، لنحمد الله ونمجده، فادع الله واستنصره "[٢]، ومما يلاحظ في هذه الأخبار أن القائد ينسب النصر لله الذي مَنّ على المسلمين بالصبر والقضاء على عدوهم وفتح البلاد، وفيها كذلك ذكر لعدد الذين قتلوا من الجانبين؛ وقد روى إبراهيم بن سعيد البلوي أن عمرو بن العاص أرسل كتاباً لعمر بن الخطاب يبشره بفتح الإسكندرية جاء فيه: " أما بعد، فإني فتحت مدينة لا أصف ما فيها غير أني أصبت فيها أربعة آلاف منيّة بأربعة آلاف حمام، وأربعين ألف يهودي عليهم الجزية، وأربعمائة ملهى للملوك"[٣].

واشتمل الحديث عن نتائج المعركة ذكر بعض من خصّهم الله بالشهادة، كما جاء في إحدى رسائل أبي عبيدة إلى عمر بن الخطاب: "... وكان القتال بين الفريقين مليّا النهار، أهدى الله فيه الشهادة لرجال من المسلمين منهم: عمرو بن سعيد بن العاص، وضرب الله وجوه المشركين، واتبعهم المسلمون يقتلونهم ويأسرونهم حتى اعتصموا بحصونهم "[٤]، وأرسل إليه في كتاب آخر: "...وقتل من أصحابنا الستين، عشرة، وأسر منهم خمسة منهم: رافع بن عميرة الطائي، وربيعة بن عامر، وضرار بن الأزور، وعاصم بن ربيعة "[٥].

ووصف القادة في أخبار الفتوح قوة العدو، وجمعه الجموع الغفيرة لمواجهة المسلمين؛ ومن ذلك ما جاء في رسالة لأبي عبيدة: "... أخبر أمير المؤمنين ـ أصلحه الله ـ أنا التقينا نحن والروم، وقد جمعوا لنا الجموع العظام، فجاؤونا من رؤوس الجبال، وأطراف البحار، وظنوا أنه لا غالب لهم من الناس... "[٦]، وروى عبد الله بن قرظ أن أبا عبيدة أرسل إلى عمر بن الخطاب يخبره بما أعده الروم لمواجهة المسلمين: "... إن الروم نفرت إلى المسلمين برّاً وبحراً، ولم يخلفوا وراءهم رجلاً يطيق حمل السلاح إلا جاشوا به علينا، وخرجوا معهم بالقسيسيين والأساقفة، ونزلت اليهم الرهبان

---

(١) الواقدي، فتوح الشام، ٢٢/١.

(٢) تاريخ الرسل والملوك، ٣١٢/٣.

(٣) ابن عبد الحكم، أبو عبد الله محمد (ت ٢٦٨هـ)، فتوح مصر وأخبارها، ١م، تحقيق: محمد صبيح، دار التعاون للطبع والنشر، ص:

(٤) الأزدي، فتوح الشام، ص: ١٣٩؛ الفتوح، ٩٤/١-١٩٥.

(٥) مجهول، مكتوبات النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومكتوبات الخلفاء رضي الله تعالى عنهم، مكتبة الدكتور جاسر أبو صفية، ص: ١٠؛ وانظر: الواقدي، فتوح الشام، /٦٧.

(٦) الأزدي، فتوح الشام، ص: ١٣٩؛ الاكتفاء، ١٨٧/٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من الصوامع، واستجاشوا بأهل ارمينية، وأهل الجزيرة وجاؤونا وهم نحو من أربعمائة ألف رجل..."[١].

ووصف القادة المسلمين لقوة العدو نوع من إنصافه، وهو كذلك دليل على الجهد الذي بذله المسلمون للأنتصار على عدو قوي الشكيمة، يدافع عن ملكه ومعتقداته، وقد ارتبط هذا الوصف بطلب الامدادات من العتاد والرجال ليقدر المسلمون على مواجهة هذه القوة، ومن أمثلة هذه الرسائل كتاب أبي عبيدة إلى عمر بن الخطاب يستمده: "... فالعجل العجل يا أمير المؤمنين بالرجال بعد الرجال والا فاحتسب أنفس المؤمنين إن هم أقاموا، ودينهم منهم إن هم تفرّقوا، فقد جاءهم مالا قبل لهم به إلاّ أن يمدّهم الله بملائكته، أو يأتيهم بغياث من قبله، والسلام "[٢].

ومن التقارير التي كانت ترسل إلى الخليفة، وحملت موضوعاً ذا تميز تقارير الوصف الجغرافي لبعض الأمكنة التي كانت مسرحاً للقتال، فكان الخليفة يطلب إلى بعض القادة أن يصفوا له بعض الأماكن ليتسنّى له اتخاذ قرار وفق ما يصله من القائد؛ روي أن عمر بن الخطاب كتب إلى عمرو بن العاص كتاباً يطلب إليه أن يصف له البحر ليرى رأيه في الغزو فيه، فكتب إليه عمرو: "يا أمير المؤمنين إن البحر خلق عظيم، يركبه خلق صغير، إن ركن خرّق القلوب، وإن تحرك أزاغ العقول، يزداد فيه اليقين قلة، والشك كثرة، وليس إلاّ السماء والماء، وانما هم فيه كدود على عود، إن مال غرق، وإن نجا برق "[٣]، وقيل إن وصف عمرو كان ذا أثر في نفس عمر بن الخطاب، فقد روي أنه قال بعد قراءة كلام عمرو: " لا سألني الله عن أحد أحمله فيه "[٤]، وقد تؤتى رسالة عمرو ابن العاص من قبل أسلوبها الا أن بساطة الصور المتكئة على التشبيه، والعفوية والطبع الذي يكمن وراءها تجعل الباحث متقبلاً لهذا الوصف للبحر، ولعلّ رفض عمر كان له سبب آخر كما سيأتي. وسبب سؤال عمر عن ركوب البحر كما جاء في الروايات أن معاوية بن أبي سفيان ألح على عمر في غزو البحر، وكتب إليه كتاباً يرّغبه فيه: " يا أمير المؤمنين، إن بالشام قرية يسمع أهلها نباح

---

(١) الأزدي، فتوح الشام، ص: ١٨٠؛ الاكفتاء، ٢٤١/٣.

(٢) الأزدي، فتوح الشام، ص: ١٨٠-١٨١.

(٣) تاريخ الرسل والملوك، ٢٥٨/٤-٢٥٩؛ الجاحظ، عمرو بن بحر (ت ٢٥٥هـ)، البيان والتبيين، ط٢، تحقيق: عبد السلام هارون، ٤م، مكتبة الخانجي، مصر، ١٩٦١، ١١٣/٢؛ ابن عبد ربه، أحمد بن محمد، (ت ٣٢٨هـ)، العقد الفريد، ط٣، تحقيق: أحمد أمين وأحمد الزين، وابراهيم الأبياري، ٧م، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٦٥، ٨٩/١؛ نثر الدّر، ٨٤/٢؛ غزوات ابن حبيش، ٣٧٤/١؛ الاكتفاء، ٥٨/٤.

(٤) .العقد الفريد، ٨٩/١؛ غزوات ابن حبيش، ٣٧٤/١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كلاب الروم وصياح ديوكهم، وهم تلقاء ساحل من سواحل حمص "[١]، وعلل الطبري رفض عمر ركوب البحر في الغزو لانه كان " يكره التغرير بجنده استناناً بالنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبأبي بكر، لم يغزُ فيه النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولا أبو بكر "[٢]، وقد تجاوز العلاء بن الحضرمي أوامر عمر في نهيه عن ركوب البحر وحمل المسلمين لقتال الفرس في البحر، وعاقبه عمر على فعلته بأن عزله وأمر عليه سعد بن أبي وقاص[٣]، ويُضاف إلى تعليل الطبري أمر آخر ـ لا بد أن عمر كان مدركاً له ـ وهو أن قوة المسلمين في ذلك الوقت كانت برية لا بحرية " فقد برزت السيادة الإسلامية في منطقة داخلية ثم توغل المسلمون في داخل ممتلكات الروم والفرس المتاخمة للأطراف الصحراوية من منطقتهم "[٤]، وروى أبو عثمان النهدي أن عمر أرسل إلى سعد بن أبي وقاص يطلب إليه وصف المكان الذي هم فيه: "... فصف لنا منازل المسلمين، والبلد الذي بينكم وبين المدائن صفة كأني أنظر اليها واجعلني من أمركم على الجليّة "[٥]، فأرسل اليه سعد يقول: " إن القادسية بين الخندق والعتيق، وإنّ ما عن يسار القادسية بحر أخضر في جوفٍ لاح إلى الحيرة بين طريقين، فأما أحدهما فعلى الظهر، وأما الآخر فعلى شاطىء نهر يُدعى الحُضوض؛ يطلع بمن سلكه على ما بين الخورنق والحيرة، وما عن يمين القادسية إلى الولجة فيض من فيوض مياههم... "[٦].

كانت الرسائل الوصفيّة مرجعاً للخليفة يتكئ عليها في متابعة مسير الجيوش في حلّهم وترحالهم، وفي وضع الخطط الحربيّة، فالقائد وإن لم يكن على معرفة بطبيعة الأرض على الواقع ألا أن هذه الكتب الوصفية تُعدّ بمثابة خرائط جغرافيه يفيد منها ليرشد الجنود ويوجههم، وهي في دقتها تصلح أن تكون نموذجاً تحليلياً لما يُسمى اليوم الطاولة الرمليّة لساحة العمليّات[٧].

إن ميدان القتال في القادسيّة يقع بين نهر العتيق شمالاً وخندق سابور جنوباً، وهو محاط عن يمين القادسيّة ويسارها " ببحر أخضر " خلفته فياضانات نهر الفرات في تلك المنخفضات من الأرض أو ما يُسمى " ببطائح العراق ". فمن اليسار " منخفض الجوف " الذي ينتهي شمالاً إلى الحيرة والنجف، ومن اليمين " البطيحة العظمى " وهي فيض آخر من فيوض مياه النهر تنتهي جنوباً إلى

---

(١) تاريخ الرسل والملوك، ٤/٢٥٨؛ غزوات ابن حبيش، ١/٣٧٤.

(٢) المصدر نفسه، ٤/٨٠.

(٣) المصدر نفسه: ٤/٨٠-٨١.

(٤) الحرب والسلم في شرعة الاسلام، ص: ١٥١-١٥٢.

(٥) تاريخ الرسل والملوك، ٣/٤٩١؛ غزوات ابن حبيش، ٢/١٢١.

(٦) المصدر نفسه، ٣/٤٩٢؛ غزوات ابن حبيش، ٢/١٢١.

(٧) أحمد محمد خلف المومني، التعبئة الجهاديّة في الاسلام، ط١، دار الأرقم، عمان، ١٩٨٦، ص: ١٤٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الولجة[١]. وبناءً على وصف القائد الدقيق لأرض المعركة فقد أرسل عمر إلى سعد يبين له الخطوات التي عليه اتباعها: "... فأقم بمكانك حتى ينغص الله لك عدوّك، واعلم أنّ لها ما بعدها، فإن منحك الله أدبارهم فلا تنزع عنهم حتى تقتحم عليهم المدائن؛ فإنه خرابها إن شاء الله "[٢]، وتقتضي خطة عمر بن الخطاب ما يلي:

١- أن يثبت سعد في مواقعه فلا يبرحها.

٢- أن لا يبادر العدو بالقتال بل يترك المبادرة للعدو.

٣- أن يستثمر النصر في حالة حصوله عليه ويطارد العدو حتى المدائن ويقتحمها عليه[٣].

ومن الأمثلة الأخرى لوصف الأرض التي ينزل فيها جند المسلمين ما رواه علي بن المغيرة عن أبي عبيدة أن عتبة بن غزوان لما نزل الخُريبة[٤]، كتب إلى عمر بن الخطاب يخبره بذلك وأنه لا بد أن يختار المسلمون مكاناً ينزلون فيه في الشتاء، فكتب إليه عمر: " اجمع أصحابك في موضع واحد، وليكن قريباً من الماء والمرعى واكتب إليّ بصفته "[٥]، ورد عليه عتبة واصفاً مكان نزوله: " إني وجدت أرضاً كثيرة القصبة، في طرف البرّ إلى الرّيف، ودونها منافع ماء، فيها قصباء "[٦]، ولا يخفى حرص عمر والقائد على تجنيب الجيش المعاناة في مكان غير ملائم، وتوفير الماء والطعام والمرعى لخيله وإبله ليكون في كامل قواه حين مواجهة العدو، وكل ذلك من الواجبات الملقاة على كاهل القائد في المعركة[٧].

لقد عكست ردود القادة على الرسائل التي حملت أخبار الفتح مدى العناية والاهتمام التي قوبلت بهما هذه الكتب؛ فالنبي ـ عليه السلام ـ أرسل إلى خالد بن الوليد يخبره بوصول كتابه، ويطلب إليه المجيء بصحبة وفدٍ من بني الحارب بن كعب: "... أما بعد، فإن كتابك جاءني مع رسول تخبر أن بني الحارث بن كعب قد أسلموا قبل أن تقاتلهم وأجابوا إلى ما دعوتهم إليه من

---

(١) ياسين سويد، الفن العسكري الإسلامي، أصوله ومصادره، ط٢، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، ١٩٩٠، ص/ ٢٥٥.

(٢) تاريخ الرسل والملوك، ٤٩٢/٣؛ غزوات ابن حبيش، ١٢١/١-١٢٢.

(٣) الفن العسكري الإسلامي، ص: ٢٥٥.

(٤) الخريبة: موضع في البصرة، معجم البلدان، ٣٦٣/٢، (ت ٢٧٩هـ).

(٥) البلاذري، أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩هـ)، فتوح البلدان، تحقيق: عبد الله أنيس الطباع، عمر أنيس الطباع، مؤسسة المعارف، بيروت، ١٩٨٧، ص: ٤٨٣.

(٦) المصدر نفسه، ص: ٤٨٣.

(٧) الأحكام السلطانية، ص: ٣٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الإسلام، وشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن قد هداهم الله بهداه، فبشرهم وأنذرهم، وأقبل وليقبل معك وفدهم "[١].

وحمد الخلفاء الله على النصر الذي بّشروا به من قبل قادة المعارك، كما جاء في رد عمر بن الخطاب على كتاب أبي عبيدة: "... أما بعد، فقد بلغني كتابك تأمرني فيه بحمد الله على ما أفاء الله علينا من الأرض، وفتح علينا من القلاع، ومكّن لنا في البلاد، وصنع لنا ولكم، وأبلانا وإياكم من حسن البلاء، فالحمد لله حمداً كثيراً ليس له نفادّ، ولا يحصى له تعداد،... "[٢].

وحرص الخلفاء على التأكيد على أن النّصر الذي أحرزه المسلمون لم يكن نتيجة لقوتهم فقط بل هو من الله الذي أنزل نصره على المسلمين لتمسّكهم بعرى الدين، ولايمانهم القوي، واستعدادهم الشديد لبذل أرواحهم رخيصة في سبيله، فقد أرسل أبو بكر إلى يزيد بن أبي سفيان لما أنباه بانتصار الجيش الإسلامي على الروم: "... فإن الله ـ وله الحمد ـ قد نصرنا ونحن مع رسول الله بالرّعب، وأمدّنا بملائكته الكرام، وأنّ الدين الذي نصرنا الله به بالرّعب هو هذا الدين الذي تدعو الناس إليه اليوم "[٣]، وأرسل عمر إلى أبي عبيدة حين استمده بالرجال والعتاد قائلاً: "... ولن تقرأ كتابي هذا حتى يأتيكم المدد، وكل ما تحبون مما فيه قوّتكم إن شاء الله عز وجل، غير أني أعلمكم أنه ليس بالجمع الكثير، والجيش الكثيف تُهزم الجموع، ويُنزل النصر، وربما أخذل الله ـ عزّ وجلّ ـ الجموع الكثيرة فهُزمت وقلّت فلم تُغن عنهم كثرتهم شيئاً وربما نصر الله ـ عزّ وجلّ ـ العصابة القليلة عددها وعُددها، وأظفرهم وأظهرهم على عدوّهم، فأبشروا، وطيبوا نفساً، وتوكلوا على الله، فإنه نعم المولى ونعم النصير "[٤].

وعمل القائد على تهدئة المسلمين وتخفيف ما يشعرون به من خوف وتردد بسبب قوة عدوهم وأعداده الكبيرة، مؤكدين أن الله سيكون مع المسلمين، وكانوا يرفعون من روحهم المعنويّة لانها تعدّ عاملاً أساسياً في إحراز النصر، وتحمل مشاق الحرب، واتبع عمر في التخفيف من إحساس المسلمين بأنهم معرضون للهزيمة أما م جحافل الروم سبيل التشجيع المبني على الإيمان العميق بالله الذي يساندهم، وأنه القادر على خذل أعدائهم كما جاء في رسالته إلى أبي عبيدة حين أبلغه عن جموع الروم وطلب المدد: "... فلا تهولنك كثرة ما جاء منهم، فإن الله منهم بريء، ومن برئ الله

---

(١) السيرة النبوية، ١٧٨/٢.

(٢) الأزدي، فتوح الشام، ص: ١٤٧، ٢٤٤.

(٣) المصدر نفسه، ص: ٣٢.

(٤) الواقدي، فتوح الشام، ٢٢٧؛ الأزدي، فتوح الشام، ص: ١٨٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

منه كان قمناً ألا تنفعه كثرة، وأن يكله الله إلى نفسه، ويخذله، ولا توحشك قلة المسلمين فإن الله معك، وليس قليلاً من كان الله معه، فأقم بمكانك الذي أنت به حتى تلقى عدوك وتناجزهم، وتستظهر بالله عليهم، وكفى به ظهيراً ووليّا ونصيراً "[١]، ويبين عمر لجيش المسلمين أن صراعهم مع الروم انما هو صراع بين إرادة قوية مؤمنة بمبادئ قوامها الإيمان بالله وقوة ماديّة، وأن الله ينصر الفئة المؤمنة التي تسأله النصر والرحمة: "... فأما قولك إنه قد جاءهم ما لا قبل لهم به، فإن لا يكن لكم بهم قبل فإن لله بهم قِبَلا، ولم يزل ربنا عليهم مقتدرا، ولو كنا والله انما نقاتل الناس بحولنا وقوتنا وكثرتنا لهيهات ما قد أبادونا وأهلكونا، ولكن نتوكل على الله ربنا، ونبرأ اليه من الحول والقوة، ونسأله النصر والرحمة، وانكم منصورون إن شاء الله على كل حال "[٢]. ومع إصرار عمر بن الخطاب على توجيه المسلمين نحو الارادة القوية الا أنه كان مؤمناً بما في الآية الكريمة: "... وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم... "[٣]، لذلك أرسل إلى أبي عبيدة مدداً على رأسه سعيد بن عامر بن خديم في ألف رجل من المسلمين[٤].

وأقرّت بعض الردود فعل القائد وما ارتآه من قرارات في ساحة المعركة؛ روى أبو جعفر محمد بن علي أن أبا بكر أرسل إلى الطاهر بن أبي هالة يقول: " بلغني كتابك تخبرني فيه مسيرك، واستنفارك مسروقاً وقومه إلى الأخابث بالأعلاب[٥] فقد أصبت، فعاجلوا هذا الضرب، ولا ترفّهوا عنهم، وأقيموا بالأعلاب حتى يأمن طريق الأخابث، ويأتيكم أمري... "[٦]، وروى النضر بن إسحق أن عمر بن الخطاب أرسل إلى قائده قطبة بن قتادة كتاباً جاء فيه: "... إنه أتاني كتابك أنك تُغير على من قبلك من الأعاجم، وقد أصبت ووفقت، أقم مكانك واحذر على من معك من أصحابك حتى يأتيك أمري "[٧].

ولم تحظ كل أخبار المعركة برضى الخليفة ومباركته بل قوبل بعضها بالنقد البنّاء حفاظاً على سلامة الجنود المسلين، ونجاح سير المعركة؛ روى أدهم بن محرز الباهلي عن أبيه أن عمر بن الخطاب أرسل يردّ على أبي عبيدة حين وجّه جنوده نحو بلاد ملك الروم: "... وذكرت أنك وجهت

---

(١) الواقدي، فتوح الشام، ٢٣٢/١؛ الأزدي، فتوح الشام، ص: ١٨٢؛ الاكتفاء، ٢٤٢/٣.

(٢) المصدر نفسه، ٢٣٢/١؛ المصدر نفسه ١٨٣؛ المصدر نفسه، ٢٤٣/٣.

(٣) سورة الأنفعال، آية ٦٠.

(٤) الأزدي، فتوح الشام، ص: ١٨٤.

(٥) الأعلاب، أرض لعك بن عدنان، بين مكة والساحل؛ معجم البلدان، ٢٢٢/١.

(٦) تاريخ الرسل والملوك، ٣٢٠/٣.

(٧) المصدر نفسه، ٥٩٣/٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الخيول نحو البلاد التي فيها ملك الروم وجموعهم، فلا تفعل، وابعث إلى خيلك فاضممها إليك، وأقم حتى يمضي هذا الحول، ونرى رأينا، ونستعين بالله ذي الجلال والإكرام على جميع أمورنا، والسلام "[١]، وروى عبد الرحمن بن جبير عن أبيه أنه لما غدر العدو بالمسلمين في أثناء فتح مصر بسبب اطمئنان المسلمين إلى عددهم وعدم توخي الحيطة والحذر أرسل عمر يقول له: "... وقد بلغني ما جرى لكم بمصر من غدر عدوّكم كما سبق في أمّ الكتاب، وكان يجب عليك يا ابن العاص أن لا تطمئن إلى عدوّك ولا تسمع منه حيلة، وما كنت أعرفك إلا حسن الرأي والتدبير، ولكن ليقضي أمراً كان مفعولا، فاستعمل النشاط في أمرك، ولا تأمن لعدوك، واستعمل الحذر فإن الامام ما يكون إلا على حذر "، وانتقد عمر كذلك قراراً لأبي عبيدة حين جاءته جموع الروم فخرج من حمص إلى دمشق وقرار أبي عبيدة صدر بعد مشورة أهل الرأي ممن معه، على الرغم من كراهة عمر لما اتفقوا عليه إلا أنه وافقهم لظنه أنه قرار جماعي ولعلّه خير: " أما بعد، فقد بلغني خروجك من أرض حمص، وترككم بلاداً فتحها الله عزّ وجلّ عليكم، فكرهت هذا من رأيكم وفعلكم، غير أني سألت رسولكم عن ذلك فذكر أن ذلك كان من رأي خياركم وذوي النهي منكم، فعلمت أن الله ـ تبارك وتعالى ـ لم يكن بالذي يجمع آراءكم إلاّ على توفيق وصواب "[٢].

وقد رافق انتقاد بعض قرارات القادة بيان المخاطر المترتبة عليها؛ فحين خاض المسلمون معارك فتح الشام رأي عمر خطأ في قرار أبي عبيدة في الرحيل وترك حصار القلعة إلى البلاد التي بين حلب وانطاكية فأرسل إليه عمر: "... وأما ما ذكرته من انصرافك إلى البلاد التي بين حلب وإنطاكية، وتركك القلعة ومن فيها، فهذا رأي غير صواب؛ تترك رجلاً قد دنوت من ديارة وملكت مدينته، ثم ترحل فيبلغ إلى جميع النواحي أنّك لم تقدر عليه، ولم تصل إليه فيضعف ذكرك، ويعلو ذكره، ويطمع من يطمع ويجترئ عليك أجناد الروم خاصتهم وعامتهم وترجع إليه الجواسيس، وتكاتب ملوكها في أمرك، فإيّاك أن تبرح مجاهدته حتى يقتله الله أو يسلم إليك إن شاء الله تعالى، أو يحكم الله وهو خير الحاكمين... "[٣].

إن أبا عبيدة كان على قيد أنملة من ديار ملك الروم إلا أن القلعة استعصت عليه فقرر الرحيل بسبب طول الحصار وتعرّض جند المسلمين للقتل غير أنه لم يحسب النتائج السلبيّة لقراره؛ إذ إنّ ذكر الجيش الإسلامي وصيته سيخبو في حين أنّ سمعة جيش الروم تعلو وترتفع، وهذا الأمر له

---

(١) الأزدي، فتوح الشام، ص: ١٤٧؛ الفتوح، ٢١٧/١.

(٢) الفتوح، ٢٢٧/١؛ الاكتفاء، ٢٢٨/٣.

(٣) الواقدي، فتوح الشام، ٢٦١/١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أثره الفعّال في نفوس الأعداء فيتجرؤون عليه ويفسح المجال واسعاً أمام الجواسيس، ويتكاتف الروم كلّهم ضدّ المسلمين، وحتى لا يحدث شيء من ذلك فعلى القائد الاستمرار في الحصار إلى أن يُسلّم الروم، أو يقتلهم الله وينصر المسلمين، وفيما قاله عمر بن الخطاب دلالة جليّة على الاهتمام في إضعاف الروح المعنوية لدى العدو، والاهتمام بالبعد الإعلامي والنفسي عند الأطراف الأخرى؛ فرغم قوة المسلمين وشدة تحملهم إلا أن سوء تصرف قد يقلب ذكرهم وصورتهم في نظر العدوّ، فيظن بهم الضعف فتقوى رغبة العدو في قتالهم، لذلك حرص عمر على هيبة الجيش الإسلامي، وعدم إعطاء العدو الفرصة للنيل منهم، أو فعل ما من شأنه أن يعزز روح القتال والأمل بالنصر في نفوسهم، وحتى يستطيع أبو عبيدة ومن معه الاستمرار في الحصار والصمود أرسل إليه عمر المدد من رجال وعتاد، وطلب إليه أن يبثّ خيله ورجاله في السهل والوعر، وأكناف الجبال والأودية[1].

إن الملاحظات السابقة التي انتقد الخليفة فيها سلوك القائد في المعركة وصلت إلى القائد بأسلوب زاخر بالتهذيب واحترام رأي القائد، وهذا الأمر يشي بحسن العلاقة ومتانتها بين الخليفة في حاضرة الدولة والقائد على أرض المعركة، وهذا من شأنه جعل سير الأحداث غير قائم على الصراع والتحكم والاستبداد بالرأي، وكذلك هو غير مبني على الانتقاد بهدف التقليل من شأن القادة بل هو انتقاد بناء من أجل صالح الدولة الاسلامية ورجالها المجاهدين.

ولم تسلم بعض الرسائل التي حملت أخبار الفتوح من ظنّ ينازع في نسبتها إلى عصر صدر الإسلام وذلك لما يمكن أن يؤخذ عليها من مآخذ.

روى الواقدي عن جملة من الرواة والمؤرخين أن حسان بن ثابت أرسل إلى أبي بكر رسالة شعرية تحمل تقريراً عن سلوك خالد بن الوليد بعد أن انتهى من حرب اليمامة في أثناء حروب الرّدة، وبين الشعر أن خالداً خطب إلى مجاعة بن مرارة ابنته ودخل بها في أرض اليمامة، وكانت معاملة خالد للمهاجرين والأنصار بعد زواجه سيئة في حين أنه عامل أهل زوجته برفق وقضى لهم حوائجهم[2]:

ألا أبلغ الصديق قولاً كأنّه ... إذا بُثّ بين المسلمين المبارِدُ

أترضى بأنا لا تجف دماؤنا ... وهذا عروس باليمامة خالِدُ

يبيت يناغي عرسه في فراشه ... وهامٌ لنا مطروحة وسواعِدُ

إذا نحن جئنا صدّعنّا بوجهه ... وثنى لأعمام العروس الوسائد

---

(١) الواقدي، فتوح الشام، ٢٦١/١.

(٢) كتاب الردة، ص: ٨١، الفتوح، ٤٣/١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد كانت الأنصار منه قريبـــــة فلما رأوه قد تباعد باعـــــدوا
وما كان في صهر اليماميّ رغبـة ولم يرضه إلا من الناس واحـدُ
فكيف بألف قد أصيبوا ونيـــــّف على الماء بين اليوم أو زاد زائدُ
فإن ترضَ هذا فالرضى ما رضيته والا فأيقظ إن مَن تحتُ راقـــدُ

وتزعم الرواية أن أبا بكر غضب لفعل خالد وسأل عمر بن الخطاب رأيه فقال له عمر: " انا والله لا يزال يأتينا من خالد في كل حين ما تضيق به الصدور "[١]، ويبعث أبو بكر الصديق إلى خالد بن الوليد كتاباً حادّ اللّغة يوبخه فيه على فعله: " أما بعد، يا ابن الوليد فإنك فارغ القلب، خشن العزاء عن المسلمين، إذ قد اعتكفت على النساء، وبفناء بيتك ألف ومائتا رجل من المسلمين، منهم سبعمائة رجل من حملة القرآن، ثم يخدعك مجاعة بن مرارة عن رأيك أن صالحك صلح مكر، وقد أمكن الله منهم، أما والله يا خالد، ما هي بنكر، وأنها شبيهة بفعلك بمالك بن نويرة فسواه لك، ولأفعالك هذه القبيحة التي ساءتك في بني مخزوم "[٢].

لقد رويت الرسالتان بصورة كاملة في كتابي: " الردة " للواقدي، و " فتوح " ابن اعثم، في حين أن ابن إسحق روى جزءاً يسيراً من رسالة أبي بكر إلى خالد بن الوليد[٣]، ولو لم توهن هاتان الرسالتان من قبل مصادر هما الواقدي، وابن اعثم، وابن إسحق[٤]، فإن متنهما يؤخذ عليه مآخذ عديدة تضعفه وتوهنه.

أولاً: تحمل الرسالة المنسوبة إلى حسان بن ثابت اعتراضين على سلوك خالد بن الوليد: الأول: زواجه وهم في حالة حرب، والثاني: سوء معاملته للأنصار، أما السبب الأول فهو منطلق من أن العرب كانت " تكره النساء في الحرب وتعايره "[٥]، وعلى هذا فهو اعتراض غير مبني على حكم شرعي يحول دون الزواج في أثناء الحرب، وعادة العرب لا تشكل قانوناً يمنع

---

(١) كتاب الرّدة، ص: ٨٢.

(٢) كتاب الردة، تحقيق: محمود عبد الله أبو الخير، دار الفرقان، عمان، ص: ٢٢٢؛ الفتوح، ٤٤/١.

(٣) تاريخ الرسل والملوك، ٣٠٠/٣.

(٤) ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي، (ت٦٢٦هـ)، ارشاد الأديب إلى معرفة الأريب، ط١، تحقيق: احسان عباس، ٧م، دار الغرب الاسلامي، بيروت، ١٩٩٣، ٢٠٢/١؛ بيان ممدوح المجالي، محمد بن اسحق في كتابه التاريخ، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٩٦، ٣٤/١-٣٩؛ عدنان محمد الحاج أسعد حسين، المؤرخون العرب والفتنة الكبرى (القرن ١هـ - ٤هـ)، دراسة تاريخية منهجية، رسالة دكتوراة، الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٩٦، ص: ٢٧-٢٩.

(٥) تاريخ الرسل والملوك، ٢٧٨/٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تجاوزها من قبل خالد أو غيره، ما دام القائد لم يقصر في واجبه في المعركة، وهذا لم يعرف عن خالد، ولو انه حدث لذكر في الرسالة الشعرية. أما السبب الثاني فرائحة العصبية تفوح منه، وكأن خالداً يقرّب المهاجرين ويزورّ عن الأنصار، وسلوك مثل هذا لم يُعرف عن خالد ابن الوليد.

ثانياً: إن إشارة أبي بكر إلى صلح خالد مع مجاعة بن مرارة تتعارض مع رسالة أرسلها اليه خالد يعلمه فيها بنتائج صلحه مع مجاعة وردّ عليه أبو بكر رداً إيجابيّاً، وبعد أن نقض مجاعة العهد فإن أهل اليمامة ذهبوا وفداً إلى أبي بكر معتذرين ورضي عنهم كما جاء عند الواقدي نفسه[١]، إذن ليس هناك داعٍ للإشارة السلبية إلى شيء انتهى برضى أبي بكر الخليفة.

ثالثاً: أما قصة مالك بن نويرة المرتد فهي لا تُعدّ من سوءات خالد لأن أبا بكر قدّر ظروف حادث مقتل مالك، ولم يعتبر ما حدث جريرة يُعاير بها[٢]، وإن قصد صاحب الأبيات زواج خالد من زوجة مالك في الحرب فهو كذلك أمر لا تثريب على خالد فيه، وروي أن أبا بكر قد عنّف خالد بن الوليد بسبب زواجه من زوجة مالك لأن العرب كانت تعيب ذلك[٣]، ولو أن هذا صحيح فهل يُقدم خالد على ارتكاب المخالفة ذاتها وفي وقت الحرب؟، لا أظن أن شخصية مثل خالد بن الوليد ترتكب هذا الفعل.

رابعاً: لو سلّمنا للمرة الثانية بصحة رسالة أبي بكر، وأن أخطاء خالد بن الوليد باتت تتكرر فهل يعقل أن يرسله إلى العراق بعد انتهائه من حرب اليمامة؟، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل إن أبا بكر أرسل كتاباً إلى المثنى بن حارثة جاء فيه: " أما بعد، فإني بعثت إليك خالد بن الوليد إلى أرض العراق، فاستقبله بمن معك من قومك، ثم ساعده ووازره، وكانفه، ولا تعصيّن له أمراً، ولا تخالفنّ له رأياً، فإنه من الذين وصفه الله ـ تبارك وتعالى ـ في كتابه: (محمدٌ رسولُ الله، والذين معه أشدّاءُ على الكفّارِ، رُحَماءُ بينهم، تراهم رُكّعاً سُجّداً)[٤] "[٥]. ولو كان خالد كما وُصف في الرسالتين لا أظن أن أبا بكر يغامر بإرساله إلى العراق التي

---

(١) كتاب الردة، ص: ٧٩-٨١.

(٢) تاريخ الرسل والملوك، ٢٧٨/٣-٢٧٩؛ وانظر محمد سيد الوكيل، جولة تاريخية في عصر الخلفاء الراشدين، ط١، دار المجتمع للنشر والتوزيع، السعودية، ١٩٨٦، ص: ٤٤-٤٥.

(٣) المصدر نفسه، ٢٧٩/٣.

(٤) سورة الفتح، آية ٢٩.

(٥) كتاب الردة، ص: ١٣٠، الأزدي، فتوح الشام، ص: ٦٠-٦١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تحوج جبهتها إلى من يلتزم بشؤون الحرب، ولا يسلك طريق السوء كما روي عن خالد في هاتين الرسالتين.

خامساً: إن الأبيات الشعرية المنسوبة إلى حسّان بن ثابت قد تكون من الشعر المصنوع الذي حُمل عليه ويعضد هذا أن القدماء أشاروا إلى الوضع في شعره؛ قال ابن سلاّم فيه: " وهو كثير الشعر جيّده، وقد حُمل عليه ما لم يُحمل على أحد، لما تعاضهت قريش وأستبت، وضعوا عليه أشعاراً كثيرة لا تُنقّى "(١)، وقال الأصمعي: " تنسب إليه أشياء لا تصح "(٢). وينضاف إلى ذلك ركاكة الأبيات الشعريّة وضعفها ولا يعلل هذا الضعف بأن شعر حسان الإسلامي أصابه الضعف بل إن هناك صلة وثيقة بين هذا الضعف والوضع والانتحال في الشعر المنسوب لحسان بن ثابت(٣)، والأبيات المنسوبة لحسان لا أراها الا من المقحمات عليه لإعطاء الرسالة شيئاً من الثقة بصدورها عن صحابيّ جليل وشاعر كبير ليُعلل أخذ أبي بكر بما جاء فيها من غير أن يستوثق من صحته.

سادساً: تحاول الروايات المتصلة بنصوص الرسالتين أن تظهر العلاقة بين خالد بن الوليد وعمر بن الخطاب وكأنها علاقة عدائية؛ فتظهر عمر بمظهر المحرض لأبي بكر ضد خالد، وتظهر خالداً وهو على يقين من أن الذي دفع أبا بكر ليوبّخه في الرسالة هو عمر بن الخطاب، وقد ظهر هذا في القول المنسوب لخالد حين وصلته رسالة أبي بكر: " يرحم الله أبا بكر، والله ما أعرف في هذا الكتاب من كلامه شيئاً، ولا هذا الا من كلام ابن الخطاب، وقد كان الذي كان، وليس إلى ردّه من سبيل "(٤)، والرواية تظهر أبا بكر بصورة من يستمع إلى التحريض ويستجيب له، وهذه ليست من شيم وأخلاق من حمل راية الاسلام إلى العالم، ونهل قبل ذلك من معين أخلاق الرسول ـ عليه السلام ـ عن طريق الصحبة، وما دام هذا حال متن الرسالتين، وحال الأخبار المتصلة بهما فإنهما أقرب إلى الاختلاق والوضع، والله أعلم.

---

(١) محمد بن سلام الجمحي، (ت ٢٣١هـ)، طبقات فحول الشعراء، تحقيق: محمود محمد شاكر، ٢م، مطبعة المدني، القاهرة، ١٩٨٤، ١/٢١٥.

(٢) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ١/٣٤٦؛ وانظر: شوقي ضيف، العصر الاسلامي، ط٧، دار المعارف، مصر، ص: ٧٩-٨١.

(٣) العصر الاسلامي، ص: ٨١؛ جاسر أبو صفيّة، الشعر في عهد النبوة والخلافة الراشدة (دراسة نقدية، دراسات، مجلد ٢٢، عدد ٤، ١٩٩٥، ص: ١٩٢٨-١٩٣٠.

(٤) كتاب الردة، تحقيق: محمود عبد الله أبو الخير، ص: ٢٢٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي عهد عمر بن الخطاب تزداد الفتوحات، وتزداد الحاجة لاستخدام الرسائل لوصف هذه الفتوحات وأخبارها، ومن هذه الرسائل رسالة أبي عبيدة إلى عمر بن الخطاب؛ روى الأزدي في كتابه " فتوح الشام " أن أبا عبيدة أرسل إلى عمر بن الخطاب كتاباً يعلمه فيه بنزول الروم في مكان يدعى " فِحْل "، وقد سارع إلى نصرهم أهل البلد ومن كان على دينهم من العرب وكتبوا إليه: " اخرج من بلادنا التي تنبت الحنطة والشعير والفواكه والأعناب، وانكم لستم لها بأهل، والحقوا ببلادكم بلاد الشقاء والبؤس، فإن أنتم لم تفعلوا سرنا إليكم بما لا قبل لكم به، ثم أعطينا الله عهداً ألا ننصرف عنكم، وفيكم عين تطرف... "[١]، وأبو عبيدة بدوره ردّ عليهم وفنّد ادّعاءاتهم قائلاً: "... أما قولكم، أخرجوا من بلادنا فلستم لها بأهل، فلعمري ما كنّا لنخرج منها وقد دخلناها وورثناها منكم، ونزعناها من أيديكم، وانما البلاد بلاد الله، والعباد عباده، وهو ملك الملوك، يؤتي الملك من يشاء، وأما ما ذكرتم عن بلادنا، وزعمتم أنها بلاد البؤس والشقاء، فقد صدقتم، وقد أبدلنا الله بها بلادكم، بلاد العيش الرفيع والسعر الرخيص، والفواكه الكثيرة، فلا تحسبونا بتاركيها، ولا منصرفين عنها..."[٢]، وهذه الرواية يؤخذ عليها جملة من المآخذ توهن نسبتها إلى أبي عبيدة وعصره:

١- تأكيد ابي عبيدة أن بلاد العرب بلاد بؤس وشقاء، الأمر الذي أدّى بهم إلى اقتحام البلاد الأخرى من أجل رخاء العيش والسيطرة على ثروات الأمم الأخرى وهذا يخالف هدف الفتوحات الإسلامية الأول وهو نشر الإسلام بين شعوب الأمم الأخرى، وهذا الهدف لم يأت في ردّ أبي عبيدة على رسالة الروم[٣].

٢- لم يُذكر في الرّد الخيارات الثلاثة التي تطرح على الأمم الأخرى وهي الإسلام، أو الجزية أو الحرب، وهذا يخالف تشريعاً إسلامياً من تشريعات الحرب في الإسلام، وأبو عبيدة القائد المجرّب الخبير يعرف ذلك، وسبق أن جاءت هذه الوسائل الثلاث في مجادلته مع الروم[٤].

٣- ضعف الرسالة من ناحية أسلوبية في كثير من جملها مثل قوله: "... وقد أبدلنا الله بها بلادكم، بلاد العيش الرفيع، والسعر الرخيص، والفواكه الكثيرة... "[٥]. ويُضاف إلى ركاكة التعبير

---

(١) الأزدي، فتوح الشام، ص: ١٢٥، الاكتفاء، ٣/١٩١.

(٢) المصدر نفسه، ص: ١٢٥-١٣٦؛ الاكتفاء، ٣/١٩١-١٩٢.

(٣) عبد الجبار منسي العبيدي، الفتوح العربية الإسلامية ودوافعها، المؤرخ العربي، عدد ١٤٠، بغداد، ١٩٨٠، ص: ٢٩٠-٢٩٥.

(٤) الواقدي، فتوح الشام، ١/٢٣٤.

(٥) .الأزدي، فتوح الشام، ص: ١٢٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فإن تلك الجمل بما تحمله من مضمون يدل على سطحيّة تفكير من تنسب إليه، وهـذا لـم يُعهد من أبي عبيدة أو من إحدى شخصيّات الفتوح الاسلامية.

٤- قد يعترض معترض بحجة أن عمر بن الخطاب ردّ على رسالة أبي عبيدة هذه بردّ حسنٍ ولـم يعترض على شيء ممـا جاء فيهـا بـل أرسـل إليـه يقـول: "... وقـد سـددت بحجتك، وأوتيت رشدك... "[١]، ولا يقبل من عمر بن الخطاب ردّ كهذا على رسالة مثل التي رويت؛ وذلك لمـا فيها من مخالفة لقانون الحرب في الاسلام، وما فيها من تشـويه لصـورة المسـلمين، وأنهـم مـا فتحوا البلاد الأخرى الا لملء بطونهم من خيراتها، ولعل ردّ عمر هذا كان على رسالة أخرى مختلفة.

٥- وأمر آخر يتصل بالحدث التاريخي لهذه الرسالة إذ تزعم الرواية أن الرسالة بعثت مع رسـول " نبطي من أنباط الشام " وكانت النصرانية دينه، فكيف يعقل أن يثق أبو عبيدة بهذا النصرانـي في حمل رسالته إلى الخليفة، ألم يكن في الجيش الاسلامي رجلٌ يوثـق بـه لإيصـال الرسـالة، ولعلّ زعم إرسالها مع هذا النبطي النصراني روي لاستكمال قصة الرسالتين، وإسلام النبطـي على يد عمر بن الخطاب[٢].

٦- ومـع أن الطـبري روى خـبر فتـح " فحـل " بطـرق مختلفـة إلاّ أنّـه لـم يـأتِ علـى ذكـر هـاتين الرسالتين[٣]، ولذلك كله أميـل إلـى عـدم قبـول هـذه الرسـالة وعدّهـا مـن الأخبـار الموضوعـة لإعطاء الخبر التاريخي نوعاً من التشويق والروح والقصصية، وهذا أمـر لـم تخـلُ منـه كتـب الفتوح الاسلامية في عهودها الأولى.

ومن النصوص التي لا تتصف بدرجة كافية من الصحة للوثوق بها رسالة رويت فـي " فتـوح الشام" المنسوب للواقدي، وتزعم الرواية أنها مرسلة من قبل أبي عبيدة إلى عمـر بـن الخطـاب أثنـاء الحصار الذي أقيم حول بيت المقدس، وتحقيق الرسالة يقتضي عرض الخبر التاريخي الذي استندت إليه لأنه يضيء بعض جوانب الضعف والشك في الرسالة.

روى الواقدي أن المسلمين لما حاصروا بيت المقدس فـي وقـت القـرّ، قـاتلوا قتـالاً شـديد ألجـأ الروم إلى طلب المفاوضات عن طريق بطريقهم، وإثر حـوار طويـل بيـن ممثـل الـروم وأبـي عبيـدة ممثل المسلمين بيّن في أثنائه القائد المسلم المبادئ الثلاثة المطروحة أمام الروم لاختيار واحدة منهـا،

---

(١) الأزدي، فتوح الشام، ص: ١٢٦.

(٢) المصدر نفسه، ص: ٢٦.

(٣) تاريخ الرسل والملوك، ٤٣٤/٣-٤٤٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لكن ممثل الروم قال له: "... أنا أقسم بالمسيح أنكم لو أقمتم علينا عشرين سنة ما فتحتموها أبداً وانما تفتح لرجل صفته ونعته في كتبنا، ولسنا نجد صفته ونعته معك أبداً، فقال أبو عبيدة: وما صفته من يفتح مدينتكم؟ قال البترك: لا نخبركم بصفته، لكن نجد في كتبنا وما قرأناه من علمنا أنه يفتح هذه البلدة صاحب محمد اسمه عمر يعرف بالفاروق، وهو رجل شديد لا تأخذه في الله لومة لائم، ولسنا نرى صفته فيكم ... "[١]، وزعم البطريق أنه إذا رأى هذا الرجل سيعرفه لأن أوصافه وعدد سنينه وأيامه عنده[٢]، وقد حاول المسلمون خداع الروم حين أرسلوا خالد بن الوليد منتحلاً شخصية عمر لشبه بينهما كما زعمت الرواية، ولما فشلت خطة المسلمين لم يعد أمامهم إلا مراسلة عمر بن الخطاب يعلمونه بما حدث وجاء في خطاب أبي عبيدة إلى عمر: "... اعلم يا أمير المؤمنين أنا منازلون لأهل مدينة إيلياء[٣]، نقاتلهم أربعة أشهر، كل يوم نقاتلهم ويقاتلوننا، ولقي المسلمون مشقة عظيمة من الثلج والبرد والأمطار، إلاّ أنهم صابرون على ذلك ويرجون الله ربهم، فلما كان اليوم الذي كتبت إليك الكتاب فيه أشرف علينا بتركهم الذي يعظمونه، وقال إنهم يجدون في كتبهم أنه لا يفتح بلدهم إلا صاحب نبينا واسمه عمر، وأنه يعرف صفته ونعته وهو عندهم في كتبهم، وقد سألنا حقن الدماء، فسر إلينا بنفسك، وأنجدنا لعل الله أن يفتح هذه البلدة علينا على يديك "[٤]. ولا يخفى أن الخبر والرسالة قائمان على خرافة غير واقعية، والقصة تظهر المسلمين بمظهر المغفلين الذي يصدّقون ما يقال دون تدبر، وما هو الشبه بين خالد وعمر، وكيف يحق لخالد انتحال شخصية الخليفة؟.

إن خبر فتح إيلياء في تاريخ الطبري يُنسب الحوار فيه مع كبير الروم إلى عمرو بن العاص عن طريق رسوله إلى الأرطبون، ويعود الرواة إلى ذكر الخرافة السابقة بأن من يفتح إيلياء "رجل" اسمه " عمر " " ثلاثة أحرف "، وحين يعلم عمر بذلك يرسل إلى الخليفة يقول: "... إني أعالج حرباً كؤوداً، صدوماً، وبلاداً ادّخرت لك، فرَ رأيك "[٥]. ويستجيب عمر ويأتي إلى بيت المقدس. أما البلاذري فقد روى عن طريق جملة من الرواة أن عمرو بن العاص كان محاصراً بين المقدس سنة ست عشرة للهجرة وقدم عليه أبو عبيدة بعد أن فتح قنسرين[٦] ونواحيها، وطلب أهل إيلياء منه

---

(١) الواقدي، فتوح الشام، ٢٣٣/١-٢٣٥.

(٢) المصدر نفسه، ٢٣٤/١.

(٣) إيلياء: اسم مدينة بيت المقدس، معجم البلدان، ٢٩٣/١.

(٤) الواقدي، فتوح الشام، ٢٥٣/١.

(٥) تاريخ الرسل والملوك، ٦٠٦٠٦٠٧/٣.

(٦) قنسرين: مدينة بينها وبين حلب مرحلة، مراصد الاطلاع، ١١٢٦/٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الأمان والصلح على صلح أهل مدن الشام، واشترطوا أن يتولى عمر بن الخطاب نفسه ابرام العقد معهم[١]، وجاءت هذه الرواية كذلك عند الطبري[٢]، وروى البلاذري كذلك روايتين أخريين عن طريق يزيد بن أبي حبيب والأوزاعي تنسب أولاهما الفتح إلى خالد بن ثابت الفهمي، وتنسبه الثانية، إلى أبي عبيدة[٣]؛ وتتفق روايات البلاذري ورواية الطبري الثانية على عدم ذكر قصة البطريق مع أبي عبيدة أو عمرو بن العاص والخرافة المتصلة بالقصة، مما يعزز عدم صحة الرسالة المنسوبة إلى أبي عبيدة في " فتوح الشام " لأنها أقرب إلى الخرافة وقصص السمّار. وفي ظني أن النص الأكثر صحة وقبولاً لرسالة أبي عبيدة إلى عمر بشأن إيلياء أو بيت المقدس، هو النص الذي أورده الأزدي في فتوحه، وجاء فيه إنّ أهل إيلياء لما رأوا أن أبا عبيدة " غير مقلع عنهم، وظنّوا أنه لا طاقة لهم بحربه، قالوا له نصالحك "[٤]، وطلبوا أن يكون عمر بن الخطاب الخليفة هو الذي يعطيهم العهد ويكتب لهم الأمان[٥]، فأرسل أبو عبيدة إلى عمر كتاباً يخبره فيه خبر أهل إيلياء: "... أما بعد، فإنا أقمنا على إيلياء، وظنوا أن لهم في المطاولة بهم فرجاً ورجاءً، فلم يزدهم الله بها إلا ضيقاً وهزلاً، وأزلاً، فلما رأوا ذلك سألونا أن نعطيهم ما كانوا به ممتنعين قبل ذلك، وله كارهين، وأنهم سألوا الصلح على أن يقدم عليها أمير المؤمنين، فيكون هو المؤمّن لهم، والكاتب لهم كتاباً... "[٦]، ورغبة أهل بيت المقدس هذه تعود إلى مكانة المدينة الدينية عند النصارى، لذلك ارتأوا أن تعطى لهم ضمانات يحافظون بواسطتها على حقوقهم الدينية من زعيم المسلمين وهو الخليفة.

ومن الرسائل التي تدرج ضمن الكتب الموضوعة رسالة عمرو بن العاص في وصف مصر، وقد أرسلها إلى عمر بن الخطاب حين طلب إليه أن يصف له مصر، وتظهر الرسالة شديد عناية بالصنعة وتكلفها مما يبعدها عن أسلوب الكتابة في هذا العصر، وبسبب لغتها هذه ردّها غير واحد من الباحثين[٧]، ومما جاء فيها: " إن مصر قرية غبراء، وشجرة خضراء، طولها شهر، وعرضها

---

(١) فتوح البلدان، ص: ١٨٨-١٨٩.

(٢) تاريخ الرسل والملوك، ٣/٦٠٨.

(٣) فتوح البلدان، ص: ١٨٩.

(٤) الأزدي، فتوح الشام، ص: ٢٤٧-٢٤٨.

(٥) المصدر نفسه، ص: ٢٤٧-٢٤٨.

(٦) الأزدي، فتوح الشام، ص: ٢٤٨-٢٤٩.

(٧) محمد حسين هيكل، الفاروق عمر، مكتبة النهضة، ١٩٦٤، ٢/١٨٠؛ شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في النثر العربي، ط١، دار المعارف، مصر، ص، ٩٨؛ حسين نصّار، نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي، ط٢، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٩٦، ص، ٦٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عشر، يكنفها جبل أغبر، ورملٌ أعفر، يخطُّ وسطها نيلٌ مبارك الغُدُوات، ميمون الرّوحات، تجري فيه الزيادة والنقصان كجري الشمس والقمر، له أوانٌ يدرُّ حِلابه، ويكثر فيه ذُبابه، تمدّه عيون الأرض وينابيعها، ... "[١].

تضمنت جملة من الرسائل التي تحمل أخبار الفتح والفاتحين رسائل طلب الرأي والمشورة؛ ففي بعض الأحيان كان القادة لا يتخذون قراراً بشأن بعض ما يستجد من القضايا الكبيرة التي تواجههم في ساحة المعركة فيرسلون كتباً إلى مركز القيادة يخبرون الخليفة بالأمر ويطلبون منه مساعدتهم في اتخاذ قرار؛ وذلك من أجل مزيد من الحرص وإشراك الخليفة في قضايا الفتح الهامة ليشارك في اتخاذ القرارات؛ لانه قد يكون له وجهة نظر أعمق من القائد في ساحة المعركة لانه ينظر للمشكلة من جوانب متعددة قد لا يتسنى للقائد التنبه إليها.

ومن ذلك أنه لما كان الروم يعدون العدة لقتال المسلمين كان القادة يرسلون إلى الخليفة (أو القائد العام) يسألونه الرأي؛ ومن ذلك رسالة أبي عبيدة إلى أبي بكر وفيها يقول: "... فإنه بلغني أن هرقل ملك الروم نزل قرية من قرى الشام، تدعى انطاكية، وأنه بعث إلى أهل مملكته، فحشرهم إليه، وانهم نفروا اليه على الصعب والذلول وقد رأيت أن أعلمك ذلك فترى فيه رأيك."[٢]، وقد ردّ عليه أبو بكر موضحاً أن ردة فعل الروم غير مفاجئة فقال له: "... أما ما ذكرت من حشره لكم أهل مملكته، وجمعه لكم الجموع، فإن ذلك ما قد كنا وكنتم تعلمون انه سيكون منهم، وما كان قوم ليدعوا سلطانهم ويخرجوا من ملكهم بغير قتال "[٣] وفي هذا دليل على نظرة القائد الواقعية فقد كان على يقين بأن الروم لن يستقبلوهم بالترحاب، فهذا ملكهم، وما تعارفوه من عقيدة دينية وظنوا أن المسلمين سوف يسلبونهم كل ذلك، لذا لا بد من الدفاع المستميت عما في حوزتهم وتحت أيديهم. وكان القائد يدعو الجيش إلى بذل الوسع والطاقة في قتال عدوهم، وأنه لن يتركهم بل سيرسل إليهم الإمدادات لمساعدتهم: "... وأنا مع ذلك مُمدك بالرجال حتى تكتفي ... "[٤].

وكان الخلفاء يحرصون على رفع الروح المعنوية لجنودهم وذلك بذكر مناقبهم من القوة والشجاعة، فهم يحبون الجهاد والموت في سبيل الله أكثر من حبهم للنساء والأموال كما جاء في

---

(١) صبح الأعشى، ٣/٣٢٢؛ جمال الدين، أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي،، (ت ٨٧٤هـ)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ط١، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢، ٤٢-٤٣.

(٢) الأزدي، فتوح الشام، ص ٣٠.

(٣) المصدر نفسه، ص: ٣٠-٣١.

(٤) الأزدي، فتوح الشام، ص، ٣١؛ وانظر رسالة يزيد بن أبي سفيان إلى أبي بكر، ص: ٣١؛ ورسالة عمرو بن العاص إلى أبي عبيدة بشأن حشود الروم، ص: ١٠٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

رسالة أبي بكر السابقة: "... وقد علمت ـ والحمد لله ـ قد غزاهم رجال كثير من المسلمين يحبون الموت حبّ عدوهم الحياة، ويرجون من الله في قتالهم الأجر العظيم، ويحبون الحياة في سبيل الله أشدّ من حبهم أبكار نسائهم وعقائل أموالهم، الرجل منهم عند الفتح خير من ألف رجل من المشركين... "[١].

وكتب سعد بن أبي وقاص إلى عمر بن الخطاب، في رواية سيف بن عمر، يستشيره بشأن طريقة التعامل مع أهل البلاد المفتوحة فقال له: "... إنا وردنا بهرسيد بعد الذي لقينا فيما بين القادسية وبهرسير، فلم يأتنا أحد لقتال، فبثثت الخيول، فجمعت الفلاحين من القرى والآجام؛ فرَ رأيك"[٢]، فأجابه عمر بن الخطاب: " إن مَن أتاكم من الفلاحين إذا كانوا مقيمين لم يعينوا عليكم فهو أمانهم، ومن هرب فأدركتموه فشأنكم به "[٣].

واستشار عمرو بن العاص عمر بن الخطاب في الخطوة التي يخطوها بعد أن مَنّ الله عليه ومن معه بفتح مصر فروى الواقدي انه أرسل إلى عمر يقول: "... وقد اجتمع أصحاب رسول الله من السادات والأمراء والأخيار المهاجرين والأنصار يطلبون الاذن من أمير المؤمنين هل يسيرون إلى الصعيد أو الغرب، والأمر أمرك يا أمير المؤمنين... "[٤]، وأجابه عمر طالباً إليه اتخاذ عدة تدابير عليه العمل بموجبها بعد الفتح مثل ارسال الأمراء لإقامة الدين وتعليم الأحكام، ودعوة مَن لم يسلم إلى الاسلام[٥]، وفي شأن المشورة قال له: " وأن بمصر مدينتين كما بلغني احداهما يقال لها أهناس[٦] قريبة من مصر، والثانية يُقال لها البهنسا[٧] أمنع وأحصن، وبلغني أن بها بطريقاً طاغياً سفاكاً للدماء يُقال له البطليوس وهو أعظم بطارقة مصر كما بلغني، وانه ملك الواحات فلا تقربوا الصعيد حتى تفتحوا هاتين المدينتين... "[٨].

---

(١) الأزدي، فتوح الشام، ص: ٣٠؛ الفتوح، ١/١٠٠-١٠٣.

(٢) تاريخ الرسل والملوك، ٤/١٢٥.

(٣) المصدر نفسه، ٤/١٢٥.

(٤) الواقدي، فتوح الشام، ٢/٢٢٠.

(٥) المصدر نفسه، ٢/٢٢١.

(٦) أهناس، اسم كورة في الصعيد الأدنى، معجم البلدان، ١/٢٨٤.

(٧) البهنسا، مدينة بمصر من الصعيد الأدنى، بظاهرها مشهد يُزار يزعمون أن المسيح وأمه أقاما به سبع سنين، معجم البلدان، ١/٥١٦.

(٨) الواقدي، فتوح الشام، ٢/٢٢٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ووقع بين أهل الفتح خلاف إذ اختصم أهل البصرة وأهل الكوفة فنسب كل فريق الفتح لنفسه حتى كاد أن يقع مكروه بسبب ذلك فأرسلوا إلى عمر بن الخطاب فردّ عليهم رداً يدل على حنكة وعقلية ادارية سياسية فأرسل اليهم: "... أما بعد، فإن تستر[١] من مغازي أهل البصرة غير انهم انما نصروا بإخوانهم من أهل الكوفة، وكذلك أهل الكوفة لو أن عدوا غزاهم في ثغورهم ثم نصرهم أهل البصرة لم يكن بذلك بأس لأن النصر في كتاب الله عز وجل للمؤمنين، وقد جعل الله عز وجل المؤمنين إخوة والفتح لأهل البصرة، وأهل الكوفة شركاؤهم في الأجر والغنيمة، فإياكم ونزعات الشيطان،... "[٢].

ولون آخر من طلب الرأي والمشورة رغم بساطته الظاهرية الا انه عميق في دلالته ومعناه، فحين قرر أبو بكر فتح الشام أرسل إلى عمرو بن العاص يقول: " إني كنت قد رددتك على العمل الذي كان رسول الله ولاّكه مرة وسماه لك أخرى؛ مبعثك إلى عُمان انجازاً لمواعيد رسول الله؛ فقد وليته ثم وليته؛ وقد أحببت ـ أبا عبد الله ـ أن افرّغك لما هو خير لك في حياتك، ومعادك منه؛ الا أن يكون الذي اتت فيه أحب اليك" [٣]، فهو يخيره بين العودة إلى ساحة القتال أو البقاء حيث يشرف على الصدقة، فأجابه عمرو بن العاص: " اني سهم من سهام الاسلام، وانت بعد الله الرامي بها، والجامع لها، فانظر أشدها وأخشاها وأفضلها فارم به شيئاً إن جاءك من ناحية من النواحي "[٤]، وفي هذا دليل على أن الشورى وحرية الاختيار كانتا أساساً في الادارة الحربية في الاسلام؛ فالقائد يعلم أن إجبار أحد على الاشتراك في الحرب أو قيادتها لا يؤدي إلى ما يتوقعه من نتائج، ولجوء المسلمين إلى أخذ الرأي، وطلبه من طرف آخر كان اتباعاً لقوله تعالى: " وشاورهم في الأمر "[٥].

ولم يخل هذا النوع من الرسائل من الوضع والدسّ؛ روى الواقدي أن عمر بن الخطاب أرسل خطاباً إلى نهر النيل لما أعلمه رسول عمرو بن العاص أن " القبط كانوا استسنوا سنة في نيلهم في كل سنة، وذلك انهم كانوا إذا أبطأ عليهم الوفاء في النيل يأخذون جارية من أحسن الجواري ويزينونها بأحسن زينة ويرمونها في البحر فيأتي الماء ويفي النيل، وقد قرب ميقات ذلك "[٦]، وطلب

---

(١) تستر: مدينة في خوزستان، معجم البلدان، ٢٩/٢.

(٢) الفتوح، ٢٧/٢.

(٣) تاريخ الرسل والملوك، ٣٨٩/٣؛ ابن عساكر، ابو القاسم علي بن الحسن، (ت ٥٧١هـ)، تاريخ مدينة دمشق، تحقيق: محمد الدين أبي سعيد عمرو بن غرامة، دار الفكر، ٧٢/٢.

(٤) المصدر نفسه، ٧٢/٢.

(٥) سورة آل عمران، آية ١٥٩.

(٦) الواقدي، فتوح الشام، ٦٩/٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إلى عمر أن يرسل إلى عمرو بما يفعله حيال ذلك، فأرسل عمر إلى النيل يقول: " بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلى نيل مصر، أما بعد، فإن كنت مخلوقاً لا تملك ضراً ولا نفعاً وأنت تجري من قبل نفسك وبأمرك فانقطع ولا حاجة لنا بك، وإن كنت تجري بحول الله وقوته فاجر كما كنت والسلام "[١]، ولا تقف الخرافة عند هذا الحد بل تزعم الرواية أن النيل لما توقف عن الوفاء ويئس الناس في تلك السنة ألقى عمرو بن العاص كتاب عمر في النيل " فهاج البحر وزاد فوق الحد، ببركة عمر بن الخطاب، وانقطعت عن أهل مصر تلك السنةُ السّيئةُ ببركة عمر"[٢]، ولا يخفى أن عمر بن الخطاب لا يملك سيطرة على أحد مظاهر الطبيعة، وأن الاسلام لا يضع حلولاً أو بدائل خرافية وعروس النيل خرافة تقوم على أسطورة كما يرى الباحث محمد حسين هيكل في بحثه عن أصل عروس النيل، وتوصل إلى عدم وجود عروس آدمية يتنازل أهلها عنها للنهر، إلا أنّ الخرافة تطورت في أذهان الناس، وما دام الأمر أصله خرافة فليس هناك من داعٍ لإرسال المشورة أو الردّ عليها من قبل عمر بن الخطاب[٣].

---

(١) الواقدي، فتوح الشام، ٦٩/٢.

(٢) الواقدي، فتوح الشام، ٧٠/٢؛ فتوح مصر وأخبارها، ص: ١٥٠، صبح الأعشى، ٣٢٢/٣.

(٣) الفاروق عمر، ١٨١/٢-١٨٦؛ علي الخطيب، عمر بن الخطاب، ط١، عالم الكتب، ١٩٨٦، ص: ٣٦٦-٣٦٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الخامس:

رسائل الفتن الداخلية

بعد سنوات قليلة من تولي عثمان بن عفان مقاليد الخلافة، وقعت كثير من الأحداث التي اختلفت الآراء حولها، واحتلت مكانه بارزة في حقبة صدر الاسلام، وهي: مقتل الخليفة عثمان، ومعركة الجمل، ومعركة صفين، ومقتل الخليفة علي بن أبي طالب. والباحث في نصوص هذه الفتن يجد نفسه يسير في درب وعر تكتنفه العديد من المحاذير والصعاب والمشاق، وتحكي هذه النصوص ـ ولا سيما الرسائل ـ قصة الفتن ومواقف رجالات تلك المرحلة من الأحداث. وللباحث أن يسأل إلى أي مدى كانت هذه النصوص صادقة في تصوير تلك المواقف والعلاقات على حقيقتها؟ وإلى أي مدى تدخّل الهوى، والنزعة، والتعصب في انتقاء الروايات، وتمحيصها، والتدقيق فيها؟ فالمؤرخون والرواة تتنازعهم الأهواء والميول مما جعل كلاً منهم ينسب إلى رجالات فرقته والفرقة المخالفة رسائل ومواقف تتناسب مع روايته وميوله[1]، الأمر الذي أثّر في مضامين الرسائل ولغتها، وطولها، وقصرها؛ لذلك فإن الباحث في وثائق الفتن يقف موقف المتشكك فيها، ويصعب عليه دراستها وفق أبعاد ومحاور كما يفعل مع النصوص الأخرى؛ لأنها تفتقر إلى الثقة لتنسب إلى العصر موضع الدراسة، ولتكون صورة صادقة للمضمون واللغة. لكل ذلك أرتأيت البدء بدراسة رسائل الخليفة عثمان بن عفان في محاولة لبيان الصحيح من الزائف منها، لأنها تمثل بداية الصراع، وبداية الفتنة، ويمكن إثبات بعضها، أمّا رسائل خلاف علي ومعاوية فإن دراستها ستتخذ اتجاهاً آخر.

أما ما نسب إلى عثمان فقد روى سيف بن عمر عن عدد من الرواة، أن عثمان لمّا وصلته أخبار دعاة الفتنة، وما يتقولونه عليه، وعلى ولاته في الأمصار كتب كتاباً بين فيه عدم توانيه عن إعطاء الرّعية حقوقها منه ومن ولاته، وطلب إلى كل صاحب حق مراجعته ليأخذ حقه: " أمّا بعد، فإني آخذ العمال بموافاتي في كل موسم، وقد سلطت الأمة منذ وُلّيت على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فلا يرفع علي شيء ولا على أحد من عمالي إلا أعطيته، وليس لي ولعيالي حق قبل الرعية الا متروك لهم، وقد رفع إليّ أهل المدينة أن أقواماً يشتمون وآخرون يُضربون، فيا من

---

(١) انظر: الفتنة ومواقف المؤرخين منها.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ضُرب سراً، وشُتم سراً، مَن ادّعى شيئاً من ذلك فليوافِ الموسم، فليأخذ بحقه حيث كان؛ مني أو من عمالي، أو تصدقوا فإن الله يجزي المتصدقين... "[١].

وقد زعم أبو مخنف أن عثمان كتب لمن نقم عليه من المؤمنين والمسلمين عهداً يؤكد لهم فيه بالعمل على تغيير كل ما اعترضوا عليه جاء فيه: " بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من عبد الله عثمان أمير المؤمنين لمن نقم عليه من المؤمنين والمسلمين إن لكم أن أعمل فيكم بكتاب الله وسنة نبيه، يعطى المحروم، ويؤمن الخائف ويرد المنفي ولا تجمر البعوث، ويوفر الفيء، وعلي بن أبي طالب ضمين للمؤمنين والمسلمين على عثمان بالوفاء بما في هذا الكتاب، شهد الزبير بن العوام، وطلحة بن عبيد الله، وسعد بن مالك،... "[٢]، يظهر عثمان بمظهر المعترف بكل ما نسب إليه من قبل المعارضين، وعلى الرغم من ذلك فإنه ـ كما جاء في بعض الروايات ـ لم يعمل على تغيير شيء مما عاهدهم على تغييره[٣]، وهذا الاعتراف يناقضه ما جاء في رسالة عثمان إلى الأمصار يستمدهم إذ بيّن فيه أنه سار في الناس سيرة أبي بكر وعمر ولم يحد عنها، وأن المعارضين يُسرون غير ما يُعلنون: "... فعملت فيهم ما يعرفون ولا ينكرون، تابعاً غير مستتبع، متبعاً غير مبتدع، مقتدياً غير متكلف، فلما انتهت الأمور، وانتكث الشر بأهله، بدت ضغائن وأهواء على غير إجرام ولا ترة، فيما مضى إلا إمضاء الكتاب، فطلبوا أمراً واعلنوا غيره بغير حجة ولا عذر، فعابوا عليّ أشياء مما كانوا يرضون، وأشياء عن ملأ من أهل المدينة لا يصلح غيرها، فصبرت لهم نفسي وكففتها عنهم منذ سنين، وأنا أرى وأسمع، فازدادوا علي الله ـ عز وجل ـ جرأة، .... فمن قدر على اللحاق بنا فليلحق "[٤]، إن التناقض واضح بين الكتابين وقد يُعلل بأن الكتاب الأول بما فيه من اعتراف بارتكاب أخطاء جسيمة أثناء الخلافة كتب من أجل تهدئة أهل الفتنة ولو إلى حين، في حين أن الكتاب الثاني أرسل طلباً للنصرة فلا بد أن يُظهر عثمان نفسه فيه بمظهر المظلوم الذي تجرّأ عليه الناس من أجل إثارة الفتنة فقط، ومما يبعد هذا الاحتمال ما جاء في المصادر التي ذكرت أمر الكتاب الأول فقد روى الطبري عن جعفر بن عبد الله المحمدي أن علياً أخذ على عثمان في الكتاب " أعظم ما أخذ الله على أحد من خلقه من عهد وميثاق، وأشهد عليه ناساً من وجوه المهاجرين والأنصار "[٥]، فهل ينقض

---

(١) تاريخ الرسل والملك، ٤٤٢/٤؛ تاريخ دمشق، (عثمان بن عفان)، تحقيق: سكينة الشهابي، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٤، ٦٤/٥.

(٢) البلاذري، أنساب الأشراف، تحقيق: غويتين، القدس، ١٩٣٦، ٦٤/٥؛ الفتوح، ٢٠٩/٢.

(٣) تاريخ الرسل والملوك، ٣٣٨/٤، ٣٤٥-٣٤٧، ٣٧٠-٣٧٣.

(٤) المصدر نفسه، ٣٥١/٤-٣٥٢.

(٥) المصدر نفسه، ٣٧٠/٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عثمان هذه العهود، وهل يعترف بارتكابه كل هذه الأخطاء التي نفاها عنه القاضي أبو بكر بن العربي في كتابه " العواصم من القواصم "؟ إن الموقف والسن الذي كان فيه عثمان يبعد عنه ذلك فلو أخذت عليه هذه المواثيق أمام هؤلاء الصحابة لما استطاع الافلات منها، والله أعلم.

وللدلالة على التناقض في مواقف عثمان كما روتها المصادر أعرض لرسالة اتسمت بالطول قيل إنه أرسلها مع ابن عباس لما طلب إليه الحج بالناس سنة ٣٥هـ؛ لعدم قدرته على الحج بسبب الحصار، أما سند الرسالة فذكر الطبري أن ابن أبي سبرة رواها عن عبد المجيد بن سهيل الذي انتسخ الرسالة[١]، ووردت عند ابن أعثم بإسناد جمعي[٢]، وأثبتها ابن عساكر في رواية عن سيف بن عمر الذي رواها عمن عاصروا الأحداث مثل طلحة بن عبيد الله[٣]، فسند الطبري وابن عساكر يصل إلى من هم قريبون من الحدث ولكن هذا لا يقطع بصحة الرسالة التي توهنها جملة من المآخذ والملاحظات.

أولاً: تختلف المصادر اختلافاً كبيراً في رواية نص الرسالة؛ فهي عند الطبري طويلة بشكل جلي، وعند ابن اعثم طويلة ومضمونها يختلف عما جاء عند الطبري، أما ابن عساكر فروى جزءاً منها على أنه عدة رسائل بعثها عثمان إلى الأمصار، وطول الرسالة لا يتناسب والموقف الذي يعيشه عثمان فهو في حالة حصار؛ مُنع عنه الماء، وأحيل بينه وبين المسجد، ومقدمة الرسالة كانت اقتباسات طويلة من سور مختلفة من القرآن تتحدث عن الالتزام بالعهود والمواثيق، والحض على التقوى، وإطاعة الله والرسول وأولي الأمر، وتضمنت آيات التخويف من عذاب الله لمن نقض البيعة، وهذه الآيات واختيارها على هذا النحو قد يكون مَن في وضع عثمان لا يتسنى له اختيارها بهذه الدقة[٤] ولو كان حافظاً للقرآن، يضاف إلى ذلك أن سنّ عثمان كانت كبيرة.

ثانياً: في الرسالة ما يناقض الوقائع التاريخية فقد جاء فيها أن زوجات الرسول طلبن من عثمان عزل معاوية فعزله وهذا ما لم يحدث[٥] وفي الرسالة كذلك أنه استجاب لكلّ مطالب

---

(١) تاريخ الرسل والملوك، ٤/٤٠٩-٤١١.

(٢) الفتوح، ٢/٢١٤-٢١٧.

(٣) تاريخ مدينة دمشق (عثمان بن عفان)، تحقيق: سكينة الشهابي، ص: ٣١٣-٣١٥؛ محمد بن يحيى بن أبي بكر، (ت ٧٤١هـ)، التمهيد والبيان في مقتل الشهيد عثمان، ط١، تحقيق: محمود يوسف زايد، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٤، ص: ١٠٠-١٠٢.

(٤) تاريخ الرسل والملوك، ٤/٤٠٨؛ تاريخ مدينة دمشق (عثمان بن عفان)، تحقيق: سكينة الشهابي، ص: ٣١٣.

(٥) المصدر نفسه، ٤/٤١٠؛ تاريخ الترسل النثري، ص: ٣٨٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المعارضين إلاّ أنهم اعتدوا عليه رغم ذلك: "... ولا أعلم أني تركت من الذي عاهدتهم عليه شيئاً، كانوا زعموا أنّهم يطلبون الحدود، فقلت: أقيموها على من تعدّاها في أحد، أقيموها على مَن ظلمكم من قريب أو بعيد، قالوا: كتاب الله يُتلى، فقلت فَليتلُه مَن تلاه غير غال فيه بغير ما أنزل الله في الكتاب. وقالوا: المحروم يرزق، والمال يوفّى ليُستن فيه السّنة الحسنة، ولا يُعتدى في الخمس ولا في الصدقة ويُؤمر ذو القوة والأمانة، وتردّ مظالم الناس إلى أهلها، فرضيت بذلك واصطبرت له... " [١]، إن الأخبار التاريخية المتصلة باستجابة عثمان لمطالب المعارضين تناقض قول عثمان؛ روى الواقدي أن محمد بن مسلمة رفض التدخل لردّ الوفد المصري قائلاً لعثمان: " لأني ضمنتُ لهم أموراً تنزع عنها فلم تنزع عن حرف واحد منها... "[٢]، وروى جعفر بن عبد الله المحمدي، أنّ عثمان ردّ على المعارضين حين طلبوا إليه عزل بعض العمّال: " ما أراني إذاً في شيء إن كنت استعمل من هويتم، وأعزل مَن كرهتم، الأمر إذاً أمركم "[٣]، وفي حديث عثمان عن الخيارات الثلاثة التي خيّر فيها بعض الخلاف مع الأخبار التاريخيّة؛ فقال عثمان إنه خُيّر بين: " إما يقيدونني بكل رجل أصبته خطأ أو صواباً، غير متروك منه شيء؛ واما أعتزل الأمر فيؤمرون آخر غيري، وإما يرسلون إلى مَن أطاعهم من الأجناد وأهل المدينة فيتبرّأون من الذي جعل الله سبحانه لي عليهم من السمع والطاعة... "[٤]، وما وصلنا من روايات حول موقف المعارضين يفيد أنّ الخيار الثالث لم يكن اتصالهم بالأجناد وأهل المدينة للبراءة منه بل كان تهديده بالقتل[٥].

ونسبت إلى عثمان رسالة تناولها عدد من الباحثين بالنقد وهي الرسالة التي زُعم أن عثمان أرسلها إلى عامله على مصر مع غلامه يطلب إليه فيها معاقبة الوفد المصري الذي كان عنده[٦]،

---

(١) تاريخ الرسل والملوك، ٤٠٩/٤.

(٢) المصدر نفسه، ٣٧٣/٤.

(٣) المصدر نفسه، ٣٧١/٤.

(٤) المصدر نفسه، ٤١٠/٤.

(٥) المصدر نفسه، ٣٧١/٤-٣٧٢.

(٦) المصدر نفسه، ٣٧٣/٤؛ ابو بكر بن العربي، (ت ٥٤٣هـ)، العواصم من القواصم في تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، ١م، تحقيق: محب الدين الخطيب، دار الجيل، بيروت، ص: ١٣٣-١٣٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبين الباحثون تهافت الرسالة واختلاف رواياتها ومخالفتها لما عهد عن عثمان من البعد عن الغدر والكذب[١].

كانت تلك محاولة للبت في صحة ما نُسب إلى الخليفة الثالث عثمان بن عفان من رسائل تتعلق بالفتنة التي كانت ما تزال في بدايتها، ولاحظنا ما اتسمت به هذه النصوص من تناقضات فيما بينها، وما فيها من خلاف مع الأخبار التاريخية، وقد انتهت الفتنة بمقتل عثمان، وأمّا إثبات صحة النصوص المتعلقة بالأحداث اللاحقة وبيان ما لحقها من تحريف ووضع بعد مقتله فهو أمر في غاية الصعوبة لأن هذه النصوص تحمل في ثناياها الكثير من مظاهر الوضع والاختلاق الأمر الذي يجعل الباحث يتجنب توزيعها وفق المحاور الموضوعيّة وأبعادها تدور في فلكها؛ لذلك لجأت إلى استبعاد نسبة الغالبية العظمى من هذه النصوص إلى عصر صدر الاسلام ورجالاته لأسباب تتصل بمضامينها وأسانيدها، أما مآخذ المضامين فهي:

١- تضمنت الرسائل عدداً من الموضوعات التي لا تقوم على أيّ سند تاريخي، ومن ذلك:

أ. اتهام معاوية علياً بقتل عثمان، وتأليب الناس ضده، ودفاع علي عن نفسه، ولم يتهم علي أبداً بقتل عثمان بل كان وسيطاً بينه وبين المعارضة كما ورد في المصادر[٢] " أما بعد، فإنك قتلت ناصرك، واستنصرتَ واترَكَ... "[٣]، "... فقطعتَ رحمه وقبحّتَ حسنه، وأظهرت له العداوة، وبطنت له بالغش، وألّبت الناس عليه حتى ضُرِبت آباط الابل اليه من كل وجه، وقيدت اليه الخيل من كل أفق، وشهر عليه السلاح في حُرم رسول الله، فَقُتِل معك في المحلة وأنت تسمع الهائعة لا ترد عنه بقول ولا فعل "[٤]، " وما أمرتُ فيلزمني خطيئة الأمر، ولا قتلتُ فيجب علي القصاص "[٥].

ب. اتهام معاوية علياً بالإساءة إلى أبي بكر وعمر بن الخطاب، " ... فكلهم حسدت، وعلى كلهم بغيت، عرفنا ذلك في نظرك الشزر، وقولك الهجر، وتنفسك الصعداء، وإبطائك عن

---

(١) العواصم من القواصم، ص: ١٣٤-١٣٥؛ أدب الخلفاء الراشدين، ص: ٤٩٧-٥٠٠؛ صادق عرجون، عثمان ابن عفان، ط٣، الدار السعودية للنشر والتوزيع، الرياض، ١٩٨٣، ص: ١٢٢-١٢٩.

(٢) تاريخ الرسل والملوك، ٣٦٩/٤-٣٧٠.

(٣) العقد الفريد، ٣٣٤/٤.

(٤) أنساب الأشراف، ط١، تحقيق: محمد باقر المحمودي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ١٩٧٤، ٢٧٨/٢.

(٥) المنقري، نصر بن مزاحم، (ت ٢١٢هـ)، وقعة صفين، ١م، ط١، تحقيق: عبد السلام هارون، دار احياء الكتب العربية، القاهرة، ١٣٦٥هـ، ص: ٥٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الخلفاء، في كل ذلك تُقاد كما يُقاد الجمل المخشوش... "[١]، "... فأما الصدّيق والفاروق فما زلت لهما مبغضاً عدواً ... "[٢].

جـ. عرض معاوية الخلافة للزبير بن العوام ولطلحة بن عبيد الله، على أن يتولاها أحدهما بعد الآخر وهذا الأمر لا تعززه أيّ رواية تاريخيّة، كذلك فإن " ولاية العهد لم تطرح قط في عهد الخلفاء الراشدين "[٣]، أرسل إلى طلحة: " فقد أحكمتُ لك الأمر قبلي والزبير فغير متقدم عليك بفضل، وأيكما قدم صاحبه فالمقدّم الامام، والأمر بعد للمقدّم له "[٤]، وأرسل إلى الزبير: " فشمر لتأليف الأمة، وابتغ إلى ربك سبيلاً، فقد أحكمت الأمر من قبلي لك ولصاحبك على أنّ الأمر للمقدّم، ثم لصاحبه من بعده "[٥].

٢- تظهر في الرسائل العصبية القبلية والمفاضلة بين هاشم وأميّة: "... منا المشكاة والزيتونة، ومنكم الشجرة الملعونة، ومنا هاشم بن عبد مناف، ومنكم أمية كلب الاحلاف، ومنّا شيبة الحمد عبد المطلب، ومنكم الكذاب المكذب، ومنا أسد الله ومنكم طريد رسول الله، ومنا الطيار في الجنة، ومنكم عدو الاسلام والسنة، ومنا سيّدة نساء العالمين بلا كذب، ومنكم ابن حمالة الحطب... "[٦]، "... ولكن ليس أميّة كهاشم، ولا حرب كعبد المطلب، ولا أبو سفيان كأبي طالب، ولا المهاجر كالطّليق، ولا الصّريح كاللصيق، ولا المُحق كالمُبطل، ولا المؤمن كالمدخل، ولبئس الخلف خلف يتبع سلفاً هوى في نار جهنم... "[٧]، وما أدرى علياً انهم في نار جهنم؟ وتظهر النصوص علياً بمظهر الذي تجاوز العديد من قواعد الشرع الإسلامي فهو يعرض ببني أميه الذين عارضوا الدعوة في بدايتها، وكأنه لم يعرف أنّ الإسلام يجبُ ما قبله، وأن الرسول عفا عن أبي سفيان وكرّمه، "... ففرق بيننا وبينكم أمس أنّا آمنّا وكفرتم، واليوم

---

(١) أنساب الأشراف، تحقيق: محمد باقر المحمودي، ٢٧٨/٢؛ وقعة صفين، ص ٨٧.

(٢) الفتوح، ٤٧٦/٢؛ ابن ابي الحديد، عز الدين عبد الحميد، (ت ٦٥٥هـ)، شرح نهج البلاغة، ١٦م، ط١، تحقيق: محمد أبو الفضل ابراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٥٩، ٤٧/٢، ٢٠١/٤، ١٩٠/٨.

(٣) تاريخ الترسل النثري، ص: ٣٨١.

(٤) شرح نهج البلاغة، ٧٧/١.

(٥) المصدر نفسه، ٧٧/١.

(٦) الفتوح، ٤٧٩/٢.

(٧) الشريف الرضّي، أبو الحسن محمد ابن الحسن الموسوي، (ت ٤٠٤هـ)، نهج البلاغة، ١م، ط٤، تحقيق: عبد العزيز سيد الأهل، دار الأندلس، بيروت، ١٩٧٨، ص: ٤٥٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أنّا استقمنا، وفتنتم وما أسلم مسلمكم إلا كرهاً، وبعد أن كان أنف الاسلام كله لرسول الله حزباً "[١].

٣- نسبت المصادر إلى علي ومعاوية وعدد من الصحابة الكثير من الكلام الذي ورد فيه إسفاف وشتائم لا يمكن صدورها عمّن تربّى في رحاب مدرسة الرسول. جاء في شرح نهج البلاغة أن معاوية كتب إلى عليّ يقول: " ولعمري أن ما مضى لك من السّابقات لشبيه أن يكون ممحوقاً لما اجترأت عليه من سفك الدماء، وخلاف أهل الحق، فاقرأ السورة التي يذكر فيها الفلق، وتعوّذ من نفسك فإنك الحاسد إذا حسد "[٢]. وزعم أن علياً قال بشأن معاوية وعمرو ابن العاص: "... وقد قرأت كتاب الفاجر ابن الفاجر معاوية، والفاجر ابن الكافر عمرو، المتحابين في عمل المعصية، والمتوافقين المرتشيين في الحكومة، المنكرين في الدّنيا... "[٣]، وقيل إن المسور بن مخرمة أرسل إلى معاوية يقول: "... وما أنت والخلافة يا معاوية وأنت طليق، وأبوك من الأحزاب... "[٤] ونسب إلى معاوية قوله لعلي: "... اقصر عن تقولك عن رسول الله، وافترائك من الكذب ما لم يقل، وغرور من معك والخداع لهم "[٥]، وقول علي لمعاوية: " يا ابن صخر، يا ابن اللعين... وأنت الجلف، المنافق، الأغلف القلب، القليل العقل، الجبان الرّذل... "[٦].

٤- الاختلاف الشديد في رواية الرسائل من جهة المضمون والطول والقصر، من ذلك كتاب علي ابن أبي طالب إلى محمد بن أبي بكر حين عهد إليه بولاية مصر، روى الطبري الرسالة عن أبي مخنف وكانت موجزة مركزة[٧]، والرسالة في النهج بلغت ثلاثة أضعاف رواية الطبري[٨]، وهي في شرح نهج البلاغة طويلة جداً[٩]، ومن ذلك الرسائل المتبادلة بين معاوية

---

(١) نهج البلاغة، ص: ٥٥٠، وانظر: الفتوح؛ ٤٣٦/٢.

(٢) الفتوح، ٤٣٣/٢؛ شرح المنهج، ٤١٢/٣.

(٣) تاريخ الرسل والملوك، ١٠٢/٥، ١١٧، ١٢٦؛ الامامة والسياسة، ص: ٥٥، ١٩٩، ١١٣.

(٤) الامامة والسياسة، ص: ٩٩؛ ومن ذلك الرسائل المتبادلة بين معاوية وقيس بن سعد، تاريخ الرسل والملوك، ٥٥١/٤.

(٥) شرح نهج البلاغة، طبعة دار الأندلس، ٥٠/٤.

(٦) المصدر نفسه، ١١٤هـ.

(٧) تاريخ الرسل والملوك، ٥٥٦/٤.

(٨) نهج البلاغة، ص: ٤٦٥-٤٦٧.

(٩) شرح نهج البلاغة، طبعة دار الأندلس، ٢٦/٢-٢٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ابن أبي سفيان ومحمد بن أبي بكر فهي موجزة عند الطبري، وفيها إسهاب وزيادات ولغة متكلفة عند المنقري[١]، وهذه الزيادات تغيّر من المضمون والمواقف، والأسلوب إلى درجة أن هذه الرسائل تبدو نصوصاً مختلفة أرسلها أشخاص مختلفون في حين أن المصادر تنسبها إلى شخصية واحدة.

٥- ورد في بعض الرسائل حديث عن بعض أمور وحوادث غيبيّة لا قدرة لبشر على معرفتها مثل تنبؤ علي بدعوة التحكيم كما أرسل إلى معاوية: " وكأني بك غداً وأنت تضج من الحرب ضجيج الجمال من الأثقال وستدعوني أنت وأصحابك إلى كتاب تعظمونه بألسنتكم وتجحدونه بقلوبكم "[٢]، ونبوءة معاوية بالمعتزلة حين قال لعلي في أحد كتبه إليه: " فقد استغويتم ويوشك أمرك أن ينكشف لهم فيعتزلوك ويعلموا أن ما جئت به باطل مضمحل... "[٣]، وفي رسالة علي إلى محمد بن أبي بكر حديث عما يحدث بعد موت الإنسان وعن الجنة وما فيها: "... واحذروا القبر وضمته، وضيقه وظلمته فإنه الذي يتكلم كل يوم يقول: أنا بيتُ التراب، وأنا بيتُ الغربة، وأنا بيتُ الدود،... وأن المسلم إذا مات قالت له الأرض: مرحباً واهلاً، قد كنت ممن أحب أن تمشي على ظهري، فإذا وليتك فستعلم كيف صنعي بك، فتتسع له مدّ بصره، وإذا دفن الكافر، قالت له الأرض: لا مرحباً ولا أهلاً قد كنت ممن أبغض أن تمشي على ظهري، فإذا وليتك فستعلم كيف صنعي بك، فتنضم عليه حتى تلتقي أضلاعه... "[٤]، والحديث عن الأمور الغيبيّة فيما نسب إلى علي لم يقتصر على رسائله بل ورد في عدد من خطبه، وانبرى بعض الباحثين للدفاع عن هذه النصوص وعدّوا ذلك نوعاً من الخوارق التي تظهر في بعض الأفراد، وأنها من علامات عبقرية علي بن أبي طالب[٥]، والمعروف أنّ علياً لم يعرف عنه هذه القدرة على التنبؤ في أيّ مرحلة من حياته، ولم تذكر ذلك كتب التراجم والرجال المتقدمة[٦].

---

(١) تاريخ الرسل والملوك، (١٠٢/٥)؛ وقعة صفين، ١١٨-١٢١.

(٢) شرح المنهج، طبعة دار الأندلس، ٥٠/٤.

(٣) المصدر نفسه، ٥/٤، الترسل النثري، ص: ٣٨٧-٣٨٨.

(٤) شرح النهج، طبعة دار الأندلس، ٢٧/٢.

(٥) محمد مهدي شمس الدين، دراسات في نهج البلاغة، ط٢، بيروت، ١٩٧٢، ص: ١٤٩-١٩٥؛ صبري ابراهيم السيد، نهج البلاغة، دار الثقافة، قطر، ١٩٨٦، ص: ٤٩-٥٠.

(٦) الطبقات الكبرى، ١٩/٣-٣٠؛ الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ١٩٧/٣-٢٢٥؛ ابن الجوزي، صفة الصفوة، ط١، تحقيق: ابراهيم رمضان وسعيد اللحام، ٢م، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٩، م١، ج١/١٦٢-١٧٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٦- تضمنت رسائل الفتنة بعض السمات الأسلوبية التي لا تعرف لعصر صدر الاسلام وأساليب أهله من القول، وتنحصر هذه الخصائص فيما يلي:

أ. ورد في بعض النصوص مصطلحات متأخرة في الظهور عن هذا العصر وفي وزودها " دليل على وضعها في زمن متأخر كانت فيه هذه المصطلحات شائعة الاستعمال بالمعنى الاصطلاحي الذي اشتهرت به "[١]، ومن ذلك مصطلح " الإمام ": "... إنّ أعظم الخيانة خيانة الأمة، وأفظع الغش غش الأئمة "[٢]، " التابع لسلطانه، المطيع لإمامه "[٣]، ومصطلح الفاضل الفضول: " وما أنت والفاضل والمفضول "[٤]، ومصطلح التقيّة: "... فقد جعلتما لي عليكما السّبيل بإظهاركما الطاعة، وإسراركما المعصية، ولعمري ما كنتما بأحق المهاجرين بالتقيّة والكتمان "[٥] ومصطلح الوصي: " واعلموا أنه لا سواء إمام الهدى، وإمام الرّدى، ووصيّ النبيّ وعدو النبي "[٦]، وهذه المصطلحات مرتبطة بمذهب التشيّع الذي تبلورت مصطلحاته ومبادئه بعد العصر الإسلامي، إذ تبلورت الكثير من مبادئه في العصر العباسي[٧].

ب. خالفت بعض رسائل الفتنة أسلوب العصر في الميل إلى الإيجاز والتوسط في الرسائل؛ فجاءت طويلة بشكل لا يتناسب والأحداث، وأفضى هذا التطويل والحشو إلى أن تتطرّق الرسائل إلى مواضيع بعيدة عن الحدث الرئيس وهو مقتل الخليفة عثمان، وأصبحت الرسائل مسرحاً للحديث عن سيرة الرسول وصراعه مع مَن عارضوا دعوته، وشتائم متبادلة بين الطرفين، وحديث عن أحقية كل منهما في الخلافة وفضائلهما[٨]، وكثير من موضوعات

---

(١) الترسل النثري، ص: ٣٧٢.

(٢) نهج البلاغة، ص: ٤٢٤٦؛ شرح نهج البلاغة، ١٤٥/٣.

(٣) المصدر نفسه، ص: ٤٩١.

(٤) المصدر نفسه، ٤٦٧.

(٥) المصدر نفسه، ٥٤١.

(٦) شرح نهج البلاغة، طبعة دار الأندلس، ٢٨/٢.

(٧) ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد، (ت ٤٥٦هـ)، الفصل في الملل والأهواء والنحل، ط٢، ٢م، دار المعرفة، بيروت، م٢، ج٤/٨٧-١٣٠؛ وانظر: عرفان عبد الحميد، دراسات في الفرق والعقائد الاسلامية، ط١، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٤، ص: ٤٣-٦٣.

(٨) الفتوح، ٤٧٧/٢-٤٨٠؛ الامامة والسياسة، ص: ١٥٤-١٥٩؛ نهج البلاغة، ٤٦٧-٤٧٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هذا النوع من الرسائل كانت موضع خلاف بين الفرق وكأن المتأخرين أسقطوا خلافاتهم في هذه القضايا وغيرها على رسائل الفتنة بين عليّ ومعاوية.

جـ. في رسائل الفتنة تكرار غير مسوّغ؛ فالحديث عن بني أميّة وموقفهم من الرسول والخلافة كان محوراً أساسياً في رسائل علي إلى معاوية، وأحقيّة عليّ وفضائل آل البيت كانت موضوعاً للرسائل غير مرة، وهذه الرسائل تُظهر علياً ومعاوية وكأن لا همّ لهما الا التباري في كتابة الرسائل والرّدود عليها، ضاربين عرض الحائط بالحدث الرئيس الذي قسّم الأمة شيعاً وأحزاباً.

د. وظاهرة أخرى شاعت في رسائل الفتنة هي ظاهرة الرسائل الشعرية، بالإضافة إلى توشيح الرسائل النثرية بالشعر. إن هذه الظاهرة لم تكن بدعاً في هذه الحقبة بل عرفت في العصر الجاهلي وزمن الخليفتين أبي بكر وعمر وكان استخدامها غير لافت للنظر وفي حدود الحاجة إليه[١]، إلا أن تذييل الرسائل بالشعر، واستخدام الرسائل الشعريّة يشكل ظاهرة في أثناء الفتنة، ويمكن تسجيل عدد من الملاحظات على هذه الاشعار:

١- تركزت في ثلاثة مصادر شيعية هي " وقعة صفين " لنصر بن مزاحم، و" الفتوح " لابن أعثم، و " شرح نهج البلاغة " لابن أبي الحديد، في حين أن استخدام الشعر في المصادر الأخرى كان قليلاً جداً كما هو الحال في تاريخ الرسل والملوك للطبري، ومما يُستغرب له أن معاوية ـ كما روي عند الطبري ـ تراسل مع عدد من رجالات ذلك العصر من أجل متابعته والانحياز إلى صفوفه، وفي هذه الرسائل لم يستخدم الشعر[٢]، في حين أن نصر بن مزاحم في " صفين "، ذكر أنّ معاوية أرسل إلى عبد الله بن عمر، وسعد بن أبي وقاص، ومحمد بن مسلمة ليسيروا معه، وقد ذيلت رسالتا معاوية إلى ابن عمر وإلى سعد بالشعر، وأجابه كل منهما شعراً ونثراً[٣]، وذكر أن ابن عمر ومسلمة لا ينظمان الشعر فيطلبان من شخص آخر ليرد

---

(١) غانم جواد رضا، الرسائل الفنية في العصر الاسلامي حتى العصر الأموي، مطبعة أسعد، بغداد، ص: ٣١-٣٣.

(٢) تاريخ الرسل والملوك، ٤/٥٥٠-٥٥٢، ٥/١٠١-١٠٥، من هؤلاء: قيس بن سعد، ومحمد بن أبي بكر، وعمرو بن العاص، ومحمد بن أبي بكر.

(٣) وقعة صفين، ص: ٧٩-٨٦؛ الفتوح، ٢/٤١٨-٤٢٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

على معاوية شعراً[١] وكأن الأمر سباق في الشعر في أحد أسواق العرب وليس متعلّقاً بمصير خلافة وأمة، وهذا يدلّ على الافتعال والوضع في هذه الرسائل.

٢- تظهر الشخصيات بمظهر الشعراء أو حفظة الأشعار، إلى درجة أنه نسب إلى أبي أيوب الأنصاري شعر ردّ به على معاوية[٢]، والمدقق في الأشعار يلاحظ التشابه فيها إلى حد الظن أن قائلها واحد.

٣- وكما هو الحال في الرسائل النثرية فإن الرسائل الشعرية تتضمن إساءة للصحابة، ومصطلحات متأخرة، وعصبيّة قبلية[٣].

٤- ويلاحظ في هذا الشأن أن معركة الجمل التي سبقت صفين كما رواها الطبري عن طريق سيف بن عمر والزهري تكاد تخلو خلواً تاماً من الرسائل الشعرية أو تضمين الشعر في الرسائل، إذ اقتصر استخدام الشعر على التمثل به في مواقف معينة[٤]، في حين أن رسائل صفين تزخر بالرسائل الشعرية وتضمين الشعر، ولعل السبب في ذلك يرجع إلى أن خلاف علي مع معاوية لم ينته، نهاية الجمل بل انقسمت الأمة بعد صفين ممّا أفضى إلى أن الرواة والمؤرخين أسقطوا الأحداث المتأخرة على ما تقدّم في صفين، وكانت كل تلك الرسائل والشعر المصطنع في أكثره، وكذلك فإنّ ظروف الأحداث والعصر تجعل من الصعب تقبل حقيقة إرسال كل هذه الرسائل النثرية والشعرية بين الشام والجزيرة العربية والعراق وكأنّ نظام البريد في ذلك الوقت بلغ درجة عالية من السّرعة والإنجاز وهذا لم يكن متاحاً.

٦- أشار بعض القدماء إلى الوضع والتزيدّ في نصوص الفتنة وأحداثها؛ فالجاحظ يرفض الاعتراف بوثيقة التحكيم بين عليّ ومعاوية، وقد بنى رأيه على جملة من المآخذ تضمنتها الوثيقة من جهتي السّند والمتن ومما قاله في ذلك: " وأنا أقول ـ حفظك الله ـ إنّ كتاب القضية كتاب مدخول، منه ما يشبه ألفاظهم ولحنهم، وطبع الفصاحة، وقريحة البلاغة ـ وللقوم كلام معروف وجوهر معلوم، متى تكلفّه المولّد لم يستطع تغليط الجهابذة فيه إذا طال شعره وامتدّت خطبته، وكذلك رسالته واحتجاجه، وقد يخفى ذلك في الشعر القصير والكلام القليل، وفي هذه

---

(١) وقعة صفين، ص: ٧٩-٨٦.

(٢) المصدر نفسه، ص: ٤١٨-٤١٩.

(٣) المصدر نفسه، ٥٣-٥٤، ٦٣-٦٤؛ الفتوح، ٤١١/٢.

(٤) تاريخ الرسل والملوك، ٤٤٣/٤، ٤٤٥، ٤٥٠، ٤٥٤، ٤٧١، ٤٧٥؛

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

القضية كلام ركيك ضعيف خفيف سخيف، وفيها ما يضارع العجمة ويناسب الصنعة، ومما يبهمه أيضاً اختلاف الخوارج والشيعة، وما بين أهل الشام وأهل العراق من الزوائد والنقصان فيه مع ضعف أسانيده وحال رواته عند رواة الآثار وحمّال الأخبار، وعند ناقلي الحلال والحرام، ولأنّ أبعد غاياتهم فيه الزهري، وأمتن ما يعتمدون عليه ابن اسحق، وهذان لم يدركاه ولا شاهداه، فكل من روى ذلك عنهما فليس بالمحمود ولا المثبت المنقول[١].

إنّ قول الجاحظ يحمل طريقته في التأكد من صحة النصوص وتقوم هذه الطريقة على التثبت من عداله الراوي، ومدى قربه من الحدث، والتنبه إلى لغة النص وهل تناسب أساليب من تنسب اليهم، ويرى الجاحظ أن من أراد تقليد أسلوب صدر الإسلام لا بدّ أن يقع أسير أسلوب عصره خاصة إذا طال النص سواء أشعراً كان أم نثراً، ومن وسائل الجاحظ الأخرى مقابلة روايات النص الواحد لتبين ما دخله من زيادة ونقصان، وقد تنبه الجاحظ إلى أثر الفِرق والانقسامات في رواية النصوص والأخبار.

وقد ذكر ابن عبد ربه رواية تبين ما أصاب أخبار الفتنة من وضع وكذب؛ إذ وجاء في خبر ابن عبد ربه أن مروان بن محمد اتهم عائشة بنت أبي بكر بقتل علي أو المساعدة في ذلك: "... هذا عملك! كتبت إلى الناس تأمرينهم بالخروج عليه، فقالت، والذي آمن به المؤمنون، وكفر به الكافرون ما كتبت إليهم بسواد في بياض، حتى جلستُ في مجلسي هذا "[٢] وقال ابن عبد ربه معلقاً على هذه الرواية: " فكانوا يرون أنه كُتب على لسان عليّ وعلى لسانها، كما كُتب أيضاً على لسان عثمان مع الأسود إلى عامل مصر، فكان اختلاق هذه الكتب كلها سبباً للفتنة "[٣].

كانت تلك جملة من المآخذ والملاحظات المتصلة برسائل الفتنة من جهة المضمون، وهي كافية لردّ رسائل الفتنة وعدم إخضاعها للتحليل والدراسة؛ ولعل ما يُعزز ذلك أنّ هذه الرسائل يعتورها الضعف في مصادرها وفي من حملها من رواة الأخبار والمؤرخين؛ فالمتتبع لرواة هذه النصوص وما يتصل بها من أخبار تاريخية يظهر له بشكل جليّ ميل هؤلاء الرواة للعلويين فهم متشيعون أو ذوو ميل للحزب العلوي[٤]؛ فأبو مخنف الذي اتكأ عليه الطبري والبلاذري في رواية

---

(١) الجاحظ، رسالة في الحكمين وتصويب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب في فعله، تحقيق: ش. بلات، الموسم، عدد ١٩، ١٩٩٤، ص: ٤٨-٤٩.

(٢) العقد الفريد، ٢٩٣/٤.

(٣) المصدر نفسه، ٢٩٣/٤.

(٤) المؤرخون العرب والفتنة الكبرى، ص: ٧٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عدد كبير من الرسائل أربت على الأربعين متشيع ومتّهم في روايته[١]، " وقد دافع بكل قوة عن سياسة علي وشخصيته ومكانته في المجتمع الإسلامي، وأدان مواقف عائشة وطلحة والزبير ومعاوية منه، كما انتقد بشكل حاد الأمويين وسياستهم، وأبرز مثالب سياسة عثمان بشكل مفصل، مؤكداً في الوقت نفسه أن مقتله كان نتيجة حتميّة لهذه السياسات... "[٢].

ومن مصادر الفتنة المهمة كتاب نصر بن مزاحم " وقعة صفين "، وقد تضمن هذا الكتاب رسائل وأخباراً غير مروية في المصادر الأخرى، ومع أنه سابق للطبري والبلاذري إلا انهما لم يرويا عنه، ولا سيّما ما يتصل بالرسائل المتبادلة بين علي ومعاوية، إذ اكتفى الطبري بالإشارة إلى هذه المكاتبات من غير روايتها؛ وكأنه بذلك يتبنى موقفاً سلبياً مما جاء فيها، ولا يتناسب ومقام صحابيين مثل علي ومعاوية[٣]. أما نصر بن مزاحم المنقري الكوفي فلم يحظ بثقة كتب الرجال؛ قال فيه ابن حجر العسقلاني: " رافضي، جلد، تركوه "[٤]، وقال العقيلي: " شيعي في حديثه اضطراب وخطأ كثير "[٥]، واتهمه أبو خيثمة بالكذب[٦]. وقال فيه إبراهيم بن يعقوب الجوزجاني: "كان زائغاً عن الحق مائلاً "[٧]، واتهم برواية أحاديث مناكير عن الضعفاء[٨].

---

(١) محمد جاسم حمادي المشهداني، موارد البلاذري عن الأسرة الأموية في أنساب الأشراف، مكتبة الطالب الجامعي، مكة المكرمة، ١٩٨٦، ١/٣٢٧-٣٢٩؛ علي كامل القرعان، أبو مخنف ودوره في نشأة الكتابة التاريخية، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، ١٩٩٤، ص: ١٦-١٩؛ المؤرخون العرب والفتنة الكبرى، ص: ١٩-٢٣.

(٢) المؤرخون العرب والفتنة الكبرى، ص: ٢٢.

(٣) تاريخ الرسل والملوك، ٥/١٤٠.

(٤) ابن حجر العسقلاني، (ت ٨٥٢هـ)، لسان الميزان، ٧م، ط١، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٦، ٦/٢٠٤-٢٠٥؛ الذهبي، أبو عبد الله، محمد بن أحمد بن عثمان، (ت ٧٤٨هـ)، المغني في الضعفاء، ٢م، تحقيق: نور الدين عتر، ٢/٦٩٦.

(٥) العقيلي، ابو جعفر محمد بن عمرو، (ت ٣٢٢هـ)، الضعفاء الكبير، ٤م، ط١، تحقيق: عبد المعطي أمين، قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت، ٤/٣٠٠؛ لسان الميزان، ٦/٢٠٤-٢٠٥.

(٦) لسان الميزان، ٦/٢٠٥.

(٧) الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي، (ت ٤٦٣هـ)، تاريخ بغداد، ١٢م، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٣/٢٨٣.

(٨) المصدر نفسه، ١٣/٢٨٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولنصر بن مزاحم عدد من المصنفات التي تُعنى بالأحداث ذات الاهتمام الشيعي مثل: كتاب الجمل، وكتاب صفين، وكتاب فضل حجر بن عدي، وكتاب فضل الحسين بن علي[١]، وكانت وفاته سنة ٢١٢هـ[٢].

وفي كتاب " صفين " كانت ميول نصر " عراقية وعلوية؛ فهو يورد الحديث ضد معاوية وحزبه، ويورد الأحاديث والأخبار وحتى القصص ليسند قضية الامام علي .... ويكثر من الشعر والحوار والخطب خلال رواياته فترى كل الشخصيات البارزة تقول الشعر إمن نظمها أو اقتباساً وتورده حتى في المراسلات، وكثير من هذا الشعر موضوع "[٣].

ولم يحظ جلّ رواة نصر الذين اعتمدهم في حمل أخبار صفين وما تضمنته من رسائل نثرية وشعرية بثقة كتب الرجال، ومن هؤلاء الرواة: الأصبغ بن نباتة الكوفي، وهو عند ابن معين " ليس بثقة "[٤]، وعند أبي بكر بن عياش " من الكذابين "[٥]، وقال ابن حبّان فيه " فتن بحبّ علي، فأتى الطامات فاستحق الترك "[٦]، وقال بن عدي: " عامة ما يرويه عن علي لا يتابعه أحدٌ عليه "[٧]، وقال ابن سعد: " كان شيعياً "[٨]، وقال الذهبي: " رافضيّ مسلّت تركوه "[٩].

ومن رواته سعد بن طريف الكوفي، قال ابن معين فيه: " ليس بشيء، ولا يحلّ لأحد أن يروي عنه "[١٠]، وقال ابن حجر العسقلاني: " كان فيه غلوٌ في التشيّع "[١١]، ورماه ابن حبّان بالوضع[١٢]،

---

(١) ارشاد الأريب إلى معرفة الأديب، ٢٧٥٠/٦؛ ابن النديم، محمد بن اسحق، (ت ٣٨٥هـ)، الفهرست، ١م، ط١، تحقيق: شاهر عباس عثمان، دار قطري بن الفجاءة، ١٩٨٥، ص ١٨٥.

(٢) إرشاد الأديب إلى معرفة الأديب، ٢٧٥٠/٦.

(٣) عبد العزيز الدوري، بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب، دار المشرق، بيروت، ١٩٨٣، ص: ٣٨.

(٤) ابن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب، ١٤م، دار الكتب العلمية، ٣٢٨/١.

(٥) المصدر نفسه، ٣٢٨/١.

(٦) المصدر نفسه، ٣٢٨/١.

(٧) المصدر نفسه، ٣٢٨/١.

(٨) الطبقات الكبرى، ٢٢٥/٦.

(٩) المغني في الضعفاء، ٦٩٦/٢.

(١٠) الضعفاء الكبير، ١٢/٢.

(١١) تهذيب التهذيب، ٤١٣/٣.

(١٢) ابن حجر العسقلاني، تقريب التهذيب، ٢م، ط١، تحقيق: صغير أحمد شاغف الباكستاني، دار العاصمة، السعودية، ١٤١٦هـ، ٢٢٢/١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويعد عمرو بن شمر، والحجاج بن أرطأة من رواة نصر المجروحين وغير الموثوق برواياتهم[١]، ويُضاف إلى رواته مجاهيل مثل: نمير بن وعلة، وعبد الله بن عمّار[٢].

ومع وجود عدد من الرواة الذين وصفتهم كتب الرجال بالثقات مثل: عامر الشعبي وعطية بن الحارث، ومحمد بن عبيد الله القرشي[٣]، إلا أن ذلك لا يُعتمد عليه في توثيق روايات نصر لأن الراوي يستطيع أن يركب سنداً متصلاً ويصل به إلى رجل يتصف بالثقة ولم يسمع منه ولا رآه[٤]، فصحة السند لا تستلزم صحة المتن[٥]، " فالمصدر والسند لا يكفيان لإثبات رواية ما ونسبتها إلى شخص بعينه، وخاصة إذا عرفنا أنّ هذا الشخص وقع بين عدة جبهات متنازعة بين مؤيدة ومعارضة ومحايدة "[٦].

وأخبار الفتنة كانت موضع عناية أحمد بن أعثم الكوفي (ت ٣١٤هـ)، في كتابه " الفتوح "، قال فيه ياقوت الحموي: " كان شيعياً وهو عند أصحاب الحديث ضعيف "[٧]، واتبع ابن أعثم في كتابه طريقة الإسناد الجمعي إذ انه ذكر مَن أخذ عنهم خبر الفتنة في بداية حديثه[٨]، وأتبع ذلك بقوله: " ... وغير هؤلاء ذكروا هذا الحديث سراً وعلانية، وقد جمعت ما سمعت من رواياتهم على اختلاف لغاتهم فألّفته حديثاً واحداً على نسق واحد... "[٩].

إن اتباع طريقة الاسناد الجمعي تُضعف من فرص الباحث في تتبع راوي كل خبر ليتبين مدى الثقة التي منحها إيّاه المحدثون في كتب الجرح والتعديل وإلى أي مدى يستفز الراوي الهوى والحزبية، أما ما قاله ابن أعثم فإنه يشي بأن روايات هؤلاء عن الفتنة إبتداء بتسلم عثمان مقاليد الخلافة فيها اختلاف وتضارب وأن ابن أعثم قام بتشذيب هذه الروايات بما تحمله من أخبار ورسائل

---

(١) الطبقات الكبرى، ٣٥٩/٦، ٣٨٠؛ الضعفاء الكبير، ٢٧٥/٣.

(٢) لسان الميزان، ٢٤/٦؛ المغني في الضعفاء، ٧٠١/٢؛ تقريب التهذيب، ٥٢٨/١.

(٣) الطبقات الكبرى، ٢٤٦/٦؛ تهذيب التهذيب، ٢٧٩/٩، تاريخ بغداد، ٢٢٧/١٢.

(٤) صبحي الصالح، علوم الحديث ومصطلحه، ط٣، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦٥، ص: ٢٦٣.

(٥) علوم الحديث ومصطلحه، ص: ١٥٤.

(٦) جاسر أبو صفية، الخطابة وتطورها في عصر الخلفاء الراشدين، رسالة ماجستير، الجامعة اللبنانية، بيروت، ١٩٧٧، ص: ٥٤.

(٧) إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، ٢٠٢/١؛ صلاح الدين بن أيبك الصفدي، (ت ٧٦٤هـ)، الوافي بالوفيات، ٢٢م، ط٣، تحقيق: س. ديدرينغ، دار صادر، بيروت، ١٩٩١، ٢٥٦/٦؛ السيد محسن الأمين، أعيان الشيعة، تحقيق: حسن الأمين، مطبعة الأنصاف، بيروت، ١٩٦٠، ٢٦٩/٧.

(٨) الفتوح، ١٤٧/٢-١٤٩.

(٩) المصدر نفسه، ١٤٩/٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وخطب، وهذه العملية في الإسقاط تابعة لوجهة نظر ابن اعثم الشيعي الكوفي، وهذا يضطر الباحث للحذر مما جاء في الفتوح، وخاصة ما يتصل بالفتنة.

والباحث في نصوص الفتنة لا بدّ له من أن يكون كتاب " نهج البلاغة " مصدراً رئيساً من مصادره، وقد كان هذا الكتاب موضع نقاش وخلاف عند القدماء والمحدثين، فقد انبرى الدكتور جاسر أبو صفيّة لدراسة كتاب " نهج البلاغة " مستعرضاً أقول القدماء والمحدثين فيه مدافعين ومهاجمين ومتحفظين[١] وخلص إلى أنه يحتم على الباحث تحرّي الروايات الصحيحة " متناً وسنداً بمساندة كتب السنة الموثقة وكتب الرجال ودراسة الواقع الإسلامي دراسة تتيح له أن يفهم الشخصيّات الاسلامية بفكرها وسلوكها "[٢]، ومَن يدرس الرسائل المتعلقة بالفتنة والتي رويت في النهج يصعب عليه أن يركن إليها لما فيها: " من التناقض، والأشياء الركيكة والعبارات التي مَن له معرفة بنَفس القرشيين وبنَفس غيرهم ممن بعدهم من المتأخرين جزم بأن الكتاب أكثره باطل "[٣].

والمصدر الأخير الذي احتوى رسائل الفتنة هو كتاب " شرح نهج البلاغة " لابن أبي الحديد، أما المؤلف فقد كان شيعياً مغالياً في تشيعه، وله شعر يظهر فيه هذا الغلوّ في التشيع لآل البيت، ومن ثم جمع بين التشيع[٤] والاعتزال، وفي شرحه للنهج اتكأ على نصر بن مزاحم في كتاب " صفين ".

ويتضح من كل ذلك أننا يصعب علينا الحصول على نصّ صريح ومقطوع بصحّته ولا تختلجه الشكوك ولا تتطرق إليه الاحتمالات، في الفتنة وكأن الأمر كما قال العلماء: " لقد عجز عن معرفة أمر عثمان مَن شهده فكيف بمن غاب عنه "[٥].

---

(١) الخطابة وتطورها في عصر الخلفاء الراشدين، ص: ٥١-٥٦.

(٢) المرجع نفسه، ص: ٥٤.

(٣) لسان الميزان، ٢٢٣/٤.

(٤) شرح نهج البلاغة، مقدمة المحقق، ١٣/١-١٨.

(٥) رسالة في الحكمين، ص: ٥٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الباب الثاني

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الأول

إدارة الولايـــــات

كان الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ يُشرف على إدارة شؤون الدولة الإسلامية الناشئة عندما كانت دولة صغيرة المساحة، وكان عدد سكانها قليلاً، ومواردها محدودة، لذلك فإنّ مظاهر العمل الإدارية في عهده ـ عليه السلام ـ لم تكن تتعدى إرسال بعض العمال إلى المدن والقبائل لتعليم الناس القرآن وأحكام الدين، وتقديم الفتاوى فيما يشكل عليهم من امور الدين والحياة، وجمع الصدقات والأموال المستحقة على مَن يعيش في كنف الدولة الإسلامية، كما اتخذ الرسول كُتاباً لكتابة الأموال والرسائل[١].

وقد استمر الحال قريباً من ذلك في عهد أبي بكر الصديق، وفي عهد عمر بن الخطاب اختلفت أحوال الدولة الاسلامية فاتسعت مساحتها، وكثرت أموالها، وزاد عدد سكانها، وتعددت الأجناس والدّيانات بسبب الفتوحات الإسلامية، مما استدعى بناء نظام إداريّ له مهامّ واسعة، ويقوم على أسس، وقواعد تكفل تنفيذ سياسة الدولة العامة، وتطبيق أحكام الشريعة الإسلامية، وتنظيم العلاقات بين أفراد المجتمع[٢]. وفي هذا الفصل نترسّم خطى النظام الاداري الاسلامي في عهد النبوة

---

(١) أنظر علي بن محمد بن سعود الخزاعي، (ت ٧٨٩هـ)، تخريج الدلالات السمعية على ما كان في عهد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية، ط١، تحقيق: احسان عباس، ١م، دار الغرب الاسلامي، ١٩٨٥، ص: ١٨١-١٩٤؛ المصباح المضيء، ص: ١٢١-١٤١.

(٢) ابراهيم أحمد العدوي، النظم الاسلامية: مقوماتها الفكرية ومؤسساتها التنفيذية في صدر الاسلام والعصر الأموي، مكتبة الانجلو المصرية، ص: ١٨٧-٢٠٩؛ أحمد بن داود المزجاجي، التنظيم الاداري في الاسلام، مفهومه وخصائصه، مجلة جامعة الملك سعود، مجلد ٣، السعودية، ١٩٩١، ص: ٣٥-٧٧؛ عبد العزيز الدوري، الجزيرة العربية في عصر الخلفاء الراشدين، الندوة العالمية الثالثة لدراسات تاريخ الجزيرة العربية، مجلد ٣، جامعة الملك سعود، ص: ١٨٥-٢١٤، ١٩٨٣؛ محمد عبد المنعم خميس، الادارة في صدر الاسلام، المجلس الأعلى للشئون الاسلامية، ص: ٨٢-٩٩؛ نجدة خماش، الإدارة ونظام الضرائب في الشام في عصر الراشدين، المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام (بلاد الشام في صدر الاسلام)، المجلد الثاني، ص: ٤١١-٤٥٥.
Forester, Martin, Aspects of the Administration and Military Organization of the Early Caliphate, in
الندوة العالمية الثالثة لدراسات تاريخ الجزيرة العربية، ٣م، ص: ٧٧-٨٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والخلافة الراشدة لنلقي ضوءاً على الأسس التي قامت عليها إدارة الولايات في الدولة، ونطّلع على بعض التطبيقات العملية لهذه الأسس الادارية كما تبدّت في الرسائل وعهود التولية.

كان القادة ممثلين بالرسول الكريم وخلفائه الراشدين على يقين من أنّ صلاح الرعية منوط بصلاح الرعاة لذلك انبروا يضعون للعمال والولاة قواعد إدارية يسيرون على نهجها في أثناء قيامهم بما أوكل إليهم من مهامّ إدارية متنوعة، وقد بين الرسول ـ عليه السلام ـ واجبات الوالي في عهده لعمرو بن حزم حين بعثه إلى اليمن فأمره "... بتقوى الله في أمره كلّه... "[١]، فخشية الله تصدّ الوالي عن تعدّي حدود الاسلام، وتضع نصب عينيه الحرص على السير وفق أحكام الشرع؛ وبعد ذلك بين الرسول لعمرو الواجبات التي أرسل إلى اليمن من أجلها، وتتلخص في تعليم المسلمين فرائض الإسلام، ونواهيه؛ فعليه أن يبين لهم أركان الصلاة والحج، وأن يعلّمهم القرآن: "... ويعلم الناس القرآن، ويفقههم فيه، وينهى الناس؛ فلا يمسّ القرآن إنسان إلا وهو طاهر، ويخبر الناس بالذي لهم والذي عليهم، ويلين للناس في الحق، ويشتدّ عليهم في الظلم؛ فإنّ الله كره الظلم ونهى عنه..."[٢]. وفي هذه الوصايا حرص من الرسول الكريم على أن يعرف المسلمون الحقوق التي لهم والواجبات المفروضة عليهم، وتيسر هذه المعرفة لهم سبل قيامهم بشؤون حياتهم اليومية وفق منهج سليم واضح في الحياة فلا يتخبطون ويقعون في تجاوز حدود الله، وهم في غفلة من أمرهم، وللوالي سبيلان في التعامل مع الناس: اللين وقت اتباعهم للحق، والشدة وقت قيامهم بالظلم، إذ لكل سبيل زمنه ليعرف الناس انهم مثابون إن أحسنوا، ومعاقبون إن أخطأوا، ومن مهام الوالي ردع الناس عما يثير الفرقة والنعرات القبليّة، التي تمزق الأمة، وتضعف قوتها، ومن دعا إلى القبليّة خارج من جماعة المؤمنين[٣]، قال الرسول في عهده لعمرو: "... ولتكن دعواهم إلى الله ـ عز وجلّ ـ وحده لا شريك له، فمن لم يدع إلى الله، ودعا إلى القبائل والعشائر فليقطفوا بالسيف، حتى تكون دعواهم إلى الله وحده لا شريك له... "[٤]، وأكّد هذا المعنى عمر بن الخطاب في رسالة بعثها إلى أبي موسى الأشعري جاء فيها: "... وإذا كانت بين القبائل نائرة[٥] فنادوا: يا لفلان، فإنما تلك نجوى من

---

(١) السيرة النبوية، ٧٩/٤؛ اعلام السائلين، ص: ١٣٩.

(٢) المصدر نفسه، ٧٩/٤.

(٣) عبد الله غوشة، الدولة الاسلامية دولة انسانية، ١٩٧١، ص: ٣٠-٣١.

(٤) السيرة النبوية، ٧٩/٤؛ إعلام السائلين، ص: ١٣٩.

(٥) النائرة: هائجة وشرّ، اللسان، مادة، نار.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الشيطان، فاضربهم بالسيف حتى يفيئوا إلى أمر الله عزّ وجلّ وتكون دعواتهم إلى الله والإسلام... "[١].

وحدّد عمر بن الخطاب في رسالته إلى أهل البصرة واجبات الوالي التي يجب عليه القيام بها حين يصبح والياً وهي: نصرة صاحب الحق، وقتال العدو، والدفاع عن الرعية، وجباية الضرائب، ومحاربة الفساق والمعتدين في الطرقات، وإقامة الحدود: "... فإني بعثت أبا موسى أميراً عليكم ليأخذ لضعيفكم من قويكم، وليقاتل بكم عدوكم، وليدفع عن ذمتكم، وليُحصي لكم فيئكم ثم ليقسمه بينكم، ولينقّي لكم طرقكم "[٢]. إن هذا الكتاب مرسل إلى الرعية ليكونوا على اطّلاع بالمهام التي على الوالي القيام بها، الأمر الذي يتيح لهم فرصة مراقبته في حال تقصيره في القيام باحدى الواجبات على أتمّ وجه، وفي هذا حرص على توعية الناس بحقوقهم وواجباتهم، وبواجبات الوالي نحوهم حتى لا يُستغفلوا، أو يؤخذوا على حين غرّة، وأكّد هذا عمر حين قال: " إني والله ما أرسل إليكم عمالاً ليضربوا أبشاركم ولا ليأخذوا أموالكم، ولكني أرسلهم إليكم ليعلموكم دينكم وسنتكم، فمن فُعِل به شيء سوى ذلك فليرفعه إليّ "[٣].

وحرص الخلفاء على هيبة الوالي فأوصى أبو بكر الصديق عامله على عمان عكرمة بن أبي جهل بالتروّي قبل إصدار حكم بشأن أحد الرعية لأنّ الوالي إذا قال كلمته أو أصدر حكماً لا يتناسب مع الذنب المرتكب فهو أمام أمرين كلاهما مرّ: فإذا نفّذ العقوبة فإنه يتجاوز الحدود الشرعية، وإذا لم ينفذها فهو كاذب، لذلك عليه ألا يصدر حكماً إلا بعد دراسة للقضية المعروضة أمامه: " إياك أن توعد في معصية بأكثر من عقوبتها، فإنك إن فعلت أثمت، وإن تركت كذبت "[٤].

وحذّر عمر بن الخطاب أمراء الأجناد من جملة من التصرفات التي تسيء للرعية؛ فالضرب من نتائجه تعزيز الشعور بالذّل والإهانة، والحرمان يؤدي إلى الكفر، والابتعاد عن الأهل في الثغور مدة طويلة يشجع على الفتنة، والسير بهم في الغياض الموحشة يعرّضهم للضياع والهلاك: "... لا تضربوا المسلمين فتذلّوهم، ولا تحرموهم فتكفروهم، ولا تجمرّوهم فتفتنوهم، ولا تنزلوهم الغياض فتضيّعوهم... "[٥]، وفي كل ذلك حرص على السلامة النفسية والبدنية للإنسان المسلم.

---

(١) العقد الفريد، ٨٨/١؛ البيان والتبيين، ١٥٥/٢.

(٢) تاريخ الرسل والملوك، ٧١/٤.

(٣) المصدر نفسه، ٢٠٤/٢.

(٤) أسامة بن منقذ، (ت ٥٨٤هـ)، لباب الآداب، ط١، تحقيق: أحمد محمد شاكر، ١م، دار الجيل، بيروت، ١٩٩١، ص: ٣٣٦.

(٥) أنساب الأشراف، تحقيق: سهيل زكار، ٣١٩/١٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وربط هؤلاء الخلفاء بين رضا الله، وحسن سياسة الرعية؛ فجعل عمر بن الخطاب الحرص على مصلحة الناس عملاً يتقرب به الوالي إلى الله؛ فأكثر الرعاة نيلاً لرضا الله هو الذي تسعد به الرعية، ومَن أشقى الناس بظلمه لهم فهو الشقيّ عند ربه؛ روى سعيد بن أبي بردة أن عمر كتب إلى أبي موسى: " أما بعد، فإنّ أسعد الرعاة عند الله مَن سعدت به رعيته، وإنّ أشقى الرعاة مَن شقيت به رعيته... "(١)، ويدل الحث على نيل رضا الرعية باعتباره الطريق الموصل إلى رضا الله على تركيز الادارة الاسلامية على الحوافز المعنوية غير الماديّة التي تستهدف مرضاة الله، والمسارعة إلى فعل الخيرات، واجتناب السيئات، لذلك كانت منزلة الوالي عند الله مرتبطة بمنزلته عند مَن يقوم على أمرهم، وإذا أحبّ الله الوالي فإنه يغرس محبته في نفوس الناس؛ بعث عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقاص يقول: "... إن الله إذا أحبّ عبداً حببه إلى خلقه، فاعتبر منزلتك من الله بمنزلتك من الناس "(٢)، وحين يكون الحافز الديني وراء الاخلاص الإداري، ويكون من أقوى الدوافع الكامنة العميقة التي تؤدي إلى الاندفاع في العمل وإتقانه، فإنه يتفوق على أيّ مؤثر آخر مثل الأجر، أو رضى الناس (٣).

وينبغي على القائد أن يتحلّى بالانسجام النفسي بين سلوكه الظاهر وما يخفيه في نفسه، وافتقاره إلى مثل هذا الانسجام يفضي إلى صراع داخل نفسه، ويكون طرفا هذا الصراع المصلحة العامة التي هي الأساس في تقليده، والمصلحة الشخصية التي تدفعه إليها الأنانية، والأثرة، وهذا بدوره يؤدي إلى الإساءة إلى العمل وإلى مصالح الناس؛ روى عامر الشعبي أن عمر أرسل إلى أبي موسى يقول: " مَن خلصت نيته كفاه الله ما بينه وبين الناس، ومَن تزيّن للناس بغير ما يعلمه من قلبه شانه الله، فما ظنك بثواب عند الله في عاجل رزقه، وخزائن رحمته "(٤). وفي قول عمر ـ رضي الله عنه ـ ربط بين الابتعاد عن النفاق، وثواب الله ورحمته، وفي ذلك حافز كبير لمن يتولّى شؤون

---

(١) أبو يوسف، الخراج، ص: ٩٠؛ ابن الجوزي، سيرة عمر بن الخطاب، ام، ص: ٩١؛ أبو حامد الغزالي، محمد بن محمد، (ت ٥٠٥هـ)، التبر المسبوك في نصيحة الملوك، ط١، تحقيق: سامي خضر، مكتبة الكليات الأزهرية، ١٩٨٧، ص: ٢٦؛ الرجبي، عبد العزيز بن محمد البغدادي، (ت١١٨٤هـ)، فقه الملوك ومفتاح الرتاج المرصد على خزانة كتاب الخراج، تحقيق: أحمد عبيد الكبيسي، رئاسة ديوان الأوقاف، بغداد، ١٩٧٣، ص: ١٢٤.

(٢) البيان والتبيين/١/٢٦١.

(٣) فرناس عبد الباسط البنا، التنظيم الإداري في الدولة الاسلامية منهجاً وتطبيقاً، وقائع ندوة النظم الاسلامية، المجلد الأول، أبو ظبي، مكتب التربية العربي لدول الخليج، ١٩٨٤، ص: ١٧٩.

(٤) سيرة عمر بن الخطاب، ص: ٩١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الناس، يُضاف إلى الحافز والدافع الماديّ وهذه الحوافز تحرك الطاقات الكامنة للعمّال ليتحصل منها ما يكتنزونه في أجسامهم من قوى ماديّة، وفي عقولهم من قوى فكرية، وفي نفوسهم من قيم روحيّة[١]، ويتجسد اهتمام الإسلام بالعمل وتقدير أهميته حينما يربط بينه وبين أكبر حافز يسعى اليه المسلم، وهو نيل رضى الله، ومغفرته، ودخول جنته، لذلك على الولاة الابتعاد عن الظلم والغدر ليكون الله ناصراً لهم وعوناً: " اعزب الناس عن الظلم، واتقوا واحذروا أن يُدال عليكم لغدر يكون منكم، أو بغي، فإنكم إنما أدركتم بالله ما أدركتم على عهد عاهدكم عليه، وقد تقدم اليكم فيما أخذ عليكم، فأوفوا بعهد الله، وقوموا على أمره يكن لكم عوناً وناصراً "[٢]، ووصيّة عمر بن الخطاب تظهر نوعاً آخر من الحوافز وهو الحافز السلبي[٣]؛ فالعمل الطيب يعود على صاحبه، وكذلك العمل السيء، انطلاقاً من قول الله تعالى: " فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره"[٤]، وكل ذلك يؤدّي دوراً رئيساً في تنشيط الهمم، والحث على العمل الصالح المنتج، فلا تذهب قدرات الناس هباءً بل تستغل كل ذرة منها لخدمة الصالح العام.

ومن مبادئ الإدارة في الإسلام أن يحرص القادة " الحرص كله على المصلحة العامة، يفضلونها على مصالحهم الشخصية، فلا يأتي شخص أمراً يكون فيه إضرار بالمسلمين، فجهده موجّه لما فيه مصلحتهم وصلاح أمرهم "[٥]، لذلك حذر عمر ولاته من أن يتغلغل الكِبر والصّلف إلى نفوسهم بتقلدهم لمنصب الولاية الذي يمنحهم مظاهر الاحترام والهيبة، فتُسمع كلمتهم وتنفذ أوامرهم، ويرى عمر بن الخطاب في الولاية نعمة لصاحبها إذا لم تستغل في ظلم الآخرين؛ فقد كتب إلى عتبة ابن غزوان عامله على البصرة يقول: " أما بعد، فقد أصبحت أميراً تقول فيسمع لك، وتأمر فيُنفذ أمرك، فيا لها من نعمة، إن لم ترفعك فوق قدرك، وتُطغِك على مَن دونك، فاحترس من النعمة أشدّ

---

(١) الإدارة في صدر الاسلام، ص: ١٢٨-١٣٠.

(٢) تاريخ الرسل والملوك، ٤/٢١٢.

(٣) الإدارة في الاسلام، ص: ١٠٦-١٠٧؛ محمد حامد حسنين، نظام الحوافز في الاسلام، المجلة العربية للإدارة، ع٤، ١٩٨٢، ص: ٧٤-٧٩؛ انظر: أحمد رجب الأسمر، فلسفة التربية في الاسلام انتماء وارتقاء، ط١، دار الفرقان للنشر والتوزيع، عمان، ١٩٩٧، ص: ٤٥٣-٤٦٩.

(٤) سورة الزلزلة، آية ٧، ٨.

(٥) الإدارة في صدر الإسلام، ص: ١١٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من احتراسك من المعصية، وإياك أن تسقط سقطة لا شوى[١] لها، وتعثر عثرة لا لعا[٢] لها "[٣]، والقناعة من أهمّ الخصال التي تبعد الوالي عن استغلال منصبه لصالحه الشخصي؛ فالأرزاق مقدرة، ومن يُعطَ الكثير فإنّ هذا العطاء ابتلاء من الله له ليرى هل يتعامل مع الرزق حسب ما أنزل الله أم لا: "... واقنع برزقك من الدنيا فإنّ الرحمن فضل بعض عباده على بعض، بلاء يبتلي به كلاً: فيبتلي من بسط له، كيف شكر الله، وأداؤه الحق الذي افترض عليه فيما رزقه وخوّله... "[٤].

والقائمون على شؤون الرعية قدوة لغيرهم، فإذا عدلوا عن الحق فإنّ الرعية تركب طريقتهم وقد قيل: " لا يحسن بالملك أن يبدأ بالمعروف الا بدأ بفعله ولا ينهى عن منكر إلا بدأ بتركه "[٥]، وقال عمر بن الخطاب في رسالة بعثها إلى أبي موسى الأشعري: "... إياك أن تزيغ فتزيغ عمالك، فيكون مثلك عند الله مثل البهيمة نظرت إلى خضرة من الأرض فرتعت فيها تبتغي بذلك السّمن، وانّما حتفها في سمنها "[٦].

ولما كان القادة أسوة كان عليهم الابتعاد عن مواطن الشبهات حتى لا يُساء الظن بهم؛ فهم مرصودون في حركاتهم وسكناتهم: "... من تعرّض للتهمة فلا يلومَنّ من أساء به الظن "[٧]، وكتب عمر إلى أبي موسى: " إيّاك ودناءة الأمور، ومداني الأخلاق "[٨]، وقد عزل عمر بن الخطاب واليه على ميسان[٩] النعمان بن عدي حين بلغه أنه يقول شعراً فيه ذكر للخمر، وحضور مجالس الغناء والشرب، ومع أنّ ما قاله النعمان لا يعدو أن يكون شعراً ولم يفعله حقيقة إلا أنّ عمر أصرّ بشدة

---

(١) لا شوى لها: لا برء منها، اللسان: مادة: شوا.

(٢) لا لعا لها: لا إقامة بعدها، اللسان، مادة: لعا.

(٣) العقد الفريد، ٣٠/١.

(٤) تفسير ابن كثير، ٥٧٧/٢.

(٥) الماوردي، تسهيل النظر وتعجيل الظفر في أخلاق الملك وسياسة المُلك، ط١، تحقيق: محيي الدين هلال السرحان، ١م، دار النهضة العربية، ١٩٨١، ص: ١٣٥.

(٦) أبو يوسف الخراج، ص: ٩٠؛ أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني، (ت ٤٣٠هـ)، مالية الأولياء وطبقات الأصفياء، ط١، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، ١٢م، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧، ٨٦/١.

(٧) الزبير بن بكار، (ت ٢٦٥هـ)، الأخبار الموفقيّات، ١م، تحقيق: سامي مكي العاني، دار الرشيد، بغداد، ١٩٧٢، ص: ١٠٧.

(٨) وكيع، محمد بن خلف بن حيان، (ت ٣٠٦هـ)، أخبار القضاة، عالم الكتب، ٢٨٣/٢.

(٩) ميسان: اسم كورة واسعة كثيرة القرى والنخل بين البصرة وواسط، معجم البلدان، ٤٤٢/٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

على عزله عن منصب الولاية لأنّ الوالي محاسب على كل ما يصدر عنه من قول أو فعل لذلك عليه أن يعزف نفسه عما يسيء إليها تنزّهاً، ومن الشعر الذي أنشده النعمان[١]:

ألاهل أتى الحسناءَ أنّ حليلهـــا بميسان يُسقى من زجاج وحنتمِ[٢]

إذا كنتَ ندماني فبالأكبر اسقني ولا تسقني بالأصغر المتثلّـــمِ

إذا شئتُ غنتني دهاقينُ قريـــةٍ وصنّاجةٌ تجذو على كلّ مَنسِمِ[٣]

والناس في ظل النظام الاسلامي سواسية، ويجب على الوالي معاملتهم وفق هـذا الأمر؛ روى عبيد الله بن أبي حميد أنّ عمر بن الخطاب أرسل إلى أبي موسى يقول: " سوّ بين الناس في مجلسك، وجاهك، حتى لا ييأس ضعيف من عدلك، ولا يطمع شريف في حيفك "[٤]، فلا فرق بين الناس على أساس الجنس أو اللون أو القرابة، أو الوضع الاجتماعي[٥]، وفقدان العدالة " يوغر الصدور، وينشيء النفور، لما جبلت عليه القلوب من بغض مَن استبدّ واستأثر "[٦]، ويرى عمر أنّ في الناس فروقاً لا بدّ أن تراعى لذلك كتب إلى أبي موسى: " بلغني أنّك تأذن للناس جمّاً غفيراً، فإذا جاءك كتابي هذا فأذن لأهل الشرف، وأهل القرآن والتقوى والدين، فإذا أخذوا مجالسهم فأذن للعامّة"[٧]. وروى أبو عمران الجوني كتاباً آخر أرسله عمر لأبي موسى: " إنّه لم يزل للناس وجوه يرفعون حوائجهم، فأكرم مَن قبلك من وجوه الناس "[٨]، وهذا لا يتعارض وحث عمر على العدالة، وأخذ كل ذي حق حقه.

وعلى الولاة الترفع عن كل ما يؤثر في عدالتهم لذلك أوصاهم عمر برفض الهدايا التي تقدم إليهم وهم في موقع المسؤولية، وعدّت الهدية رشوة تقدم لتغيير حكم، أو لأخذ المرء حقّ غيره؛ لأنّ النفس الإنسانية تضعف أمام صاحب الهدية، وعدم قبولها يُتيح للولاة اتخاذ القرارات بصورة تتسم بالحياد والموضوعيّة بمنأىً عن أية مؤثرات عاطفيّة أو شخصيّة؛ كتب عمر إلى عمّاله: " إنّ الهدايا

---

(١) فتوح البلدان، ص: ٥٤٣؛ محمد بن حبيب البغدادي، (ت ٢٤٥هـ)، المنمق في أخبار قريس، ط١، تحقيق: خورشيد أحمد فارق، ١م، مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد، ص: ٤٩٧-٤٩٨.

(٢) الحنتم: جرار خضر تضرب إلى الحمرة، اللسان، مادة: حنتم.

(٣) المنسم: المذهب والوجه، اللسان، مادة: نسم.

(٤) أبو يوسف، الخراج، ص: ٢٦٤.

(٥) محمد بلتاجي، منهج عمر بن الخطاب في التشريع، دار الفكر العربي، ص: ٤١٨.

(٦) تسهيل النظر، ص: ١٤٠.

(٧) أخبار القضاة، ٢٧٦/١؛ سيرة عمر بن الخطاب، ص: ٩١.

(٨) تاريخ الرسل والملوك، ٢٠٣/٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هي الرُشى، فلا تقبلنّ من أحد هدية "[١]، وقول عمر نابع من قول الرسول عليه الصلاة والسلام: " ما بال الرجل نستعمله على العمل بما ولاّنا الله فيقول هذا لكم، وهذا أُهدي إليّ، فهلاّ جلس في بيت أبيه أو بيت أمّه فينظر أيهدى إليه أم لا "[٢].

ومن مظاهر العناية بشؤون الناس، وإنجاز مصالحهم السرعة في تحقيق ذلك بلا تقاعس، " فالتأجيل يؤدي إلى الإهمال وبالتالي إلى الإضرار بمصالح الرعية والدولة معاً "[٣]، وفي ذلك كتب عمر بن الخطاب إلى عماله: "... إنّ القوة على العمل ألاّ تؤخروا عمل اليوم لغد، فإنكم إن فعلتم ذلك تداكّت عليكم الأعمال، فلا تدرون بأيّها تبتدون، وأيها تأخذون "[٤]، ويرى عمر بنظرته الثاقبة في الادارة أنّ تراكم الأشغال يربك القائم على العمل، فيتخبط بإنجازها من غير إعمال للرأي والتدبير والإتقان، " ودعوته الكتّاب إلى العمل في وقته دعوة إلى تنشيط الهمم، وإبراز لقيمة العامل الزمني من نحو، والعامل النفسي من نحو آخر في بلوغ غاية الفوز والنجاح في العمل "[٥]، وبلغ من حرص عمر على ضرورة الإسراع بالنهوض بالعمل أنه حظر على ولاته ممارسة أيّ عمل آخر غير العمل الرسمي المنوط بهم[٦]؛ حتى لا يكون عملهم الخاص على حساب المهام الخاصة بالدولة، وحتى لا يستغلوا سلطتهم في الدولة لأجل الأعمال الأخرى.

والتنظيم الإداري في الإسلام لا يُقر وجود حواجز ماديّة أو معنوية، أو قنوات رسمية جامدة للاتصالات تحدّ من علاقة الرعاة بالرعية الذين ينبغي أن يكونوا على اتصال بالوالي في كل وقت؛ وقد حض عمر ولاته على ذلك في كتابه إلى أحد الولاة: ".. وافتح لهم بابك، فإنما أنت رجل منهم، غير أن الله قد جعلك أثقلهم حملاً "[٧]؛ وقد روى ابن خزيمة بن ثابت الأنصاري قال: " كان عمر إذا

---

(١) أخبار القضاة، ٥٦/٢؛ تاريخ مدينة دمشق، تحقيق: سكينة الشهابي، ترجمة: عمر بن الخطاب، ص: ٢٧٣؛ سيرة عمر بن الخطاب، ص: ٩٢.

(٢) صحيح البخاري، ٣٦/٩؛ صحيح مسلم، ٤٩٧/٤؛ ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد، (ت ٧٢٨هـ)، السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٧٩، ص: ٤٠.

(٣) محمد عبد القادر خريسات، عمر بن الخطاب والولاة، المؤرخ العربي، ع٢٥، ١٩٨٤، ص: ١٦٤.

(٤) الجهشياري، أبو عبد الله محمد بن عبدوس، (ت ٣٣١هـ)، الوزراء والكتاب، تحقيق: مصطفى السقا وزملائه، مصطفى البابي الحلبي، ١٩٣٨، ص: ١١٦؛ سيرة عمر بن الخطاب، ص: ٩١، وانظر: أبو عبيد القاسم بن سلاّم، (ت ٢٢٤هـ)؛ الخطب والمواعظ، ط١، تحقيق: رمضان عبد التواب، ١م، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٩٨٦، ص: ٢٠٤.

(٥) تاريخ الترسل النثري، ص: ٣٢٢.

(٦) العقد الفريد، ٣٥/١-٣٦.

(٧) المصدر نفسه، ٨٨/١، ٨٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

استعمل عاملاً كتب له عهداً، وأشهد عليه رهطاً من المهاجرين والأنصار، واشترط عليه ألا يركب برذوناً، ولا يأكل نقياً، ولا يلبس رقيقاً، ولا يتّخذ حاجباً دون حاجات الناس "[١]، وهذا يدل على أنّ مَن تفوض إليه أعباء الدولة يتجشم أمراً كؤوداً، لا يضطلع به الا انسان قويّ عليه، ضليع به، يملك من القدرات ومن ضبط النفس ما يؤهله لتكفّل عبء ثقيل لا ينوء به.

ومع حرص الخلفاء على اختيار الولاة الذين يتصفون بسداد الرأي، والقدرة على اتخاذ القرار إلا أنّ الحضّ على الشورى كان من أهم ما يؤكده الخلفاء في وصاياهم الاداريّة وتعليماتهم، إذ كانوا يوصون بألا يبرموا قراراً فيما استبهم عليهم بهاجس رأيهم وبداهة فكرهم، والشورى صفة من صفات المؤمنين قال تعالى: "... والذين استجابوا لربّهم، وأقاموا الصلاة، وأمرهم شورى بينهم "[٢]، ومن وصايا الشورى للعمال والأمراء الذين يبعثون على المدن والمهمات المتنوعة كتاب أبي بكر الصديق إلى عمرو بن العاص، ويقول فيه: " اني كتبت إلى خالد بن الوليد ليسير إليك مدداً لك، فإن قدم عليك فأحسن مصاحبته، ولا تطاول عليه، ولا تقطع الأمور دونه، لتقديمي اياك عليه، وعلى غيره، شاورهم ولا تخالفهم "[٣]، وقد روى عبد الله بن عمر أن أبا بكر أرسل إلى عمرو بن العاص يقول: " إن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ شاورنا في الحرب، وعليك به "[٤]، وأصبحت الشورى في عهد عمر بن الخطاب أوسع نطاقاً وأكثر أهمية لأن اتساع الفتوحات أدى إلى مزيد من الأوضاع الجديدة، والمشكلات التي تقتضي مزيداً من الرأي والمشاورة[٥]، لذلك كان دائم الحث لعماله، وقادة الجيش والقضاة على اتباع الشورى؛ أرسل إلى النعمان بن مقرّن بشأن بعض من أرسلهم عمر إليه مدداً: " استعن بهم، واشرب برأيهم "[٦]، وكان هؤلاء من المطّلعين على بواطن الأمور، ويملكون النظر الثاقب والعقل الراجح، وعدم التفرد بالرأي، والحرص على مشاورة الآخرين يحقق جملة من الإيجابيات منها:

---

(١) تاريخ الرسل والملوك، ٤/٢٠٧-٢٠٨.

(٢) سورة الشورى، أية ٣٨.

(٣) كنز العمال، ١/٦٢١.

(٤) المصدر نفسه، ١/٧٨٩.

(٥) محمد سعيد رمضان البوطي، الشورى في عهد الخلفاء الراشدين، الشورى في الاسلام، ج١، المجمع الملكي لبحوث الحضارة الاسلامية (مؤسسة آل البيت)، ١٩٨٩، ص: ١٣١؛ وانظر: عدنان علي رضا النحوي، ملامح الشورى في الدعوة الاسلامية، ط٢، ١٩٨٤، ص: ٢٩٧-٣٦٢.

(٦) تاريخ الرسل والملوك، ٤/١٢٧؛ أنساب الأشراف، تحقيق: سهيل زكار، ١٠/٣٩٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أولاً: الوصول إلى الرأي الصائب عن طريق إفساح المجال لتبادل الآراء، والإدلاء بوجهات النظر المختلفة، ويقوم القائد بعد ذلك بالتنسيق بين هذه الآراء، واختيار أصلحها، وأنفعها للناس، وهذا يؤدي إلى الثقة في القرارات ذاتها، فهي لم تصدر عفوية أو عشوائية يتحكم فيها فئة محدودة من الناس وإنما صدرت عن مجموعة كبيرة من أهل الرأي والفكر والاختصاص[١].

ثانياً: تأليف القلوب عن طريق جمع أصحاب الخبرة لتبادل الرأي والمشورة، فيشيع بينهم جوّ من العلاقات الإنسانية الطيبة.

ثالثاً: تعميق مفهوم الصالح العام عن طريق ترجيح المشورة التي تخدم أكبر قطاع من الأفراد[٢] الذين تشيع في نفوسهم الثقة بالجهة التي اتخذت القرار دون استبداد.

ومتى عزم صاحب الأمر على الشورى لا بدّ له أن يرتاد لها من تجتمع فيه عدّة خصال منها: أن يكون ذا عقل كامل مع تجربة سالفة فإنه بكثرة التجارب تصح الرويّة، وأن يكون ذا دين وتقى، وناصحاً ودوداً؛ فإنّ النصح والمودة يصدقان الفكرة، ويمحضان الرأي، وأن يكون سليم الفكر من الهمّ؛ لأن مَن عارضت فكره شوائب الهموم لا يسلم له رأي، ولا يستقيم له خاطر، وأن لا يكون له في الأمر المستشار غرض يتابعه، ولا هوى يساعده؛ لأنّ هذه الأغراض جاذبة، والهوى صادٌّ، والرأي إذا عارضه الهوى وجاذبته الأغراض فسد[٣].

وأمر الله في الناس لا يقدر على القيام به على الوجه السليم الا مَن امتلك عدداً من الخصال وهي: الحكمة، والعقل الراجح الذي يتيقن به الصواب من الخطأ، ويمنع الانسان من الإقدام على ما قبُح من الأفعال، ولا بدّ له من النظر الثاقب في الأمور الإدارية، وبُعد النظر، وهذه الخصال تدفعه إلى التفكير بأهمية الفعل، أو القرار الذي يصدر عنه، وفي هذا التمحيص والتدقيق العميق بالنتائج المترتبة على ما يصدر منه دليل على حصافة القائد، وسلامة ما يبتُّ فيه[٤]، والخصلة الأخرى ألا يطّلع الناس على أيّ سلوك سلبي يصدر منه فهو رمز وقدوة، والحق عنده مقدّم على كل اعتبار دون خوف من أيّ لوم أو محاسبة فلا يخاف في الله لومة لائم؛ روى عروة بن رويم اللخمي أن عمر بن

---

(١) فلسفة التربية في الاسلام، ص: ٢٧٢.

(٢) السيد عبد القادر زيدان، في سيكولوجية الإدارة الإسلامية، دراسات، مجلة كلية التربية، جامعة الرياض، ع١، ١٩٧٧، ص: ٩٩-١٠٨.

(٣) الماوردي، أدب الدين والدنيا، ط١، تحقيق: محمد كريم راجح، ١م، دار إقرأ، بيروت، ١٩٨١، ص: ٣٠٩-٣١١.

(٤) محمد تيسير التميمي، موضوعات في فن القيادة، ط١، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٩٢، ص: ٧٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الخطاب كتب إلى أبي عبيدة يقول: " أما بعد، فإنّه لم يُقم أمر الله في الناس إلا حصيف العقدة، بعيد الغرّة، لا يطلع الناس منه على عورة، ولا يحنقُ في الحق على جِرّة، ولا يخاف في الله لومة لائم "[١].

وفي مجال العلاقة التي يجب أن تسود بين الوالي، ومَن يرأسهم فقد كان يتعين " على من يشغل الوظائف القيادية أن يكون متفهماً النواحي النفسية والانسانية لمن يعملون معه؛ فذلك في ذاته ييسّر عليه قيادتهم، وفي الوقت نفسه يجعلهم قادرين على تحقيق الأهداف "[٢]، وفي ذلك تأكيد على النواحي الانسانية التي لا بدّ من وجودها في علاقة الوالي بالناس؛ فهو انسانٌ عاديّ من القوم أنفسهم وليس غريباً عنهم، فهو يعيش الظروف والمشكلات نفسها[٣]، ويشاطرهم أحاسيسهم في وقت الفرح والألم، وقد أرشد عمر ولاته إلى ضرورة اتباع هذا السلوك الانساني حين قال: "... وَعُد مرضى المسلمين، واشهد جنائزهم، وباشر أمورهم بنفسك... "[٤]؛ وروى الأعمش قال: " كان عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ إذا بلغه أن عامله لا يعود المريض، ولا يدخل عليه الضعيف نزعه... "[٥]، ويؤدي ذلك إلى انتفاء الصراعات والتناقضات داخل المجتمع.

وحذّر عمر ولاته من التنعم، ودعاهم إلى التزام الخشونة والتقشف، ولا بدّ من أن يتبدّى ذلك في لباسهم فلا يلبسون الحرير، ولباسهم مختلف عن لباس أهل الشرك كي ينمازوا عن الآخرين، وتكون لهم شخصيّة مستقلة، حتى فيما يلبسون: " إياكم والتنعّم وزي اهل الشرك ولبوس الحرير... "[٦].

وصاحب الأمر يضبط نفسه، ويغلب هواه، ويملك شهواته، وعليه قتال هواه كما يقاتل عدواً له؛ فمن لا يقدر على ضبط نفسه عن ارتكاب ما يُعيب ويُشين لا يستطيع أن يضبط من يقوم على

---

(١) تاريخ مدينة دمشق، تحقيق: سكينة الشهابي، ترجمة عمر بن الخطاب، ص: ٢٣٧-٢٣٨؛ سيرة عمر بن الخطاب، ص: ٩٢؛ الرياض النضرة، ٣٩٥/٢؛ وانظر: الخطب والمواعظ، ص: ٢٠٣-٢٠٤.

(٢) الادارة في صدر الاسلام، ص: ١٠٦.

(٣) عبد الحميد بهجت فايد، الادارة في الاسلام نماذج من الفكر والتطبيق، مجلة المسلم المعاصر، ع ٣٠، بيروت، ١٩٨٢، ص: ١٠١-١٣٧، ص: ١٣٢.

(٤) العقد الفريد، ٨٨/١.

(٥) أبو يوسف، الخراج، ص: ٢٦٤.

(٦) أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري، (ت ٥٨٩هـ)، الجامع الصحيح، م٤، دار الجيل، بيروت، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٤/٦؛ سيرة عمر بن الخطاب، ص: ٩٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

رعاية مصالحهم من الرعية[١]: " قاتل هواك كما تقاتل عدّوك... "[٢]، ومقاتلة النفس تكون في عدم أطماعها فيما قل أو كثر من شهوات الدنيا، وحملها على العفّة والنقاء.

والناس في ظل النظام الإسلامي سواسية لا فرق بينهم[٣]، لذلك يتوجب على الوالي ألاّ يستأثر بشيء لا يستطيع أفراد الرعية الحصول عليه، ويظهر هذا المبدأ جلياً حين أرسل عتبة بن فرقد والي أذربيجان إلى عمر بن الخطاب نوعاً من الطعام، وعلم عمر أن هذا الطعام ليس في متناول المسلمين كلّهم، فردّه وكتب إلى عتبة: "... إنه ليس من كَدك ولا من كدّ أبيك، ولا من كدّ أمك، فاشبع المسلمين في رحالهم مما تشبع منه في رحلك "[٤]، ورغم بساطة الموضوع الذي تضمنه الكتاب إلا أنّ دلالته كبيرة، فالمساواة الاسلامية بين الرعية وأصحاب السلطة تكون في كل الجوانب حتى البسيطة منها.

وعلى الوالي أن يقوم بما أوكل إليه بعيداً عن التحيّز، وبعيداً عن أيّة مؤثرات عاطفية أو شخصيّة، ليتحقق مبدأ المساواة؛ ووفقاً لهذا المبدأ نرى عمر بن الخطاب يرفض من أحد الولاة أن يعامل ابنه معاملة مختلفة عن الآخرين، فحين حُدّ ابنه عبد الرحمن في صحن دار الوالي عمرو بن العاص بسبب شرب الخمر، ولم يُقِم الحدّ على مشهد من الناس أرسل عمر بن الخطاب إلى عمرو ابن العاص يقول: " عجب لك يا ابن العاص، وجرأتك عليّ، وخلافك عهدي، فما أراني الا عازلك؛ تضرب عبد الرحمن في بيتك، وتحلق رأسه في بيتك، وقد عرفت أنّ هذا يخالفني، وإنما عبد الرحمن رجل من رعيتك، تصنع به ما تصنع بغيره من المسلمين، ولكن قلت: هو ولد أمير المؤمنين، وعرفت أنه لا هوادة لأحد من الناس عندي في حق، فإذا جاءك كتابي هذا فابعث به في عباءة على قتب[٥] حتى يعرف سوء ما صنع "[٦].

وكان عمر بن الخطاب حريصاً على أن يبدأ أهل بيته بالتزام ما ينهى عنه حتى لا يستغلوا قرابتهم للخليفة؛ روى سالم بن عبد الله بن عمر قال: " كان عمر إذا صعد المنبر فنهى الناس عن

---

(١) عبد الرحمن بن نصر بن عبد الله، الشيزري، (ت ٥٨٩هـ)، النهج المسلوك في سياسة الملوك، ط١، تحقيق: محمد أحمد دمج، م١، مكتبة المنار، الزرقاء، ١٩٩٤، ص: ١٤٥-١٤٦.

(٢) أنساب الأشراف، تحقيق: سهيل زكار، ٣٩/١٠.

(٣) Reuben Levy, The Social Structure of Islam, Cambridge, 1965, p. 53-91.

(٤) صحيح مسلم، ١٤٠/٦، سيرة عمر بن الخطاب، ص: ٩٠.

(٥) القتب هو إكاف البعير وهو شبه الرحال، لسان العرب، مادة: قتب، وأكف.

(٦) سيرة عمر بن الخطاب، ص: ١٦٦-١٦٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

شيء جمع أهله، فقال: إني نهيت الناس عن كذا وكذا، وإنّ الناس ينظرون إليكم نظر الطير، وأقسم بالله لا أجد أحداً منكم فعله إلا أضعفت عليه العقوبة "[١]. إنّ عمر على معرفة بما يعتمل في نفوس أفراد الرعية في أثناء نظرهم لمن يسوسهم، ولمن ينتسبون إليه وهم في هذا مثل الطائر دقيق النظر إلى كل شيء حوله متفحصاً لدقائقه، والرعية كذلك تكون عيونها قد أذكيت على ولاة الأمر، ووجهت الأنظار لهم لتراقب كل سلوك يصدر عنهم؛ لذلك حرص عمر على البدء بنفسه، وبأهله حرصاً منه على ترسيخ المساواة التي تفضي إلى تيسير الاتصالات عبر المستويات الإدارية المختلفة داخل البناء التنظيمي مما يؤدي في النهاية إلى تجميع الأفراد، وتحريكهم باتجاه تحقيق الأهداف من غير أحقاد وضغائن، فيسود بين أفراد المجتمع الاحساس بالتكيف والاندماج في الشخصيّة الجماعيّة[٢]، ويُفتح المجال واسعاً للتنافس الخير المنتج المبدع دون خشية من ضياع الحق.

ومن الرسائل التي تتضمن وصايا وتعليمات إدارية الكتاب المنسوب إلى علي بن أبي طالب، وقد قيل إنه كُتب لمالك بن الأشتر حين ولاّه على مصر، وعدّ بعض المحدثين هذا الكتاب دستوراً إدارياً ذا قيمة موضوعية كبيرة[٣]، وبعد القراءة المتفحصة الدقيقة لهذا العهد تبين أن نصّه يؤخذ عليه عدد من المآخذ التي تجعل الباحث أميل إلى عدم قبول نسبته إلى علي بن أبي طالب، وإلى حقبة صدر الإسلام، وفي سبيل جلاء هذا الأمر لعلّ من المفيد عرض الإطار التاريخي لخروج مالك بن الأشتر النخعي إلى مصر.

روى أبو مخنف أن علي بن أبي طالب رغب في تغيير والي مصر بعد أن فسدت على واليها محمد بن أبي بكر الذي كان " غلاماً حدثاً ليس بذي تجربة للحرب، ولا بمجرب للأشياء "[٤]، وكان هذا في سنة ثمان وثلاثين هجرية، وبعث علي إلى مالك بن الأشتر ليأتيه من نصيبين[٥] مكان ولايته، وحين وصل علياً حدّثه حديث أهل مصر، وبعثه إليهم، وقيل إنّ معاوية لما سمع خبر خروج الأشتر

---

(١) تاريخ الرسل والملوك، ٢٠٧/٤.

(٢) التنظيم الإداري في الدولة الاسلامية، ص: ٤٠٤، ٢١٥.

(٣) السيد عبد المحسن فضل الله، نظرية الحكم والإدارة في عهد الامام علي عليه السلام للأشتر، ط٢، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، ١٩٨٣؛ محمد مهدي شمس الدين، عهد الأشتر، ط١، مؤسسة الرفاء، بيروت، ١٩٨٤.

(٤) تاريخ الرسل والملوك، ٩٥/٥.

(٥) نصيبين، مدينة من بلاد الجزيرة على جادة القوافل من الموصل إلى الشام، معجم البلدان، ٢٨٨/٥-٢٨٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إلى مصر عظم ذلك عليه، ودسّ إليه من يقتله، فقُتل وهو في القُلزم[١]، وهذا يعني أن الأشتر لم يتولّ إدارة مصر لتعرّضه للقتل[٢].

ومضمون العهد يكتنفه ما يحمل الباحث على الشك في صحة إسناده إلى علي بن أبي طالب:

أولاً: إن أول ظهور للعهد كان في القرن الرابع في كتاب " نهج البلاغة "، وهذا يثير سؤالاً ملحاً: كيف غفلت المصادر المتقدمة عنه ولم تُشر إليه، ولم تذكره رغم أهمية موضوعه وطوله، وتوقفت رواية أبي مخنف عند ذكر وصية علي لمالك حين قدم إليه، وقد أوصاه قائلاً: " اخرج رحمك الله! فإني إن لم أوصك اكتفيت برأيك، واستعن بالله على ما أهمّك، فاخلط الشدة باللين وارفق ما كان الرفق أبلغ، واستعن بالشدة حين لا يغني عنك الا الشدّة "[٣]، وحين قتل لم يجدوا بحوزته أي عهد أو رسالة إلا رسالة علي بن أبي طالب إلى أهل مصر[٤]، ولا نعرف موعد إرسال هذا العهد لأن مالكاً قتل قبل أن يتسلم زمام الولاية، إن هذا العهد بما تضمن من وصايا يصلح أن يرسل إلى محمد بن أبي بكر غير المجرّب " للحرب " و " الأشياء "، فلمَ اختصت الرواية الأشتر به؟.

ثانياً: إن طول العهد لا يتناسب وطبيعة رسائل هذه الحقبة التي تميزت رسائلها بالتوسط والإيجاز.

ثالثاً: أما مضمون النص فقائم على افتراض أن المجتمع في مصر بعد الفتح الاسلامي يسيطر عليه نظام طبقي صارم؛ فنرى الكاتب أولاً يتحدث عن فئتين عامة وخاصة ويتبنى موقفاً من كلتا الطبقتين: "... وليكن أحب الأمور اليك أوسطها في الحق، وأعمّها في العدل، وأجمعها لرضا الرعية، فإن سخط العامة يجحف برضا الخاصة، وإن سخط الخاصة يُغتفر مع رضا العامة، وليس أحد من الرعية أثقل على الوالي مؤونة في الرخاء، وأقل معونة له في البلاء، وأكره للإنصاف، وأسأل بالإلحاف، وأقل شكراً عند الإعطاء، وأبطأ عذراً عند المنع، وأضعف صبراً عند ملمات الدهر من أهل الخاصة، وإنما عماد الدين، وجماع المسلمين، والعدّة للأعداء العامة من الأمة فليكن صغوك لهم وميلك معهم... "[٥]. إن هذه التفرقة بين " العامة والخاصة " وتفضيل فئة على أخرى لا ينسجم والنظرة الإسلامية إلى الناس؛ فهم سواسية لا فضل لأحد على الآخر، ومصطلح " العامة والخاصة " غير محدد في العهد، ولم تُذكر الأسس التي يُدرج

---

(١) القلزم: بلدة على ساحل البحر الأحمر قرب أيلة والطور ومدين، معجم البلدان، ٣٨٧/٤.

(٢) تاريخ الرسل والملوك، ٩٥/٥-٩٦.

(٣) المصدر نفسه، ٩٥/٥.

(٤) المصدر نفسه، ٩٦/٥.

(٥) نهج البلاغة، ٥١٩-٥٢٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فيها الناس ضمن هاتين المجموعتين، فالمسلمون الذين حملوا راية الاسلام كانوا وحدة واحدة ليست القبائل هي التي تعمل على تكوينها وتلوينها دائماً، وإنما كانت هناك وحدة أخرى من فوقها تنتظمها هي وحدة العقيدة وصلة الدين[١]. ويُضاف إلى ذلك التعارض بين دعوة الكاتب للميل مع العامة والحرص على رضاهم، ولو كان ذلك على حساب سخط الخاصة، ووصية علي للأشتر بالإنصاف والابتعاد عن الظلم: "... أنصف الله وأنصف الناس من نفسك ومن خاصة أهلك، ومَن لك فيه هوى من رعيتك فإنك إلاّ تفعل تظلم، ومن ظلم عباد الله كان الله خصمه دون عباده، ومن خاصمه الله أدحض حجته، وكان لله حرباً حتى ينزع أو يتوب، وليس شيء أدعى إلى تغيير نعمة الله وتعجيل نقمته من إقامة على ظلم، فإنّ الله سميع دعوة المضطهدين، وهو للظالمين بالمرصاد... "[٢].

أما الوجه الآخر لطبقات المجتمع كما ظهرت في الكتاب المنسوب لعلي فهي: " واعلم أن الرعية طبقات لا يصلح بعضها الا ببعض، ولا غنى ببعضها عن بعض: فمنها جنود الله ومنها كتاب العامة والخاصة، ومنها قضاة العدل، ومنها عمال الانصاف والرفق، ومنها أهل الجزية والخراج من أهل الذمة، ومسلمة الناس، ومنها التجار وأهل الصناعات، ومنها الطبقة السفلى من ذوي الحاجة والمسكنة، وكلّ قد سمّى الله له سهمه، ووضع على حدّه فريضة في كتابه أو سنة نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ عهداً منه عندنا محفوظاً... "[٣].

إنّ هذا النص يفترض وجود هذه الطبقات في كتاب الله أو في سنة نبيه المحفوظة، وهو أمر ليس له وجود في كليهما على هذه الصورة، ولا نعرف مصدر معرفة علي بهذا التقسيم الاجتماعي في مصر فهو لم يقم فيها ليختبر أحوالها، وأحوال أهلها، أو أنه افترض وجود هذه الطبقات قياساً على وجودها في الحجاز والعراق مثلاً، والمجتمع في الدولة الاسلامية في هذه الحقبة التاريخية لم يكن يتوزعه هذا التقسيم الطبقي[٤]، أما طبقة الكتاب والقضاة فلم يكونوا يشكلون فئة مميزة لنعدّهما طبقة، ولم يكن هناك كتاب عامة وكتاب خاصة، والقضاء كان يتولاه الولاة أنفسهم، ومع أن عمر بن الخطاب عيّن قضاة مختصين

---

(١) شكري فيصل، المجتمعات الإسلامية في القرن الأول، نشأتها، مقوماتها، تطورها اللغوي والأدبي، مكتبة المثنى، بغداد، ١٩٥٢، ص: ٣٢-٣٣؛

The Social Structure of Islam, p. 53-91.

(٢) نهج البلاغة، ص: ٥١٩.

(٣) المصدر نفسه، ص: ٥٢٢-٥٢٣.

(٤) المجتمعات الإسلامية، ص: ٥٧-٢٢٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بالفصل بين الناس الا انهم لم يؤلفوا طبقة كما هم في هذا الكتاب[١]، ولا نعرف الفرق بين القضاة وبين " عمال الإنصاف والرفق " الذين ورد ذكرهم في العهد، إنّ المجتمع الإسلامي في عصر صدر الإسلام ما زال في بداية تكوّنه، ولم تتبلور فيه طبقات على هذا النحو ليوصي الخليفة أحد ولاته في وسائل التعامل معها[٢]، والدارس لرسائل عمر بن الخطاب الإداريّة وما جاء في هذا العهد يتبين له أن المجتمع في خلافة علي قد قفز قفزة كبيرة في تطوره، وتكون طبقاته، وكأنّ بين العهدين مدة زمنية طويلة، وهذا أمر لا يتوافق والواقع التاريخي لهذه الحقبة، وهذا يعمّق الشك في صدور هذا العهد عن علي بن أبي طالب.

رابعاً: في بعض التوجيهات والتعليمات التي وردت في العهد امتيازات إدارية لم يكن ولاة عصر صدر الإسلام (النبوة والخلافة الراشدة)، يتمتعون بها، أو لم تكن من صلاحياتهم الإدارية، ومن ذلك تصرف الوالي بأموال الصوافي في ولايته، وفي الولايات الأخرى، فالوالي له حق التصرف بها في بيت مال ولايته وصوافيها، أما صوافي الولايات الأخرى فليس له حق التصرف بها، ولم يثبت أن أحد الولاة في ولاية في هذا العصر قد تدخل في أموال ولاية أخرى، فالخليفة وحده هو الذي يملك هذا الحق[٣]: "... ثم الله الله في الطبقة السفلى من الذين لا حيلة لهم من المساكين والمحتاجين، وأهل البؤس، والزّمنى فإنّ في هذه الطبقة قانعاً، ومعتدّاً، واحفظ لله ما استحفظك من حقه فيهم، واجعل لهم قسماً من بيت مالك، وقسماً من غلاّت صوافي الاسلام في كل بلد، فإنّ للأقصى منهم مثل الذي للأدنى "[٤]، وفي العهد وصية للوالي بأن يحسن اختيار الوزراء، ويرشده أن يكون وزراؤه ممن لهم نفاذ في الرأي، ولا يعاونون ظالماً على ظلمه: "... إن شرّ وزرائك من كان للأشرار قبلك وزيراً، ومن شركهم في الآثام، فلا يكونُن لك بطانة، فإنهم أعوان الأئمة، وإخوان الظلمة، وأنت واجد منهم خير الخلف ممن له مثل آرائهم، ونفاذهم، وليس عليه مثل آصارهم، وأوزارهم ممن لم يعاون ظالماً على ظلمه، ولا آثماً على إثمه... "[٥]. لو افترضنا أن منصب الوزير بوصفه وظيفة في الدولة كان موجوداً فإن اختياره ليس من صلاحيات الولاة، ومع ذلك فإن هذا المنصب

---

(١) النظام القضائي في العهد النبوي وعهد الخلافة الراشدة، مناع خليل قطان، وقائع ندوة النظم الاسلامية، أبو ظبي، ١٩٨٤، ص: ٣٥٢-٣٥٣.

(٢) The Social Structure of Islam, p. 53-91.

(٣) أبو يوسف، الخراج، ص: ١٤٠-١٤٩.

(٤) نهج البلاغة، ص: ٥٣١-٥٣٢.

(٥) المصدر نفسه، ص: ٥٢٠-٥٢١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كان أول ظهور له في العصر العباسي؛ قال ابن طباطبا: "... فلما ملك بنو العباس تقررّت قوانين الوزارة، وسميّ الوزير وزيراً... "[١].

خامساً: وفي حال مواجهة الوالي لما يصعب عليه من شؤون الدولة فعليه اللجوء إلى كتاب الله، وسنة رسوله الكريم: "... وارجع إلى الله ورسوله ما يضلعك من الخطوب ويُشتبه عليك من الأمور، فقد قال الله تعالى لقوم أحب ارشادهم: " يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم، فإن تنازعتم في شيء، فردّوه إلى الله والرسول "[٢]، فالرد إلى الله: الأخذ بمحكم كتابه، والردّ إلى الرسول الأخذ بسنته الجامعة غير المفرقة "[٣]. إن الحديث حول السنة الجامعة والمفرقة كان بعد عصر صدر الاسلام، وقد تناول هذا العلم الأحاديث التي ظاهرها التعارض من حيث الجمع والتوفيق بينها، أما بتقييد مطلقها أو بتخصيص عامّها، أو بحملها على الحادثة التي جاء من أجلها الحديث، ويبحث كذلك في الأحاديث التي يشكل فهمها أو تصورها فيدفع إشكالها ويوضح حقيقتها، وأول من ألّف في هذا الموضوع محمد بن ادريس الشافعي المتوفى في بداية القرن الثالث الهجري سنة (٢٠٤هـ)، والكتاب موسوم بـ " اختلاف الحديث "[٤].

إن ما تقدم من ملاحظات جليّة يدعو إلى التروي والتدقيق في هذا الكتاب قبل نسبته إلى علي بن أبي طالب، وبناء أحكام إداريّة وفق ما جاء فيه.

ومن المباديء التي تسنمت مرتبة عالية في النظام الإداري الإسلامي مبدأ الرقابة الإدارية، وقد اتخذت هذه الرقابة مظاهر متنوعة استهدفت منع الانحراف، والتأكد من سلامة الأداء الإداري، وتصحيح الأخطاء في أسرع وقت ممكن، والحيلولة دون تكرارها مرة أخرى قدر الإمكان[٥].

والمظهر الأول للرقابة الإسلامية كان الرقابة المانعة التي كانت ترمي إلى التدقيق في اختيار العمال الصالحين المناسبين ممن يتصفون بمواصفات تؤهلهم الاضطلاع بما فوّض إليهم من أعمال،

---

(١) محمد بن علي بن طباطبا، (ت ٧٠٩هـ)، الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، دار صادر، بيروت، ١٩٦٠، ص: ١٥٣؛ وانظر: عبد العزيز الدوري، النظم الإسلامية، ط١، مطبعة نجيب، بغداد، ١٩٥٠، ص: ٢١٠-٢٣١؛ محمد الصادق عفيفي، المجتمع الإسلامي وأصول الحكم، دار الاعتصام، ١٩٧٩، ص: ٢٩٣-٢٩٥.

(٢) سورة النساء، آية ٥٩.

(٣) نهج البلاغة، ٥٢٥-٥٢٦.

(٤) محمد عجاج الخطيب، أصول الحديث وعلوم مصطلحه، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٩، ص: ٢٨٣-٢٨٥.

(٥) التنظيم الإداري في الإسلام، ص: ٤٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

واستهدف هذا النوع من الرقابة كذلك إسداء النصح، وبيان الواجبات والمسؤوليات الملقاة على عاتق العمال لتجنب الوقوع في الزلل، وتهيئة كل الظروف الممكنة لمنع التجاوزات، ومن أهم عوامل توفر هذه الرقابة معرفة كل عضو في العمل مسؤوليته وواجباته بوضوح، وأن يعرف النظم والإجراءات المتبعة في التنفيذ، وأن يكون على علم بوجود تقييم مستمر للإنجازات يتحدد في ضوئه الثواب والعقاب[١]، وتجلت هذه الرقابة في النصوص التي تم بيانها سابقاً.

أما المظهر الثاني للرقابة في النظام الإداري الإسلامي فكان الرقابة الذاتية التي أقرّها عمر بن الخطاب في إحدى رسائله؛ روى جعفر بن برقان أن عمر أرسل إلى بعض عماله: "... حاسب نفسك في الرخاء قبل حساب الشدة، فإنّ من حاسب نفسه في الرخاء قبل حساب الشدة عاد مرجعه إلى الرضى والغبطة، ومن ألهته حياته وشغلته شهواته عاد مرجعه إلى الندامة والحسرة، فتذكر ما توعظ به لكي ما تنتهي عما تنهى عنه... "[٢].

وتتم الرقابة الادارية الذاتية " من خلال قيام عضو الإدارة في الجهاز الاداري الاسلامي بإعادة النظر في أعماله وتصرفاته الادارية التي أمضاها، ليتحقق بنفسه من مدى مشروعيتها، وعدم مخالفتها لقواعد الشريعة الإسلامية وأحكامها، أو لما صدر إليه من أوامر وتوجيهات من رؤسائه الاداريين، أو لإعادة بحث مدى ملاءمة تصرفه لمقتضيات العدالة الإسلامية، أو النظر في عامل غاب عنه تحديده لهذه الملاءمة في تصرفه ليبادر من تلقاء نفسه في حال اكتشافه لخطأ ما في هذه الأعمال والتصرفات بتصحيحها من خلال إلغائها، أو تعديلها، أو أن يستبدل بها تصرفات أخرى تكون سليمة... "[٣]، وتعتمد الرقابة الذاتية على قوة الوازع الديني في نفس من يُقلد أمور الرعية، لأن هذا الوازع هو أداة الرقابة الذاتية " التي تجعل من المسلم حارساً على تعاليم الشريعة الإسلامية في المجالات كافة، ورقيباً على نفسه يحاسبها قبل أن تحاسب، ويزن عملها قبل أن يوزن عليها "[٤]، ومحاسبة الوالي لنفسه وتقويم أخطائه تتيح له محاسبة الرعية بقوة وبحجة دامغة، وقد عبر الماوردي

---

(١) الإدارة في الإسلام، ص: ١٢٤.

(٢) تاريخ مدينة دمشق، تحقيق: سكينة الشهابي، ترجمة عمر بن الخطاب، ص: ٢٧٣؛ المحب الطبري، أبو جعفر أحمد بن عبد الله بن محمد (ت ٦٩٤هـ)، الرياض النضرة في مناقب العشرة، ط١، ٢م، دار الكتب العلمية، بيروت، د١٩٨٤، ٣٩٩/٢.

(٣) محمد طاهر عبد الوهاب، الرقابة الإدارية في النظام الإداري الإسلامي، وقائع ندوة النظم الإسلامية، الجزء الأول، أبو ظبي، ١٩٨٤، ص: ٢٨٤-٢٨٥؛ وانظر: سعيد الحكيم، الرقابة على أعمال الإدارة في الشريعة الإسلامية، والنظم الوضعية، ط٢، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٨٣، ص: ٣١٢-٣٢٢.

(٤) الرقابة الإدارية، ص: ٢٨٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عن ذلك في قوله: "... ينبغي للملك أن يبتدئ بتقويم نفسه قبل أن يبتدئ بتقويم رعاياه، والا كان بمنزلة من أراد تقويم ظل معوج قبل تقويم عوده الذي هو ظل له، فإذا بدأ بسياسة نفسه كان على سياسة غيره أقدر، وإذا أهمل مراعاة نفسه كان بإهمال غيره أجدر... "[١]، وتعدّ الرقابة التي يمارسها الفرد على نفسه " أفضل أنواع الرقابة إذ ينتفي معها أيّ مؤثر أو ضغط، فالفرد أقدر على تفهم واجباته وتحديد موقفه من كل عمل، كما أنه أقدر على تقويم نفسه، وتحديد مدى إجادته للعمل الذي يقوم به، كذلك يكون أكثر الناس رغبة في تصحيح أعماله حتى لا يكتشف غيره أخطاءه... "[٢]، ويتم الاقلاع عن الأخطاء بدون غضاضة أو إحراج حين يتولى ذلك صاحب العمل. ومما يؤخذ على هذا اللون من المتابعة للأعمال وتقييمها أنه " يرتكز أساساً على طبيعة القيم الدينية والروحية والاخلاقية والثقافية التي يقوم عليها المجتمع، وعلى مدى رسوخها في جنباته، ثم على مدى تفاعل هذه القيم والعوامل في ضمير عضو الادارة ووجدانه "[٣]، وبما أن القائمين على ادارة شؤون الرعية بشر ومعرضون لارتكاب الأخطاء قصداً، وبدون قصد فإن الخلفاء لم يكلوا الولاة لضمائرهم، ولم يتركوا الأعمال لتدار على عواهنها لذلك خضع هؤلاء الولاة لرقابة غيرية أو رئاسية[٤] تختبر حال العمل وحال القائمين عليه، وقد تشدد الخلفاء في متابعة ولاتهم وبالغ صاحب كتاب التاج في تصوير هذه المتابعة في قوله: " فإن عمر كان علمه بمن نأى عنه من عماله ورعيته كعلمه بمن بات معه في مهاد واحد، وعلى وساد واحد، فلم يكن له في قطر من الأقطار ولا ناحية من النواحي عاملٌ ولا أمير جيش إلاّ وعليه له عين لا يفارقه ما وجده، فكانت الفاظ من بالمشرق والمغرب عنده في كل ممسىً ومصبح "[٥].

أما الوسائل التي اتُبعت في تقصي أحوال الولاة والرعية فقد كانت متنوعة، ويأتي في مقدمتها بث الرقباء والعيون ليرصدوا أخبار الولاة، وكان الخلفاء يطلبون أفراداً بعينهم يتوسمون فيهم الثقة، والصدق ليتم سؤالهم عن أحوال البلاد؛ كتب عمر بن الخطاب إلى عامله على العراقين "... ابعث إليّ برجلين جلدين نبيلين أسألهما عن أمر الناس... "[٦]، وتم احكام الرقابة عن طريق قيام الخليفة نفسه بالتفتيش إذ روي أن عمر كان " يعُسُّ بنفسه، ويرتاد منازل المسلمين ويتفقد أحوالهم

---

(١) تسهيل النظر وتعجيل الظفر، ص: ٤٦-٤٧.

(٢) الإدارة في صدر الاسلام، ص: ١٤٣-١٤٤.

(٣) الرقابة الإدارية في النظام الاداري الإسلامي، ص: ٢٩١.

(٤) الرقابة الإدارية، ص: ٢٩٢.

(٥) التاج في أخلاق الملوك، منسوب للجاحظ، دار الفكر، بيروت، ١٩٥٥، ص: ٢٧٨.

(٦) أسد الغابة في معرفة الصحابة، ٤/٧٠؛ الرياض النضرة، ١/٣٠٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بيديه "[١]، وروي أن عمر قال: " لئن عشت إن شاء الله لأسيرنّ في الرعية حولاً، فإني أعلم أن للناس حوائج تقطع دوني، أما عمالهم فلا يرفعونها إليّ، وأما هم فلا يصلون إليّ "[٢]، وفي سبيل الحفاظ على أموال الدولة فقد أحكم الخلفاء الرقابة على ولاتهم؛ وكان عمر يحصي ثروة عماله قبل توليتهم، وصادر أموال عدد من الولاة لعملهم بالتجارة في أثناء تولّيهم أمور الرعيّة، واتبع طريقة المقاسمة أو المشاطرة في مصادرة أموال الولاة[٣]، وفيما يلي جملة من نماذج المحاسبات التي كانت نتيجة الرقابة الرئاسية التي اتبعها الخلفاء.

لما بنى سعد بن أبي وقاص قصراً له في الكوفة بلغ عمر بن الخطاب أن سعداً قد جعل حجاباً بينه، وبين الناس، فأرسل إليه: " بلغني أنك بنيت قصراً اتخذته حصناً، ويسمى قصر سعد، وجعلت بينك، وبين الناس باباً، فليس بقصرك، ولكنه قصر الخبال، أنزل منه منزلاً مما يلي بيوت الأموال وأغلقه، ولا تجعل على القصر باباً تمنع الناس من دخوله، وتنفيهم به عن حقوقهم، ليوافقوا مجلسك ومخرجك من دارك إذا خرجت... "[٤]، وحرصاً من عمر على أن يتساوى الولاة بالناس وإلغاء أي مظهر يخالف ذلك، فقد أرسل إلى عمرو بن العاص يقول: " أما بعد، فإنه بلغني أنك اتخذت منبراً ترقى به على رقاب المسلمين، أوما بحسبك أن تقوم قائماً، والمسلمون تحت عقبيك، فعزمت عليك لما كسرته "[٥] ولم تقف محاسبة الولاة عند حد علاقتهم بالدولة وبالرعية بل تدخل الخليفة في الشؤون الخاصة للولاة؛ روى سيف بن عمر أن عمر بن الخطاب أرسل إلى خالد بن الوليد كتاباً ينهاه فيه عن فعل بلغه عنه جاء فيه: " بلغني انك تدلكت بخمر؛ وأن الله قد حرم ظاهر الخمر وباطنه، كما حرّم ظاهر الاثم وباطنه، وقد حرّم مس الخمر إلا أن تُغسل كما حرّم شربها، فلا تمسوها أجسادكم، فإنها نجس، وإن فعلتم فلا تعودوا... "[٦]، وروى سعيد بن جبير أن عمر طلب إلى واليه على المدائن حذيفة بن اليمان بأن يطلّق زوجته لأنها كتابيّة، فأرسل إليه حذيفة: " لا أفعل حتى تخبرني: أحلال أم

---

(١) تاريخ الرسل والملوك، ٢٠٥/٤.

(٢) المصدر نفسه، ٢٠١/٤-٢٠٢.

(٣) أنساب الأشراف، تحقيق: سهيل زكار، ٣٢٣/١٠؛ معالي عبد الحميد حمودة، الرقابة في النظام الاداري في الاسلام، مجلة الاداري، ع٤٢، ١٩٩٠، ص: ١٢٥-١٤٢، ص: ١٣٦-١٣٧.

(٤) تاريخ الرسل والملوك، ٤٧/٤.

(٥) فتوح مصر، ص: ٦٨.

(٦) تاريخ الرسل والملوك، ٦٦/٤؛ علاء الدين، علي المتقي بن حسام الدين الهندي، (ت ٩٧٥هـ)، كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، تحقيق: بكر قباني، وصفوت السقا، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٩، ٥٢٢/٩-٥٢٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حرام، وما أردت بذلك "[١]، فكتب إليه عمر " بل حلال، ولكن في نساء الأعاجم خلابة، فإن أقبلتم عليهن غلبتكم على نسائكم "[٢]، وقد استجاب الوالي وطلّق زوجته، والوالي في هذا الموقف يعدّ قدوة لغيره من الرعية، وطلب عمر يُعد ضرورة جهادية وليس من قبيل القاعدة الشرعيّة إذ يحق للمسلم الزواج من الكتابيّة.

وكانت الرقابة الإدارية تتم بناءً على تظلم الرعية من أصحاب الشأن؛ روى جرير بن عبد الله البجلي أن أحد الجند الأشداء في جيش أبي موسى رفض السهم الذي فرض له، فعاقبه أبو موسى بالضرب بالسوط، وقام بحلق شعره، فاشتكى الجندي إلى عمر بن الخطاب الذي أرسل إلى أبي موسى: "... فإن كنت فعلت ذاك في ملأ من الناس فعزمت عليك لما قعدت له في ملأ من الناس حتى يقتص منك، وإن كنت فعلت ذلك في خلاء من الناس فاقعد له في خلاء من الناس حتى يقتص منك "[٣]، وقد تشدد عمر بن الخطاب في محاسبة الولاة لحملهم على اتباع أعلى درجات الحرص في تعاملهم مع الناس، وكان يشتد في رفع المظالم إلى حد أنه يحمي الناس من ألسنة الولاة لا من أسواطهم فقط[٤]؛ روى عمر بن شبة أن عمرو بن العاص قال لرجل من تُجيب من قبيلة كندة " يا منافق، فقال التجيبي: ما نافقت منذ أسلمت، ولا أغسل رأسا ولا أدهنه حتى آتي عمر، فأتى عمر فقال: يا أمير المؤمنين إنّ عمراً نفقني، ولا ـ والله ـ ما نافقت منذ أسلمت، فكتب عمر ـ رضوان الله عليه ـ إلى عمرو: " أما بعد، فإن فلاناً التجيبي ذكر أنك نفقته، وقد أمرته إن أقام عليك شاهدين أن يضربك أربعين... "[٥]، وقد اشتكى عمال عمر بن أبي سلمة والي علي غلظته عليهم، فأرسل إليه علي يقول: " أما بعد، فإن دهاقين عملك شكوا غلظتك، ونظرت في أمرهم فما رأيت خيراً، ولتكن منزلتك بين منزلتين: جلباب لين بطرف من الشدة في غير ظلم ولا نقض... "[٦]، وهذه الأخبار تدل على أن أبواب الخلفاء كانت مفتوحة على مصراعيها للنظر في شكاوى الرعية، ولو أنهم لم يكونوا على ثقة بالإنصاف والعدالة لما كلّفوا أنفسهم عناء الوصول إلى الخليفة في مركزه وبث تظلماتهم.

---

(١) تاريخ الرسل والملوك، ٥٨٨/٣.

(٢) المصدر نفسه، ٥٨٨/٣.

(٣) سيرة عمر بن الخطاب، ص: ٦٧-٦٨.

(٤) مجدي عبد المنعم، ديوان المظالم، نشأته وتطوره واختصاصاته مقارناً بالنظم الحديثة، ط١، دار الشروق، ١٩٨٣، بيروت، ص: ٦١.

(٥) سيرة عمر بن الخطاب، ص: ٦٨.

(٦) تاريخ اليعقوبي، ١٩٢/٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولم تكن معرفة ما يجري في الدولة مقتصرة على مراقبة سلوك الولاة بل كانت هناك رقابة على الرعية نفسها حتى لا يتعدى أحدهم على الآخر؛ روى يزيد بن أبي حبيب قال: إن أول من بنى غرفة بمصر خارجة بن حذافة، فبلغ ذلك عمر بن الخطاب فكتب إلى عمرو بن العاص والي مصر: " أما بعد، فإنه بلغني أن خارجة بن حذافة بنى غرفة، وأراد أن يطلّع على عورات جيرانه، فإذا أتاك كتابي هذا فاهدمها... "(١)، وتشي هذه الرسائل وغيرها على الاهتمام الشديد الذي أبداه الخلفاء بالرعيّة، وضرورة حصولهم على حقوقهم الماديّة والمعنويّة؛ لأن سلطة الوالي لا تخوله التعدي على حقوق الناس الإنسانية بالشتم أو الضرب من غير وجه حق، فإنسانية الفرد في ظل النظام الإسلامي مصونة، وتحظى بكل التقدير والاحترام، لذلك عمل الاسلام على تنظيم " سلوك الأفراد بعضهم قبل بعض، وقبل الجماعة التي يعيشون فيها، فالدين يدعو إلى التآخي، وإلى التعاون، وإلى العدل، وإلى الصدق في القول، والإخلاص في العمل، كما يدعو إلى البرّ والرحمة والوفاق، والإحسان، وسلامة القلب، وصدق الطويّة... "(٢)؛ وقد تجلّى ذلك في كتاب عثمان إلى عماله: "... استعينوا على الناس وكل ما ينوبكم بالصبر والصلاة، وأمر الله أقيموه ولا تدهنوا فيه، وإياكم والعجلة فيما سوى ذلك، وارضوا من الشرّ بأيسره، فإنّ قليل الشر كثير، واعلموا أنّ الذي ألف بين القلوب هو الذي يفرّقها، ويباعد بعضها من بعض، سيروا سيرة قوم يريدون الله لئلا تكون لهم على الله حجة "(٣)، وأوصى عمال الخراج بالتزام الأمانة، والبعد عن الظلم: "... خذوا الحق، وأعطوا الحق به، والأمانة الأمانة؛ قوموا عليها، ولا تكونوا أول من يسلبها، فتكونوا شركاء من بعدكم إلى ما اكتسبتم، والوفاء الوفاء؛ لا تظلموا اليتيم ولا المعاهد، فإنّ الله خصم لمن ظلمهم... "(٤).

وكان الخلفاء يفسحون المجال أمام الولاة للدفاع عن أنفسهم وبيان وجهة نظرهم في الشكاوى التي وصلت للخليفة؛ ومن ذلك شكوى سعد مولى علي بن أبي طالب بحق والي علي على البصرة زياد بن أبيه، إذا أرسل علي مولاه إلى زياد بشأن مال يرسله إليه، فأغلظ زياد القول لسعد وشتمه، ونمي الخبر إلى علي فأرسل إلى زياد يقول: " إن سعداً ذكر لي أنك شتمته ظالماً؛ وجبهته تجبراً وتكبراً، وقد قال رسول الله: " الكبرياء والعظمة منه، فمن تكبر سخط الله عليه، وأخبرني أنك مستكثر من الألوان في الطعام، وانك تدهن في كل يوم، فماذا عليك لو صمت لله أياماً، وتصدقت

---

(١) جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، (ت ٩١١هـ)، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، ط١، تحقيق: محمد أبو الفضل ابراهيم، ٢م، دار احياء الكتب العربية، ١٩٦٧، ١٣٥/١.

(٢) الادارة في صدر الاسلام، ص: ١٣٦.

(٣) تاريخ مدينة دمشق، ترجمة عثمان بن عفان، تحقيق: سكينة الشهابي، ص: ٢٤٠.

(٤) تاريخ الرسل والملوك، ٢٤٥/٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ببعض ما عندك محتسباً، وأكلت طعامك في مرة مراراً، أو أطعمته فقيراً .....، وأخبرني انك تتكلم بكلام الأبرار، وتعمل عمل الخاطئين، فإن كنت تفعل ذلك فنفسك ظلمت، وعملك أحبطت، فتب إلى ربك، وأصلح عملك... "[١]، وقد ردّ زياد على ما اتهم به قائلاً: إن سعداً قدم علي فعجل فانتهرته وزجرته، وكان أهلاً لأكثر من ذلك، فأما ما ذكر من الإسراف في الأموال والتنعم، واتخاذ ألوان الطعام، فإن كان صادقاً فأثابه الله ثواب الصادقين، وإن كان كاذباً فلا آمنه الله عقوبة الكاذبين، وأما قوله: إني أتكلم بكلام الأبرار وأخالف ذلك في الفعل، فإني إذاً من الأخسرين عملاً، فخذه بمقام واحد قلت فيه عدلاً ثم خالفته إلى غيره، فإن أتاك عليه بشهيد عدل؛ والا تبين لك كذبه وظلمه "[٢]، ونلاحظ مبلغ التأدب في ردّ الوالي على رسالة الخليفة، والدفاع عن نفسه من غير الإساءة إلى الخليفة.

وحرص علي بن أبي طالب على المحافظة على أموال الدولة، وعدم إضاعة الوقت في اللهو، والانشغال عن إدارة شؤون الناس فقد بلغه أن المنذر بن الجارود واليه على اصطخر "[٣] يبسط يده في المال، ويصل مَن أتاه فكتب علي إليه محاسباً بأسلوب متشدد فيه بعض الحدّة، والغضب على مصالح الدولة: "... بلغني أنك تدع عملك كثيراً، وتخرج لاهياً متنزهاً متصيداً، وإنك قد بسطت يدك في مال الله لمن أتاك من أعراب قومك، كأنّه تُراثُك عن أبيك وأمك، وإني أقسم بالله لئن كان ذلك حقاً لجمل أهلك، وشسع نعلك خير منك، وأن اللعب واللهو لا يرضاهما الله، خيانة المسلمين وتضييع أعمالهم مما يسخط ربك، ومن كان كذلك فليس بأهل لأن يُسدّ به الثغر، ويُجبى به الفيء، ويُؤتمن على مال المسلمين، فأقبل حين يصل كتابي هذا إليك "[٤]، وأرسل علي إلى مصقلة بن هبيرة الشيباني عامله على أردشير[٥] مطالباً بما عليه من مال للدولة: "... وعندك من حق المسلمين خمسمائة ألف، فابعث بها إليّ ساعة يأتيك رسولي، والا فاقبل حين تنظر في كتابي، فإني قد تقدمت إلى رسولي إليك ألاّ يدعك أن تقيم ساعة واحدة بعد قدومه عليك الا أن تبعث بالمال... "[٦].

إن التشدد في الرقابة الذي فرضه الخلفاء على عمالهم الذين يتولون شؤون المسلمين المالية أفضى إلى نسبة عدد من النصوص التي تحمل في طياتها عوامل الشك فيها إلى غير أصحابها، ومن

---

(١) أنساب الأشراف، ١٦٤،١٦٥/٢.

(٢) المصدر نفسه، ١٦٤/٢-١٦٥.

(٣) بلدة بفارس من أقدم المدن، معجم البلدان، ٢١١/١.

(٤) أنساب الأشراف، ١٦٣/٢.

(٥) أردشير، من أجل كور فارس، معجم البلدان، ١٤٦/١.

(٦) تاريخ الرسل والملوك، ١٢٩/٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ذلك الرسائل المتبادلة بين عمر بن الخطاب، ووالية على مصر عمرو بن العاص، والمتضمنة محاسبة مالية بشأن خراج مصر، روى الليث بن سعد أن عمر بن الخطاب لمّا استبطأ الخراج من قبل عمرو بن العاص كتب إليه:

" بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى عمرو بن العاص، سلام عليك، فإني أحمد اليك الله الذي لا إله الا هو أما بعد، فإني فكرت في أمرك والذي أنت عليه فإذا أرضك أرض واسعة عريضة رفيعة قد أعطى الله أهلها عدداً وجلداً وقوة في بر وبحر وانها قد عالجتها الفراعنة وعملوا فيها عملاً محكماً مع شدة عتوهم وكفرهم، فعجبت من ذلك وأعجب مما عجبت انها لاتؤدي نصف ما كانت تؤديه من الخراج قبل ذلك على غير قحوط ولا جدوب، ولقد أكثرت في مكاتبتك في الذي على أرضك من الخراج وظننت أن ذلك سيأتينا على غير نزر ورجوت ان تفيق فترفع إليّ ذلك، فإذا أنت تأتيني بمعاريض تغتالها لا توافق الذي في نفسي ولست قابلاً منك دون الذي كانت تؤخذ به من الخراج قبل ذلك، ولست أدري مع ذلك ما الذي أنفرك من كتابي وقبضك، فلئن كنت تجزئاً كافئاً صحيحاً ان البراءة لنافعة وان كنت مضيعاً نطفاً ان الامر لعلى غير ما تحدث به نفسك وقد تركت ان أبتلى ذلك منك في العام الماضي رجاء أن تفيق فترفع إليّ ذلك، وقد علمت أنه لم يمنعك من ذلك الا عمالك عمال السوء وما توالس عليه وتلفف اتخذوك كهفاً وعندى باذن الله دواء فيه شفاء عما أسألك عنه فلا تجزع أبا عبد الله أن يؤخذ منك الحق وتعطاه فإن النهز يخرج الدر والحق أبلج ودعني وما عنه تلجلج فإنه قد برح الخفاء، والسلام "، قال فكتب إليه عمرو بن العاص: " بسم الله الرحمن الرحيم، لعبد الله عمر أمير المؤمنين من عمرو بن العاص، سلام عليك، فإني أحمد الله الذي لا اله الا هو أما بعد، فقد بلغني كتاب أمير المؤمنين في الذي استبطأني فيه من الخراج والذي ذكر فيها من عمل الفراعنة قبلي واعجابه من خراجها على أيديهم ونقص ذلك منها منذ كان الاسلام، ولعمري للخراج يومئذ أوفر وأكثر والأرض أعمر لانهم كانوا على كفرهم وعتوهم أرغب في عمارة أرضهم منا منذ كان الاسلام، وذكرت أن النهز يخرج الدر فحلبتها حلبا قطع ذلك درها وأكثرت في كتابك وأنبت وعرضت وثربت وعلمت أن ذلك عن شيء تخفيه على غير خبر فجئت . لعمري . بالمفظعات المقذعات ولقد كان لك فيه من الصواب من القول رصين صارم بليغ صادق، وقد عملنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولمن بعده فكنا بحمد الله مؤدين لاماناتنا حافظين لما عظم الله من حق أئمتنا نرى غير ذلك قبيحاً والعمل به سيئاً فيعرف ذلك لنا ويصدق فيه قبلنا معاذ الله من تلك الطعم ومن شر الشيم والاجتراء على كل مأثم، فأقبض عملك فان الله قد نزهني عن تلك الطعم الدنية والرغبة فيها بعد كتابك الذي لم تستبق فيه عرضا ولم تكرم فيه أخا،

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والله يا ابن الخطاب لأنا حين يراد ذلك مني أشد لنفسي غضباً ولها إنزاهاً وإكراماً وما علمت من عمل أرى علي فيه منعلقاً ولكني حفظت ما لم تحفظ ولو كنت من يهود يثرب ما زدت، يغفر الله لك ولنا، وسكتُّ عن أشياء كنتُ بها عالماً وكان اللسان بها مني ذلولاً ولكن الله عظم من حقك ملا يجهل، والسلام "(١).

إن هذين النصين يثيران جملة من التساؤلات والملاحظات التالية:

أولاً: يظهر عمر وقد علم مقدار ما كان يحصل من الضرائب في مصر قبل الإسلام، ويروي ابن الحكم أن عمر علم ذلك عن طريق رجل قديم من القبط استخبره عمر عن مصر وخراجها، ولا نعرف من هو هذا القبطي المجهول ولا العمل الذي قام به، وجعله عارفاً بأخبار الضريبة في مصر، وتبقى معرفة عمر هذه موضع تساؤل وشك.

ثانياً: ذكر عمر أن الفراعنة هم الذين عملوا في أرض مصر بجدّ واجتهاد مع كفرهم في حين أن الذين كانوا في مصر وقت الفتح الاسلامي هم القبط والروم.

ثالثاً: ورد في رسالة عمر أن مكاتبات كثيرة تم تبادلها بين الطرفين بشأن خراج مصر، ولم يصل إلينا شيء من هذه الرسائل التي اغضبت عَمراً وسببت له النفور، وقد أورد ابن الحكم رسالتين تم تبادلهما بين عمر وعمرو وتتعلقان بتأخر وصول الخراج إلى عمر من مصر وليس بقلّة الخراج(٢).

رابعاً: في الرسالة شيء من الغموض والتناقض؛ فترى عمر بن الخطاب يرفض الأسباب المجهولة لدينا التي تذرع بها عمرو لنقصان الخراج وهي كذلك لا توافق الذي في نفس عمر، وهو شيء مجهول لم يصرح به، وكأنه في هذا الحديث يتهم الوالي اتهاماً مبطناً غير مباشر، ويعود عمر لذكر سبب المشكلة وهم: " عمالك عمال السوء، وما توالس عليه وتلفف، اتخذوك كهفاً... "، ولا نعرف من هم هؤلاء العمال، ولم تذكر الروايات ما الذي تم بشأنهم؟!، وفي هذا النص كذلك اتهام لعمرو في قول الخليفة: " وما توالس عليه وتلفف "، والموالسة هي الخديعة والخيانة(٣)، فما الذي خانه عمرو، وعلم به الخليفة في قوله: "... فإنه قد برح الخفاء... ".

خامساً: لقد اختلف في مقدار خراج مصر زمن ولاية عمرو بن العاص؛ فقد ذكر يزيد بن حبيب أن عمرو بن العاص جبى خراج مصر وبلغ ألفي ألف، وذكر الجاحظ أن أرض مصر بلغت جبايتها أربعة آلاف ألف دينار، أما اليعقوبي فذكر أن خراج مصر بلغ عشرة آلاف ألف،

---

(١) فتوح مصر، ص: ١٠٩-١١٠؛ حسن المحاضرة، ١٢، ١٤٦-١٥٠؛ المواعظ والاعتبار: ٧٨/١.

(٢) فتوح مصر، ص: ١١٠.

(٣) الموالسة، الخداع والمداهنة، اللسان، مادة: ولس.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وعند المقريزي بلغ اثني عشر ألف ألف دينار[١]. فأيّ مبلغ قصده عمر بن الخطاب في رسالته، وعده لا يتساوى مع ما كان يأتيه سابقاً؟.

ونخلص من كل ذلك إلى أن رسالة عمر بن الخطاب رسالة غير واضحة لا يترشح منها أي معنى نبني عليه معلومات عن خراج مصر، وتعامل الوالي معه وهو أمر يخالف ما صحّ من رسائل عمر بن الخطاب التي تتسم بالوضوح ولا سيما فيما يتصل بإدارة الدولة وأموالها.

سادساً: يرجع عمرو سبب انخفاض الخراج إلى أن الفراعنة كانوا أكثر رغبة من المسلمين في عمارة أرضهم، وفي هذا الكلام المنسوب لعمرو ما يخالف حقيقة التعامل مع الأرض المفتوحة التي لم تكن تقسم بين المسلمين ليقوموا بزراعتها، بل تركت ملكاً لأصحابها وفرضت عليها الضرائب، وكان هدف عمر من ذلك كما ظهر في حواره مع من رأى اقتسامها بين أهل الفتح: "... وقد رأيت أن أحبس الأرضين بعلوجها وأضع عليهم فيها الخراج، وفي رقابهم الجزية يؤدونها فتكون فيئاً للمسلمين للمقاتلة، والذرية، ولمن يأتي بعدهم، أرأيتم هذه الثغور لا بد لها من رجال يلزمونها، أرأيتم هذه المدن العظام ـ كالشام والجزيرة والكوفة والبصرة، ومصر ـ لا بد لها من أن تشحن بالجيوش، وإدرار العطاء عليهم، فمن أين يُعطى هؤلاء إذا قسمت الأرضون والعلوج "[٢].

سابعاً: يخلو رد عمرو بن العاص على الخليفة من أيّ حرص على التأدب معه وهذا الأمر لم يعهد بين الخليفة عمر وولاته، فعمرو يتهم الخليفة بالإساءة إليه " بالمفظعات " و " المقذعات "، وهذا لم يرد في رسالة عمر التي اتسمت بالغموض، وعدم الوضوح؛ ويرى عمرو أن سبب ما جاء في رسالة الخليفة أشياء يخفيها عمر في نفسه عن غير خبر وعلم، ولم يصل إلينا في أخبار الرجلين أن بينهما أحقاداً دفينة، والمحاسبة المالية هي ستار لا غير، ومن ذلك ما ذكره عمرو من أن الخليفة في كتابه إليه لم يراع عِرضاً، ولم يُكرم أخاً في حين أن الوالي حفظ العرض، والاخوة بسكوته عن أشياء كثيرة كان بها عالماً، وأحجم عن ذكرها فهل كان عمرو يتستر على خليفته إكراماً له، ولمكانته كما قال في ردّه؟.

إن هذا الأسلوب من الخطاب غريب عن الاتجاه العام في مثل هذا اللون من الرسائل، ولا يتناسب كذلك مع كلا الرجلين، فالرقابة والمحاسبة لم تكن تستهدف الحط من شأن الولاة، ولا توجيه

---

(١) فتوح البلدان، ص: ٣٠٣؛ فتوح مصر، ١١٠-١١١؛ باسل طه جاسم، التنظيمات الادارية في عهد الخليفة عمر ابن الخطاب، رسالة ماجستير، جامعة الموصل، ١٩٨٨، ص: ١٠٤-١١٠.

(٢) أبو يوسف، الخراج، ص: ١١٤-١١٥؛ وانظر: ص: ٣٠٠-٣٠١؛ فتوح مصر، ص: ٦٢-٦٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الاتهامات من غير تدقيق وتمحيص، وكان عمر لا يقيم قصاصاً على عمّاله الا بعد أن يصحّ عليهم اقتراف الأخطاء[١].

ثامناً: ومما يضعف هاتين الرسالتين عدم اتخاذ عمر أي إجراء بحق الوالي الذي أظهره في رسالته مذنباً، وكان على يقين من خيانته، وسوء تعامله المالي، ولمَ لم يقم بعزله كما كان يفعل بولاة آخرين؟ إنّ هذا الموقف لا يتفق مع مواقف أخرى لعمر إذ كان يعزل الولاة، ويقتسم أموالهم إن تطرق إليها الشك[٢].

إن الملاحظات السابقة وغيرها تؤخذ على رسائل أخرى تتصل بالمحاسبة المالية التي فرضها الخلفاء على الولاة، ومن ذلك الرسائل المتبادلة بين علي بن أبي طالب وعبد الله بن عباس[٣].

ومن مظاهر العناية بشؤون الرعية في ظل النظام الاداري الاسلامي تأسيس نظام قضائي يكفل التعايش السلمي بين الأفراد على اختلاف فئاتهم فلا يعتدي أحد على حقوق الآخرين، فالإنسان لا يقدر على العيش وحده فلا حياة للبشر إلا باجتماعهم، وتعاونهم على ضرورات حياتهم، وكثيراً ما يفضي ذلك بباعث من الأثرة، وحب الذات إلى الخصومة والتنازع، ولذا استحال بقاؤهم فوضى دون حاكم يزع بعضهم عن بعض "[٤].

وفي العهد النبوي كان الرسول الكريم يتولى القضاء بين المسلمين بنفسه، وأحياناً كان يطلب إلى أحد الصحابة أن يقضي بحضرته، وفي حالة غيابه كان يعهد إلى صحابّي بالقضاء، وبانتشار الاسلام، وتكاثر جماعته، وتعدد الوقائع والأحداث عمد الرسول إلى تولية أحد المسلمين على بلد، وكان من مهام هذا الوالي القضاء[٥]، أما في عهد أبي بكر الصديق فلم يحدث تغير كبير على النظام القضائي، إذ كان الخليفة متولياً شؤون القضاء في مركزه، ويساعده عدد من الصحابة، والولاة كانوا يقومون به في الأمصار باعتباره جزءاً من مهام وظيفتهم، وفي عهد عمر بن الخطاب لجأ عمر إلى

---

(١) تاريخ الرسل والملوك، ٢٠٤/٤.

(٢) المصدر نفسه، ٦٥/٤، ٨١؛ الرقابة الادارية في النظام الاداري الاسلامي، ص: ٢٠٦-٢٠٧؛ عمر بن الخطاب، ص: ٦٦-٦٧.

(٣) أنساب الأشراف، ١٦٧/٢-١٧٥.

(٤) النظام القضائي في العهد النبوي وعهد الخلافة الراشدة، ص: ٣٣٨.

(٥) المرجع نفسه، ص: ٣٣٨-٣٤٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تعيين قضاة في بعض الولايات، وفي الولايات الأخرى جمع للولاة بين الولاية والقضاء[١]، وقد عُني عمر بالقضاء عناية شديدة، وتتجلّى هذه العناية في رسائله التي حملت توصيات، وتعليمات إلى مَن يقوم بالقضاء من ولاة وقضاة، وتُعد تعليماته أسساً للقضاء في هذا العصر وبعده.

روى سفيان بن قطان عن أبيه أنّ عمر بن الخطاب كتب إلى أبي موسى الأشعري: " لا تستقضينّ الاّ ذا مال وذا حسب؛ فإنّ ذا المال لا يرغب في أموال الناس، وإنّ ذا الحسب لا يخشى العواقب بين الناس "[٢]، وكتب إلى معاذ بن جبل وأبي عبيدة حين بعثهما إلى الشام: "... انظر رجالاً من صالحي من قبلكم فاستعملوهم في القضاء، وأوسعوا عليهم وارزقوهم، واكفوهم من مال الله "[٣]. يرى عمر أن القاضي ينبغي أن يتمتع بالقوة من جهتين: الأولى: القوة المادية التي تجعله عفيف النفس لا يضعف أمام الاغراء المادي، والثانية: قوة الحسب والنسب فلا يخشى من هو ذو شرف وحسب بأخذ الحق منه، والخصلة الأخرى أن يكون رجلاً صالحاً في سلوكه وأخلاقه، والقاضي لا بدّ أن يكون موسّعاً عليه في الرزق لئلا يستغلّ مركزه في سدّ احتياجاته، وحين يكون رزقه موفوراً من الدولة فلا عذر له إذا ما ضيّع الحقوق ولم يحكم بالعدل.

أما الطرق والوسائل التي يتم بها الفصل بين الناس فقد كانت نصب عينيّ عمر، وله جملة من الرسائل في ذلك: روى عامر الشعبي أن عمر كتب إلى معاوية بن أبي سفيان يقول: " أما بعد، فإني كتبت إليك بكتاب في القضاء لم آلك ونفسي فيه خيراً، الزم خمس خصال يسلم لك دينك، وتأخذ فيه بأفضل حظك: إذا تقدم إليك خصمان فعليك بالبينة العادلة، أو اليمين القاطعة، وأدن الضعيف حتّى يشتدّ قلبه، وينبسط لسانه، وتعهد الغريب فإنك إن لم تتعهده ترك حقّه، ورجع إلى أهله، وإنما ضيّع حقه من لم يرفق به، وآسِ بينهم في لحظك وطرفك، وعليك بالصلح بين الناس ما لم يستبن لك فصل القضاء "[٤]، وهذا النص يؤكد أهميّة العامل النفسي في القضاء في حالات ثلاثة؛ فالضعيف بحاجة

---

(١) أحمد عبد المنعم البهي، تاريخ القضاء في صدر الإسلام، مطبعة لجنة البيان العربي، مصر، ١٩٦٥، ص: ١٩-١٢٣؛ ناجي مصطفى صبحة، الواقع التاريخي للقضاء في صدر الإسلام، رسالة ماجستير، جامعة النجاح الوطنية، ١٩٩٦، فلسطين، نابلس، ص: ٣١-٦٤؛
Muhammad Hamidullah, Administration of Justice in Early Islam, Vo. XI, No. 2, Islamic Culture Board, 1937, pp. 163-171.

(٢) أخبار القضاة، ٧٦/١-٧٧.

(٣) أبو محمد، عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة، (ت ٦٣٠هـ)، المغني، تحقيق: محمد سالم محيسن وشعبان محمد إسماعيل، ١١ج، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٣٧/٩.

(٤) أبو يوسف، الخراج، ص: ٢٦٤؛ البيان والتبيين، ١٥٠/٢؛ أخبار القضاة، ٧٥/١، العقد الفريد، ٨٤/١، تاريخ مدينة دمشق، ترجمة: عمر بن الخطاب؛ تحقيق/ سكينة الشهابي، ص: ٢٣٨، الرياض النضرة، ٢٩٦/٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إلى من يشدّ أزره، ويقف بجانبه ليشعر بالقوة، ويقدر على طرح قضيته، أما الغريب فإنه يخاف على نفسه وهو بعيد عن أهله ووطنه، لذلك يتوجب على القاضي رعاية هذا الغريب، وقضاء حوائجه بسرعة حتى لا يملّ، ويترك حقه عائداً إلى أهله؛ لأنه ليس مثل من هو في أرضه، وبين أهله يتابع قضاياه في يسر وسهولة، وفي حالة ضياع حقوق هذا الغريب فإن المسؤولية تقع على عاتق القاضي الذي لم يعجل النظر في شكواه، والأمر الثالث حرص النظام القضائي على نزاهة القضاة، فهم طرف محايد لا يحق لهم الانحياز إلى أحد الأطراف ولو بنظرة رضا واشفاق أو نظرة غضب، فالقاضي " يحتاج إلى العدل في لحظه، ولفظه، وقعود الخصوم بين يديه، ... ، ولا يرفع صوته على أحد الخصمين ما لا يرفعه على الآخر "[١]، ودعا عمر إلى المساواة بين الناس بحيث يكون القريب، والبعيد منهم سواء في قوله للقضاة: " اجعلوا الناس عندكم في الحق سواء قريبهم كبعيدهم وبعيدهم كقريبهم "[٢]، ومبدأ المساواة هذا يبعث الاطمئنان في نفوس المتقاضين بأن قضاياهم في مأمن من الحيف والميل[٣]، وحذّر عمر القضاة من قبول الرشوة، والحكم بغير الحق فقال: إياكم والرشى والحكم بالهوى "[٤]، لأن الرشوة تقدم لإحقاق باطل، والحكم بغير ما أنزل الله من الحق ممّا يفقد الناس ثقتهم بالمؤسسة القضائية، ويدفعهم إلى أخذ حقهم بأيديهم مما يفضي إلى تفشي الفوضى والنزاع المستمر بين الناس، ولا بدّ للقاضي من ترك الغضب جانباً وتنحيته عن القضاء قال عمر في رسالته إلى شريح: " لا تقضِ بين اثنين وأنت غضبان[٥]، وحذر عماله من الغضب فقال لهم: " إياكم وأن تأخذوا الناس عند الغضب "[٦]، وإذ ما غضب القاضي عليه ألا يصدر حكماً بل يصبر حتى يسكن ما به لأنّه " بالغضب ينعدم اعتدال الحال، وربما يجري على لسانه من غضبه مالاً ينبغي أن يسمع الناس ذلك منه، وربما يتغيّر لونه على وجه لا ينبغي أن يراه الناس على تلك الصفة، أو إذا ظهر به الغضب عجز صاحب الحق عن إظهار حقه بالحجة خوفاً منه "[٧]، وهذا يتطلب إنساناً قادراً

---

(١) ابن قتيبة الدينوري، أبو محمد عبد الله بن مسلم، (ت ٢٧٦هـ)، عيون الأخبار، ط١، تحقيق: محمد الإسكندراني، ٢م، دار الكتاب العربي، ١٩٩٤، ١٠٦/١.

(٢) السنن الكبرى، ١٣٥/١٠.

(٣) محمد بن عبد الحمن البكر، السلطة القضائية وشخصية القاضي، ط١، الزهراء للاعلام العربي، ١٩٩٨، ص: ٣٠١.

(٤) السنن الكبرى، ١٣٥/١٠.

(٥) البيان والتبيين، ١٥٠/٢.

(٦) السنن الكبرى، ١٣٥/١٠.

(٧) شمس الدين السرخسي، (ت ٤٩٠هـ)، المبسوط، ط١، ١٥م، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٣، ٦٧/١٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

على كبح جماح غضبه والسيطرة على نفسه، ودخول مجلس القضاء، وقد خلف وراءه كل ما يمكن أن يؤثر سلبا على حكمه.

وقد تشدد الخلفاء في سدّ كل الثغرات التي يظن أنها ستؤثر في نزاهة القضاة، وفي ذهاب حشمة القضاء، وجاهه بين الناس؛ جاء في رسالة عمر إلى القاضي شريح: " لا تسار ولا تمار، ولا تضار، ولا تبع، ولا تبتع في مجلس القضاء[١]، وقال في رسالة أخرى: '... إني أعوذ بالله أن تدركني وإياكم ضغائن محمولة، وأهواء متبعة، ودنيا مؤثرة، فأقيموا الحق ولو ساعة من نهار"[٢]. وفي هذين النصين دعوة إلى اجتناب المشاورات في مجلس القضاء، لأن القاضي إذا أجرى المشورة فيه ربما يشتبه طريق الفصل عليه، وربما يظن جاهل أنه لا يعرف حتى يسأل فيزدري به، وينبغي على القاضي الا يقصد الإضرار بالخصوم في تأخير الخروج، ولا ينغص عليهم في استعجاله فيعجزون عن إقامة الحجة، وعليه ألا يضرهم برفع صوته، أو في أخذه بسقط كلامهم إن زلّوا[٣]، ومجلس القضاء ليس مكاناً للبيع والشراء لأنه مجلس إظهار حق، وبيان أحكام الدين، لذلك يتوجب على القاضي ألا يخلط ذلك بأعمال الدنيا التي قد تشغله عن النظر في أمور الناس، وعمله في التجارة قد يدفع الناس إلى محاباته.

وقد راعى النظام القضائي في الاسلام مشاعر الرعية في الفصل القضائي بينهم، فدعا عمر القضاة ألا يبتّوا في النزاعات الا بعد إعطاء المتخاصمين فرصة لمراجعة أنفسهم، والتصالح فيما بينهم من غير تدخل الدولة الذي يورث القطيعة، وينتج الخلاف، ويفسد القرابة ويوغر صدور الأطراف المتنازعة، في حين أن تصفية الخلاف دون تدخل القضاء يفسح المجال للحفاظ على علاقات ودّية: " ردّوا القرابات عن حرا[٤] القضاء فإن ذلك يورث الضغائن "[٥]، وفي رسالة أخرى قال: " ردّوا الخصوم حتى يصطلحوا، فإن فصل القضاء يورث بين القوم الضغائن "[٦].

والمشورة لا بدّ من أن تكون نصب عينيّ القاضي؛ لأنها تُتيح له إشراك طرف آخر للإدلاء برأيه حول قضية معينة من أجل الوصول إلى قرار سليم في القضية المطروحة للنقاش فيها؛ لذلك دعا عمر القضاة إلى اتخاذ القرار بعد مشاورة ذوي الرأي والحجا: " وشاور ذوي الرأي من جلسائك

---

(١) البيان والتبيين، ٢/١٥٠.

(٢) السنن الكبرى، ١٠/١٣٥.

(٣) المبسوط، ١٦/٦٧.

(٤) حرا القضاء – ساحة القضاء، اللسان، مادة: حرا.

(٥) الجاحظ، الرسائل، ط١، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، ١٩٩١، ص: ١/٢٦٥.

(٦) المبسوط، ١٦/١١٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وإخوانك "[١]، والقرار القضائي يتخذه القاضي بعيداً عن المحاباة لقريب أو بعيد، وبلغ من حرص عمر على نزاهة القاضي أن دعا القضاة إلى معاداة الوالد والأهل في سبيل الحق: "... فإنه مجلس لا يُحابى فيه قريب، ولا يجفى فيه بعيد، عادِ ولدك، وأهل بيتك فيما ولّيت من الحكم، فإن فيه مقحمات جهنم "[٢]، ودعا عمر المسلمين إلى عدم الحقد على القضاة لأنهم يحكمون وفق أقوال الشهود، والبينات التي بين أيديهم: "... ولا تحملوا على حكامكم ماجرّ عليكم شهودكم، فإنّ الحاكم يحكم على ما يسمع، أو يُشهد به عنده، والله حسيب للشاهد، والآخذ لغير الحق "[٣].

ومن الجوانب الأخرى التي حملتها الرسائل المتصلة بالقضاء أحكام قضائية في مجالات متنوعة؛ إذ كان القضاة في بعض الأحيان يعجزون عن اتخاذ قرار في قضية معينة فيرسلون إلى الخليفة طالبين رأيه فيها، وبعض هذه الرسائل كانت أحكاماً ترسل من قبل الخليفة يطلب إلى القضاة الالتزام بها فيما يصل إليهم من قضايا متنازع فيها بين الناس؛ جاء في مسند أحمد بن حنبل أن عمر ابن الخطاب كتب إلى عماله: " اقتلوا كل ساحر وساحرة، وفرّقوا بين كل ذي محرم من المجوس"[٤]، وروى الشعبي أن عمر كتب إلى شريح القاضي: " اقضِ بعين الدابة إذا فقئت بربع ثمنها، ولا تجيزنّ لامرأة هبة بشيء حتى تلد بطناً او يحول عليها حول وهي في بيت زوجها، ولا تورث حميلا "[٥]، وروى أبو أمامة بن سهل بن حنيف أن رجلاً رمى رجلاً بسهم فقتله، وليس له وارث الا خال، فكتب أبو عبيدة بخبره إلى عمر، فأرسل عمر إليه: " إن النبيّ قال: الله ورسوله مولى مَن لا مولى له، والخال وارث مَن لا وارث له "[٦]، وأرسل إلى شريح يقول " اقضِ للجار بالشفعة "[٧]، وكتب عمر بشأن حرية المرأة في تقديم مالها لزوجها، أو التوقف عن ذلك فقال: " إن النساء يعطين على الرغبة والرهبة، وأيّما امرأة نحلت[٨] زوجها، فأرادت أن تعتصر[٩] فهو لها "[١٠].

---

(١) أنساب الأشراف، تحقيق: سهيل زكار، ١٠/٣٩٠.

(٢) المصدر نفسه، ١٠/٣٩٠.

(٣) المصدر نفسه، ١٠/٣٧٦.

(٤) أحمد بن حنبل، (ت ٢٤٢هـ)، المسند، ٥م، المكتب الاسلامي، دار صادر، بيروت، ١/١٩٠-١٩١.

(٥) أخبار القضاة، ١/١٩٢.

(٦) مسند أحمد بن حنبل، ١/١٩٠.

(٧) أخبار القضاة، ٢/١٩٢.

(٨) نحلت: أعطت، اللسان، مادة: نحل.

(٩) تعتصر: ترجع، اللسان، مادة: عصر.

(١٠) المغني، ٥/٦٨٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن رسائل القضاء التي أثير حولها جدل كبير بين القدماء والمحدثين الرسالة المنسوبة إلى عمر بن الخطاب والمرسلة إلى أبي موسى الأشعري، وسأعرض للانتقادات التي وجهت إلى الرسالة سنداً ومتناً، ولبعض المآخذ والتساؤلات التي عرضت لي في أثناء دراسة الرسالة، ودراسة ما كتب حولها.

٤٩٤٨٧٨

أما سند الرسالة فقد كان البيان والتبيين أول مصدر رويت فيه، ولرواياتها عند الجاحظ طريقان هما: " رواها ابن عُيينة، وأبو بكر الهذلي، ومسلمة بن محارب؛ رووها عن قتادة، ورواها أبو يوسف يعقوب بن ابراهيم عن عبيد الله بن أبي حميد الهذلي عن أبي المليح أسامة الهذلي "[١] والطريق الأول فيه أبو بكر الهذلي قال فيه ابن معين " ليس بشيء وكان يكذب "، وقال أبو حاتم " لا يحتج بحديثه "، وقال النسائي " ليس بثقة "[٢]، وفيه قتادة بن دعامة الذي انتهى به هذا الطريق فقد قيل إنه " كان أحفظ الناس "، وقال الشعبي: انه كان " حاطب ليل "، وقال ابن حبان " كان مدلّساً " وتوفي سنة ١١٧هـ[٣]، ونلتقي في الطريق الثاني بعبد الله بن حميد الهذلي الذي لم ينل ثقة علماء الجرح والتعديل؛ قال فيه أحمد بن حنبل: " ترك الناس حديثه "، وضعفه ابن معين، وقال النسائي " ليس بثقة "، وقال البخاري " منكر الحديث "[٤].

وفي عيون الأخبار أسندها ابن قتيبة إلى كثير بن هشام المتوفى ٢٠٨هـ، والذي رواها عن جعفر بن برقان المتوفى سنة ١٥٤هـ[٥]، ولم يسند جعفر إلى أحد[٦].

ورويت الرسالة مسندة عند البلاذري في أنساب الأشراف، وسنده هو: " حدثني إبراهيم بن مسلم الخوارزمي عن وكيع عن سفيان عن رجل عن الشعبي... "[٧] ومن أخذ عنه الشعبي رجل مجهول الهوية لا نعرف مدى عدالته.

وفي أخبار القضاة لوكيع أسندت الرسالة على النحو التالي: قال وكيع: " حدثني علي بن محمد ابن عبد الملك بن أبي الشوارب، قال: حدثنا إبراهيم بن بشار، قال: حدثنا سفيان؛ قال: حدثنا ادريس

---

(١) البيان والتبيين، ٤٩/٢.

(٢) تهذيب التهذيب، ٤٠/١٢.

(٣) المصدر نفسه، ٣٠٦/٨-٣٠٩.

(٤) المصدر نفسه، ٩/٧.

(٥) عيون الأخبار، ١٠٦/١.

(٦) شمس الدين، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية، (ت ٧٥١هـ)، اعلام الموقعين عن رب العالمين، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، ٤م، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٣، ٨٦/١.

(٧) أنساب الأشراف، تحقيق: سهيل زكار، ٣٨٩/١٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أبو عبد الله بن أدريس، قال: أتيت سعيد بن أبي بردة فسألته عن رسائل عمر التي كان يُكتب بها إلى أبي موسى - وكان أبو موسى قد أوصى إلى أبي بردة - فأخرج لي كتاباً... "[١]، وإبراهيم بن بشار الرمادي المتوفى في سنة ٢٣٠هـ، قال فيه البخاري: " يهم في الشيء بعد الشيء "، وقال ابن معين: " ليس بشيء وكان يملي على الناس ما لم يقله سفيان " وقيل فيه إنه كان يغير الألفاظ فيكون زيادة في الحديث[٢].

وفي المحلّى لابن حزم أُسندت الرسالة إلى عبد الملك بن الوليد بن معدان، وقال فيه ابن حزم: " هذه الرسالة لم يروها الا عبد الملك بن الوليد بن معدان عن أبيه وهو ساقط بلا خلاف... "[٣]، وقال فيه أبو حاتم: " ضعيف الحديث "، وقال النسائي " ليس بالقوي "، وقال ابن حبان: " يقلب الأسانيد، لا يحلّ الاحتجاج به "[٤].

ولما كان أمر المصادر الرئيسة لهذه الرسالة على ما علمناه فقد بات من الصعب تأكيد صحة الرسالة؛ فهي أسانيد منقطعة بعيدة عن زمن الحدث، وفيها رواة مجروحون وفيها مجاهيل.

أما مضمون الرسالة فإنه يثير جملة من التساؤلات والمآخذ فيما يلي:

١- إن هذه الرسلة تعد الرسالة الوحيدة التي اتسمت بالطول قياساً على الرسائل القضائية الأخرى التي كانت موجزة، وهي بكل ما حملته من تشريعات قضائية تعد مرسوماً قضائياً يحتاج اليه كل القضاة، وكل الولاة الذين كان القضاء جزءاً من مهامهم الأخرى، وهذا كله يدفعنا إلى سؤال عن سبب إرسالها إلى أبي موسى الأشعري وحده دون القضاة والولاة الآخرين؛ فالنظام القضائي ما زال في بداية تكوينه، وترسيخ قواعده وأصوله، وهذه الرسالة حقيق بها أن تكون عامة ترسل إلى الولاة والقضاة في أرجاء الدولة الاسلامية وممّا يعزز هذا السؤال أن الرسالة غير متعلقة بحادثة بعينها وقعت في ولاية أبي موسى؟.

---

(١) أخبار القضاة، ٢/٧٠.

(٢) تهذيب التهذيب، ١/٩٩-١٠٠.

(٣) ابن حزم، ابو محمد علي بن أحمد بن سعيد (ت ٤٥٦هـ)، المحلّى، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي، دار الأفاق الجديدة، ١٢م، ١/٥٨-٥٩؛ ابن حزم، ملخص إبطال القياس والرأي والاستحسان والتقليد والتعليل، تحقيق: سعيد الأفغاني، مطبعة جامعة دمشق، ١٩٦٠، ص: ٦، وقال ابن حزم في الرسالة نفسها " إنّ رسالة عمر جاءت من طريق آخر هو طريق عبد الله بن أبي سعيد وهو مجهول "، الملخص، ص: ٦.

(٤) تهذيب التهذيب، ٦/٣٧٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٢- إن أول مصدر روى الرسالة كان البيان والتبيين، وذكر الجاحظ أن أبا يوسف من الذين رووها[١] في حين أن كتاب الخراج لأبي يوسف لم يذكر فيه الا مقطع واحد منها هو " سوّ بين الناس في مجلسك وجاهك، حتى لا ييأس ضعيف من عدلك، ولا يطمع شريف في حيفك "[٢]، وكتاب الخراج أحق في رواية رسالة قضائية مثل هذه كاملة، فهل اختصرها أبو يوسف؟ أم أنها لم تكن تعدو ما نقل في " الخراج "؟ ويحضرنا سؤال آخر وهو أن أبا يوسف قد روى رسالة عمر بن الخطاب في القضاء إلى أبي عبيدة كاملة[٣]، وأثبت في كتابه خمس عشرة رسالة لعمر بن الخطاب وجلّها رسائل فقهية[٤]، ولا أظن أن أباً يوسف يتجاوز أحكاماً قضائية مثل الأحكام المتضمنة في رسالة عمر لانها مبادئ رئيسة في إدارة الدولة والقضاء.

٣- جاء في الرسالة دعوة إلى اتباع القياس والأخذ بالرأي في القضاء: "... الفهم الفهم عندما يتلجلج في صدرك ما لم يبلغك في كتاب الله ولا في سنة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ اعرف الأمثال والأشباه وقس الأمور عند ذلك، واعمد إلى أحبها إلى الله، وأشبهها بالحق فيما ترى... "[٥]. لقد اختلف حول هذه الدعوة اختلافاً كبيرا؛ فابن حزم ينفي نفياً قاطعاً أن يكون القياس قد اتبع زمن الصحابة قال في " المحلى ": "... فإن ادّعوا أن الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ أجمعوا على القول بالقياس قيل لهم كذبتم بل الحق أنهم كلهم اجمعوا على إبطاله، وبرهان كذبهم انه لا سبيل إلى وجود الرسالة المكذوبة الموضوعة على عمر رضي الله عنه... "[٦]، وفي الملخص تتبع ابن حزم كل الأخبار التي تنسب القياس إلى عصر النبوة والخلافة وضعفها، وعلى الطرف الآخر نجد علماء أقرّوا أخذ عمر بالقياس والرأي ورووا

---

(١) البيان والتبيين، ٤٨/٢.

(٢) أبو يوسف، الخراج، ص: ٢٦٤.

(٣) المصدر نفسه، ص: ٢٦٤.

(٤) أبو يوسف، الخراج، ص: ١١٢، ١٢٧، ١٩٣، ١٩٦، ٢٦٤، ٢٨١، ٢٨٣، ٣٠٠، ٣١٢، ٤٠٢.

(٥) البيان والتبيين، ٤٩/٢؛ أنساب الأشراف، تحقيق: سهيل زكار، ٣٩٠/١٠-٣٩١؛ أبو العباس المبرد، محمد بن يزيد، (ت ٢٨٥هـ)، الكامل، ط١، تحقيق: محمد أحمد الدالي، ٣م، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٦، ٢٠/١، إعجاز القرآن، ص: ١٤١، محمد حميد الله، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، ط٦، دار النفائس، بيروت، ١٩٨٧، ص: ٤٢٥-٤٣٦.

(٦) المحلى، ٥٨/١-٥٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حوادث تؤيد ذلك[١]، ومن الصعب البت في هذه القضية الشائكة وإصدار حكم قاطع فيها، ولكن يمكن إثارة بعض التساؤلات لعلها تسعف في اثبات النص موضع الدراسة، أو تعزّز الشك فيه؛ إن طلب الأخذ بالقياس جاء في رسالة أخرى منسوبة إلى عمر بن الخطاب ومرسلة إلى القاضي شريح؛ حدث النسائي عن الشعبي عن شريح قال: " كتب إليّ عمر: إذا أتاك قضاء فاقضِ بما في كتاب الله، فإن أتاك ما ليس في كتاب الله، فاقضِ بسنة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فإن أتاك ما ليس في سنة نبي الله، فاقضِ بما يجتمع فيه رأي المسلمين، فإن أتاك ما لم يجتمع فيه رأي المسلمين، فاختر أحدى اثنتين: إن شئت فاجتهد رأيك وتقدم، وإن شئت فتأخر، وأن تتأخر خير لك "[٢]، ويكاد النصان يحملان الفكرة ذاتها الا أن صياغة المضمون مختلفة وكأنهما صدرا عن شخصيتين؛ ففي النص الأول مصطلحات دقيقة محددة لا توجد في النص الثاني، وهذا ما حدا ببعض المستشرقين إلى القول باختلاق الرسالة المنسوبة إلى عمر والمرسلة إلى أبي موسى لما فيها من مصطلحات تعدّ وليدة عصر تالٍ لهذه الحقبة[٣].

٤- بما أن عمر بن الخطاب قد حدد في الرسالتين الوسائل التي يتوصل بها إلى اتخاذ القرار في القضاء، فكيف تُفسر رسائله إلى شريح وإلى غيره من القضاة التي تحمل أحكاماً قضائية عرضت للقضاة والولاة وأرسلوا اليه يستفتونه فيها، إن رسالة أبي موسى تخلو من حث عمر له على طلب رأيه فيما أشكل عليه مع أن إحدى روايات رسالة شريح فيها دعوة لاستشارة عمر: "... فأنت بالخيار إن شئت تجتهد رأيك وإن شئت أن تؤامرني[٤] ولا أرى مؤامرتك إياي إلا أسلم لك "[٥].

٥- إن القياس يتطلب وجود سجل قضائي تدون فيه القضايا والأحكام الصادرة بشأنها ويكون بين يدي القاضي ليقيس على ما فيه من أحكام قضائية، وهذا لم يكن متاحاً في هذا العصر، الذي امتاز بسهولة القضاء " وبساطته لعدم وجود قضايا معقدة، فلم ترد إلينا إشارة عن وجود كاتب

---

(١) ابن تيمية وابن القيم، رسالتان في معنى القياس، ط١، تحقيق: عبد الفتاح محمود عمر، دار الفكر، عمان، ١٩٨٧؛ اعلام الموقعين، ١/٢٠٦-٢٣٩، وانظر البهي، تارخ القضاء، ص: ١٣٤-١٣٩،

(٢) أخبار القضاة، ٢/١٩٠، سنن البيهقي، ١٠/١٠٩.

(٣) Ignaz Goldziher, The Zahiris, their Doctrine and their History, Leiden, 1971, p. g.

(٤) توآمرني، تستشيرني، اللسان، مادة: آمر.

(٥) سنن البيهقي، ١٠/١١٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أو سجل للقاضي تدون فيه الأحكام القضائية "[١]، وهذا الأمر لم يُتح للسنة النبوية التي لم تدوّن في هذا العصر، ولم يكن كل القضاة حافظين لما أُثر عن رسول الله من أحاديث تتصل بالقضاء والفصل بين الناس، فقد كانت إحدى رسائل عمر القضائية المرسلة إلى أحد القضاة بمثابة حديث نبوي كما مرّ، وطريقة التوصل إلى الحكم القضائي لعلها كانت تتم وفق ما رواه أبو عبيد: كان أبو بكر إذا ورد عليه الخصوم نظر في كتاب الله، فإن وجد فيه ما يقضي به بينهم قضى به، وإن لم يجد في الكتاب وعلم من رسول الله في ذلك الأمر سنة قضى بها، فإن أعياه، خرج، فسأل المسلمين، وقال: أتاني كذا وكذا، فهل علمتم أن رسول الله قضى في ذلك بقضاء، فربما اجتمع عليه النفر كلهم يذكر عن رسول الله فيه قضاء، فيقول أبو بكر: الحمد لله الذي جعل فينا من يحفظ عن نبينا، فإن أعياه أن يجد في سنة عن رسول الله جمع رؤوس الناس وخيارهم، فإن أجمع رأيهم على أمر قضى به، وكان عمر يفعل ذلك، فإن أعياه أن يجد في القرآن والسنة نظر هل كان فيه لأبي بكر قضاء؟ فإن وجد أبا بكر قضى فيه بقضاء قضى به، وإلا دعا رؤوس المسلمين، فإن اجتمعوا على شيء قضى به[٢]، وهذا الأسلوب يتفق وحالة القضاء في ذلك الوقت الذي لم تكن السنة فيه مجموعة في كتاب بل كانت في صدور الناس يحفظ أحدهم منها ما لا يحفظه الآخر، فربما عرضت للقاضي مسألة فلا يرى فيها نصاً ويكون النص وهو الحديث عند غيره[٣].

٥- ومما جاء في الرسالة وكان موضع نقاش ما يتصل بالشهادة: " المسلمون عدول بعضهم على بعض، الا مجلوداً في حدّ، أو مجرّباً عليه شهادة زور، أو ظنيناً في ولاء أو قرابة... "[٤]، وهذا يعني قبول شهادة جميع المسلمين باعتبار أن الأصل في كل واحد منهم أن يكون عدلاً باستثناء أفراد تعرّضت عدالتهم للشك، أما غير هؤلاء فهم عدول[٥]، روى مالك بن أنس في الموطأ أن عمر بن الخطاب جاءته شكوى من رجل من أهل العراق تفيد بأن شهادات الزور انتشرت في العراق، فقال عمر: " والله لا يؤسر رجل في الاسلام بغير العدول "[٦]، وعلّق

---

(١) التنظيمات الادارية في عهد الخليفة عمر بن الخطاب: ٢٤٩.

(٢) أعلام الموقعين، ٦٢/١.

(٣) محمود بن محمد بن عرنوس، تاريخ القضاء في الاسلام، مكتبة الكليات الأزهرية، ص: ٢٠.

(٤) البيان والتبيين، ٤٩/٢.

(٥) منهج عمر بن الخطاب في التشريع، ص: ٥٠.

(٦) مالك بن أنس، الموطأ، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، ٢م، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٨٥، ٧٢٠/٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ابن فرحون على قول عمر: " وقول عمر في هذه الرسالة المؤمنون عدول بعضهم على بعض رجع عمر عن ذلك بما رواه مالك في الموطأ "[١]، واتخذ هذا مطعناً في الرسالة بأن عمر لم يتبع ما قرره فيها، وحين ذكر مالك قصة الرجل مع عمر لم يأت على ذكر رسالة عمر في القضاء، ولم يربط بين هذه الحادثة وما جاء في الرسالة بشأن عدالة الشهود ولو افترض جدلاً أن عمر قد غيّر رأيه في هذه القضية[٢] أما كان يحسن به إرسال كتب للولاة بنسخ كلامه الأول خاصة وان أمر الشهادات الزور قد تفشى في العراق فما المانع من انتشاره في الأقاليم الأخرى، ومما يدعو للغرابة أن مالك بن أنس لم يأت على ذكر رسالة عمر إلى أبي موسى في القضاء وهو الأجدر بروايتها للأهمية التي تتضمنها، يُضاف إلى ذلك الفارق الزمني الكبير بين مالك بن أنس (١٧٩هـ) وابن فرحون (٧٩٩هـ)، ولم يربط أحد من المتقدمين على ابن فرحون بين هذه الحادثة وما جاء في الرسالة المنسوبة إلى عمر بن الخطاب.

وبعد كل ما تقدم أجد أن الذي تميل إليه النفس ويطمئن إليه القلب، ويوافق الواقع القضائي في عهد عمر بن الخطاب هو أن هذه الرسالة بنيت على أصل رواه بعض الرواة مثل أبي يوسف والشعبي، ويخلو هذا الأصل من القضايا التي كانت موضع نقاش وكان من الصعب اثباتها. أما الجزء الذي أراه أصلاً فهو قول عمر: " آسِ بين الناس في مجلسك ووجهك، حتى لا يطمع شريف في حيفك ولا يخاف ضعيف من جورك، البينة على مَن ادّعى واليمين على من أنكر، والصلح جائز بين المسلمين الا صلحاً حرّم حلالاً أو أحل حراماً، ولا يمنعنك قضاء قضيته بالأمس فراجعت فيه نفسك، وهديت فيه لرشدك أن ترجع عنه إلى الحق "[٣] والجزء الآخر هو: " ... إن من يخلص نيته فيما بينه وبين الله ـ تبارك وتعالى ـ ولو على نفسه يكفه الله ما بينه وبين الناس، ومَن تزين للناس بما يعلم الله منه خلاف ذلك هتك الله ستره، وأبدى فعله، فما ظنك بثواب غير الله في عاجل رزقه

---

(١) برهان الدين ابراهيم بن علي بن أبي القاسم، (ت ٧٩٩هـ)، تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام، ٢م، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٩٥٨، ٢١/١.

(٢) منهج عمر بن الخطاب في التشريع، ص: ٥-٤٥ أحمد عبد المنعم البهي، تاريخ القضاء في الإسلام، مطبعة لجنة البيان العربي، القاهرة، ١٩٦٥، ص: ١٣٦-١٣٨.

(٣) البيان والتبيين، ٤٩/٢-٥٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وخزائن رحمته "[١]، أما ما يتصل بالقياس والرأي فلعلّه أضيف إلى النص فيما بعد بفعل الخلاف الذي وقع بين انصار الظاهر ومن خالفهم. والله أعلم "[٢].

وقد وصلتنا جملة من الرسائل تحمل في ثناياها دلائل عناية الرسول والخلفاء من بعده بشؤون الرعيّة على اختلاف مجالاتها وتعددها مثل: العبادات، وطرق التعامل مع بعضهم، وتربية الأبناء، وحتى ما يتصل بالبناء.

نجد في الرسائل حرصاً على الصلاة، وتحديد أوقاتها؛ فقد أرسل الرسول إلى مصعب بن عمير حين أرسله إلى المدينة رسالة يأمره فيها بإقامة الجمعة في المدينة: " أما بعد، فانظر اليوم الذي تجهر فيه اليهود بالزبور لسبتهم، فاجمعوا نساءكم وأبناءكم، فإذا مال النهار عن شطره عند الزوال من يوم الجمعة، فتقرّبوا إلى الله بركعتين "[٣]، وكانت الصلاة أهمّ أمور الرعية عند عمر بن الخطاب، والذي يتساهل بها ويضيع أداءها في أوقاتها فإنه لا يتورع عن تجاوز فرائض أخرى، ويسهل عليه ارتكاب الآثام، وقد حدد عمر للمسلمين أوقات الصلوات في أحد كتبه؛ روى مالك مولى عبد الله بن عمر أن عمر بن الخطاب كتب إلى عماله: " إن أهم أمركم عندي الصلاة، فمن حفظها، وحافظ عليها حفظ دينه، ومَن ضيّعها فهو لما سواها أضيع، صلّوا الظهر إذا كان الفيء ذراعاً إلى أن يكون ظل أحدكم مثله، والعصر والشمس مرتفعة بيضاء نقية قدر ما يسير الراكب فرسخين أو ثلاثة قبل غروب الشمس، والمغرب إذا غربت الشمس، والعشاء إذا غاب الشفق إلى ثلث الليل، فمن نام فلا نامت عينه، فمن نام فلا نامت عينه، فمن نام فلا نامت عينه، والصبح والنجوم بادية مشتبكة"[٤]، وكتب إلى أبي موسى: " صلّ الظهر إذا زاغت الشمس، والعصر والشمس بيضاء نقيّة

---

(١) البيان والتبيين، ٢/٤٩-٥٠.

(٢) لمزيد من تعرّف الخلاف حول هذه الرسالة انظر: محمد بن عرنوس، تاريخ القضاء في الاسلام، ص: ١٥-٢١؛ علي حسن عبد القادر، نظرة عامة في تاريخ الفقه الاسلامي، ص: ٧٥-٧٩؛ أحمد البهي، تاريخ القضاء في الاسلام، ص: ١٢٤-١٤١؛ منهج عمر بن الخطاب في التشريع، ص: ٢٤-٤٢، ٥٠٤-٥١٥؛ التنظيمات الادارية في عهد الخليفة عمر بن الخطاب، ص: ٢٢٧-٢٤٧؛ سعد بن سعود بن دريب، رسالة الفاروق لأبي موسى الأشعري - رضي الله عنهما - والمبادئ العامة في أصول القضاء، مجلة البحوث الاسلامية، ع ٧، ١٤٠٣هـ، ص: ٢٦٨-٢٨٩.

(٣) الروض الأنف، ٢/٢٥٥.

(٤) الموطأ، ١/٦-٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قبل أن يدخلها صفرة، والمغرب إذا غربت الشمس، وأخرّ العشاء ما لم تنم، وصلّ الصبح والنجوم بادية مشتبكة، واقرأ فيها بسورتين طويلتين... "[١].

وأرسل كتابين في الصيام يتضمنان حكم رؤية الهلال نهاراً؛ " إن الأهلّة بعضها أقرب من بعض، فإذا رأيتم الهلال نهاراً فلا تفطروا حتى تمسوا أو يشهد رجلان أنهما رأياه بالأمس "[٢]، وقد بلغ عمر بن الخطاب أن قوماً رأوا الهلال بعد الزوال فأفطروا فكتب إليهم يلومهم: " إذا رأيتم الهلال نهاراً قبل الزوال فأفطروا، وإذا رأيتموه بعد الزوال فلا تفطروا... "[٣].

وأرسل عثمان إلى الصحابي عبد الله بن مسعود كتاباً يبين له فيه سبب جمع المسلمين على قراءة واحدة وذلك حين بلغه شدة ذلك على عبد الله؛ روى سيف بن عمر أن عثمان أرسل إلى عبد الله بن مسعود يقول: "... إن الذي أتاك من قبلي ليس برأي ابتدعته، ولا حدث أحدثته، ولكن هذا القرآن واحد، جاء من عند واحد، وهؤلاء قرّاء القرآن عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أهل دار الهجرة، والمهاجرون والأنصار، وصالحو الأمصار قد نهضوا فيه، وقاموا به في كل أفق، وخافوا أن يلبّس من بعدهم، وأن يجعله الناس عضيناً[٤]، وليس بهم أنت، ولا أمثالك "[٥].

وفي العقوبات وتنفيذ حدود الله أرسل أبو بكر الصديق إلى المهاجر بن أبي أمية عامله على صنعاء رسالة بشأن العقوبة التي أوقعها بحق امرأتين تغنّت إحداهما بشتم رسول الله عليه السلام، وتغنّت الثانية بشتم المسلمين؛ وقد كتب بشأن الأولى: " بلغني الذي سرت به في المرأة التي تغنّت وزمرت بشتيمة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلولا ما قد سبقتني فيها لأمرتك بقتلها؛ لأن حدّ الأنبياء ليس يشبه الحدود، فمن تعاطى ذلك من مسلم فهو مرتد، أو معاهد فهو محارب غادر... "[٦]، وكتب اليه في التي تغنت بهجاء المسلمين " أما بعد فإنّه بلغني أنّك قطعت يدا امرأة في أن تغنت بهجاء المسلمين ونزعت ثنيتها؛ فإن كانت ممن تدعي الإسلام فأدب وتقدمة دون المثلة، وإن كانت ذميّة فلعمري لما صفحت عنه من الشرك أعظم، ولو كنت تقدمت إليك في مثل هذا لبلغت مكروهاً،

---

(١) الموطأ، ١/٦-٧؛ المحلّى، ٣/١٨٥.

(٢) أبو الوليد، محمد بن رشد القرطبي، (ت ٥٩٥هـ)، بداية المجتهد في نهاية المقتصد، ٢م، دار الفكر، ١/١٩٧؛ شمس الدين، ابو الفرج عبد الرحمن بن قدامة المقدسي، (ت ٦٨٢هـ)، الشرح الكبير، ط١، ١٣م، دار الفكر، بيوت، ١٩٨٤، ٣/٧؛ المغني، ٣/١٦٨.

(٣) بداية المجتهد، ١/١٩٨٧؛ الشرح الكبير، ٣/٧.

(٤) عضى الشيء، فرّقه ووزعه، أي جزؤوه أجزاء فتفرقوا فيه، اللسان، مادة: عضا.

(٥) تاريخ مدينة دمشق، ترجمة عثمان بن عفان، ص: ٢٣٩.

(٦) تاريخ الرسل والملوك، ٣/٣٤١-٣٤٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فاقبل الدّعة وإيّاك والمثلة في الناس، فإنها مأثم ومنفرة إلا في قصاص "[١]، وروى سيف بن عمر أن عمر بن الخطاب طلب إلى أبي عبيدة أن يحدّ مَن شرب الخمر ثمانين جلدة على رؤوس الناس، وكان من ضمن الذين عوقبوا أبو جندل بن سهيل بن عمرو، وبعد جلد هؤلاء استحيوا من الناس، ولزموا البيوت، وأصاب أبا جندل الوسواس، فكتب أبو عبيدة إلى عمر: " إن أبا جندل قد وسوس، إلا أن يأتيه الله على يديك بفرج، فاكتب إليه وذكّره..."[٢]، فكتب إليه عمر مبيناً أن باب رحمة الله مفتوح لمن تاب من ذنبه، ولا يغفر الله لمن أشرك به، وأن اليأس والقنوط من مغفرة الله يجب ألا يعرفا طريقاً إلى قلبه: " من عمر إلى أبي جندل: "إن الله لا يغفر أن يشرك به، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء "[٣]، فتب وارفع رأسك، وابرز ولا تقنط، فإن الله عزّ وجل يقول: " يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنّه هو الغفور الرحيم"[٤] "[٥]، وأرسل عمر كتاباً آخر موجهاً إلى الناس الذين عاقبوا من حُدّ عقاباً نفسياً آخر، ودعاهم فيه إلى الأخذ بيد هؤلاء حتى لا يعودوا لارتكاب الذنب مرة أخرى، ومساعدتهم ليكونوا أعضاء صالحين في المجتمع: " عليكم أنفسكم، ومن استوجب التغيير فغيروا عليه، ولا تعيروا أحداً، فيفشو فيكم البلاء "[٦]، وكتب إلى أبي موسى حين عاقب رجلاً شرب الخمر بالضرب، وتسويد وجهه والطوف به، ونهى الناس عن مجالسته: " إذا أتاك كتابي هذا، فمر الناس أن يجالسوه ويخالطوه، وإن تاب فاقبل شهادته "[٧].

وأولى عمر في رسائله النواحي الاجتماعية اهتماماً وعناية كبيرة؛ فأرسل إلى أبي موسى يقول: " مُر ذوي القرابات أن يتزاوروا ولا يتجاوروا "[٨]، فهو يعرف ما قد يجول في النفس البشرية من أن القرب المكاني بين مَن تجمعهم صلة قرابة يكون مدعاة للنزاع والغيرة وهذا بدوره يولّد الحقد بينهم، في حين أن البعد المكاني مع التزاور يضفي على العلاقات جواً من المحبة والرضا، وأمر

---

(١) تاريخ الرسل والملوك، ٣/٣٤١-٣٤٢.

(٢) المصدر نفسه، ٤/٩٨-٩٩.

(٣) سورة النساء، أية ٣٨.

(٤) سورة الزمر، أية ٥٣.

(٥) تاريخ الرسل والملوك، ٤/٩٩، السنن الكبرى، ٩/١٠٥-١٠٦.

(٦) المصدر نفسه، ٤/٩٩.

(٧) سيرة عمر بن الخطاب، ص: ٩٢.

(٨) الميداني، أحمد بن محمد بن أحمد، (ت ٥١٨هـ)، مجمع الأمثال، ط١، تحقيق: نعيم حسين زرزور، ٢م، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٨، ٢/٥٣٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قادة الجيش بعدم غياب المقاتل عن زوجته أكثر من أربعة أشهر حرصاً منه على المحافظة على سلامة العلاقات الأسرية، وتجنب المشكلات التي قد تنشأ من جراء الغياب الطويل للزوج عن بيته وأسرته: " ألا لا تحبسوا رجلاً عن امرأته أكثر من أربعة أشهر... "[١]، ودعا عمر إلى المساواة بين فئات الناس روي أن قوماً قدموا على عامل لعمر بن الخطاب فأعطى العرب وترك الموالي، فكتب إليه عمر: " أما بعد، فبحسب المرء من الشر أن يحقر أخاه المسلم "[٢]، وقيل بل كتب إليه: " ألا سوّيت بينهم "[٣]، وحرص عمر على نشر الانسجام والتوحّد بين أفراد المجتمع جميعاً وذلك عن طريق المساواة بينهم، فسمح لمن اعتق من الأعاجم باللحاق بمواليهم، أو تكوين قبيلة ينضمون تحت لوائها، وهذا له أثره الكبير في نفوس هؤلاء إذ يؤدي إلى الانخراط الإيجابي في المجتمع، ويزيد أواصر الترابط بين جميع فئاته على اختلاف أصولها ومنابتها؛ كتب عمر إلى أمراء الأجناد: "... ومَن أعتقتم من الحمراء فألحقوهم بمواليهم، وعليهم ما عليهم، وإن أحبّوا أن يكونوا قبيلة وحدهم، فاجعلوهم أسوتكم في العطاء والمعروف... "[٤]، ووجه عمر اهتمامه إلى جمع شتات إحدى القبائل إذ أرسل إلى عمّاله يقول "... من كان فيه أحد ينسب إلى بجيلة في الجاهلية، وثبت عليه في الاسلام يعرف ذلك، فأخرجوه إلى جرير "[٥].

وحين ذهب عمر إلى الشام وشرب شراباً يسمى الطّلاء أرسل إلى عامله عمار بن ياسر كتاباً يدعوه فيه إلى السماح للمسلمين بشربه لأنه حلال: "... أما بعد، فإني هبطت أرض الشام، فأتوني بشراب لهم فسألتهم عنه، كيف تصنعون به، فأخبروني أنهم يطبخونه حتى يذهب ثلثاه، ويبقى ثلثه وذلك حين تذهب رتبته[٦]، وريح جنونه، ويذهب حرامه، ويبقى حلاله، والطيب منه، فمر من قبلك من المسلمين فليستعينوا به في شرابهم، والسلام "[٧].

---

(١) الرياض النضرة، ٧٧/٢.

(٢) أبو عبيد، الأموال، ص: ٢٤٨.

(٣) المصدر نفسه، ص: ٢٤٨.

(٤) المصدر نفسه، ص: ٢٤٧.

(٥) تاريخ الرسل والملوك، ٤٦٠/٣.

(٦) الرتبة: تعني الشدّة، القاموس المحيط، مادة: رتب.

(٧) حميد بن زنجويه، (ت ٢٥١هـ)، الأموال، ط١، تحقيق: شاكر ذيب فياض، ٢م، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الاسلامية، الرياض، ٥٥٩/٢؛ الأزدي، فتوح الشام، ص: ٢٥٥، غزوات ابن حبيش، ٣٠٩/١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ودعا المسلمين إلى الابتعاد عما له صلة بأصحاب الديانات الأخرى مثل الصّلب والخنازير: "...أدبوا الخيل، ولا ترفعوا بين ظهرانيكم الصلب، ولا تجاورنّكم الخنازير "(١)، وروى زيد بن وهب أن عمر بن الخطاب أرسل إلى المسلمين في أثناء غزو أذربيجان محذراً من أكل الميتة: " بلغني أنكم في أرض يخالط طعامها الميتة، ولباسها الميتة، فلا تأكلوا الا ما كان ذكياً ولا تلبسوا الا ما كان ذكيّاً "(٢).

وقد أولى الخلفاء التربية البدنية والذهنية للمسلمين العناية والاهتمام، فاهتموا غاية الاهتمام باللياقة البدنية والتدريب البدني ولا سيّما الجيوش؛ وكانوا يكتبون إلى الولاة في الأمصار يحثونهم على مزاولة الوان الرياضة التي تجنب المسلمين الترهل والكسل (٣)، روى الشعبي أن عمر بن الخطاب كتب إلى سعد بن أبي وقاص: " أجرِ الخيل، وسبّق بين الناس "(٤)، ودعا المسلمين إلى أن يتعلم أبناؤهم العوم، والفروسية والرّمي؛ ليبنوا جسداً قوياً؛ كتب عمر إلى ساكني الأمصار: "... أما بعد، فعلّموا أولادكم العوم والفروسية "(٥)، وكتب إلى أبي عبيدة: " علموا غلمانكم العوم، ومقاتلتكم الرّمي "(٦).

وعُني الخلفاء بالتربية الذهنية ليكون الجيل المسلم سليماً من الناحيتين الجسدية والعقلية، لذلك حثّوا المسلمين على أن يتعلم أبناؤهم الشعر الذي فيه محاسن الأخلاق، والحكم، ومعرفة النسب كما جاء في رسالة عمر إلى أبي موسى: " مر من قبلك بتعلم الشعر فإنّه يدل على معالي الأخلاق، وصواب الرأي، ومعرفة الأنساب "(٧). وكتب إلى ساكني الأمصار ليعلموا أولادهم الأمثال السائرة، والشعر الحسن: "... رووهم ما سار من المثل، وحسن من الشعر "(٨)، لقد قرن التوجيه الرسمي في

---

(١) سيرة عمر بن الخطاب، ص: ٩٣.

(٢) طبقات الكبرى، ١٠٣/٦؛ كنز المال، ٥٢٢/٩.

(٣) أمين أنور الخولي، الرياضة والحضارة الإسلامية، دار الفكر العربي، ص: ١١٠-١١٧؛
Atef Mohamed E. Alogleh, The Philosophy of Sport in Islamic Religion, M. A., University of Southern California, 1981, p. 60-70.

(٤) نقلاً عن كتاب الرياضة والحضارة الاسلامية، ص: ١١٤؛ وبدوره نقل عن كتاب حلبة الفرسان وشعار الشجعان لمؤلفه علي بن عبد الرحمن بن هذيل الأندلسي ولم أتمكن من الحصول عليه.

(٥) البيان والتبيين، ١٠٨/٢.

(٦) سيرة عمر بن الخطاب، ص: ٩٠.

(٧) ابن رشيق، ابو علي الحسن، (ت ٤٥٦هـ)، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ط٢، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، مصر، ١٩٦٣، ٢٨/١.

(٨) البيان والتبيين، ١٨٠/٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الرسائل السابقة تعلم الشعر والأمثال بمهارتي الفروسية والعوم، وفي هذا وعي واضح بضرورة توازن المنهج التربوي؛ فهو كما يهدف إلى إعداد الفرد جسمياً، فإنه لا يغفل عن تعهده وجدانياً وفكرياً، وفي الجمع بين التربية البدنية والتربية الذهنية سعي نحو إعداد الشخصية الاسلامية المتكاملة[١].

وتشجيعاً من عمر بن الخطاب للناس على تعلم القرآن وحفظه كتب إلى عماله أن يعطوا الناس على تعلّم القرآن، فتعلمه من كان يرغب في العطاء لا غير، فأرسل إلى عامله يقول: " أعط الناس على المروءة، والصحابة "[٢]، وكان عمر شديد الحرص على سلامة اللغة من الخطأ واللحن؛ روى يحيى بن أبي كثير أن عمر بن الخطاب أرسل إلى أبي موسى الأشعري بشأن كاتب أخطأ في اللغة: " إذا أتاك كتابي هذا فاضرب كاتبك سوطاً، واعزله عن عملك "[٣].

وقد روى مالك بن أنس أن عمر بن الخطاب أرسل كتاباً يقول فيه: " اكتبوا عن الزاهدين في الدنيا ما يقولون، فإن الله عز وجل وكل بهم ملائكة واضعة أيديهم على أفواههم، ولا يتكلمون إلا بما هيأه الله لهم "[٤]، ولا يخفى أن هذا الكتاب يدرج ضمن الكتب المفتعلة؛ فالزهاد ليسوا أنبياء، ولا معصومين من الوقوع في الزلل والخطأ، ليأخذ المسلمون عنهم ما يقولون دون تفكر وتمحيص.

وفي شؤون البناء روي أن سعد بن أبي وقاص أستأذن عمر بن الخطاب في بناء منزل يسكنه فأرسل إليه عمر: " ابن ما يسترك من الشمس ويكنّك من الغيث "[٥]، وفي هذا رغبة من عمر على حمل عماله على اتباع سياسة التقشف ليحتذي بهم الناس، وحين بنى سعد داراً له وضم إليها بيت المال تعرّض بيت المال للنقب، وأُخذ ما فيه، فكتب عمر إلى سعد مشيراً عليه أن ينقل المسجد جنب داره حتى يتجنب نهب بيت المال ثانية: " انقل المسجد حتى تضعه جنب الدار، واجعل الدار قبلته، فإن للمسجد أهلاً بالنهار وبالليل، وفيهم حصن لما لهم... "[٦]، وفي السنة الثامنة عشرة وقت عام الرمادة كتب عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب يستشيره بشأن إعادة حفر نهر يربط بين البحر الأبيض المتوسط، والبحر الأحمر لتسهيل نقل البضائع بسرعة إلى الحجاز: " إن البحر الشامي حفر لمبعث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حفيراً، فصب في بحر العرب فسدّه الروم والقبط، فإن

---

(١) مصطفى عليان، نحو منهج اسلامي في رواية الشعر ونقده، ط١، دار البشير، عمان، ١٩٩٢، ص: ١٥٢.

(٢) ابن زنجويه، الأموال، ٥٧٢/٢؛ أبو عبيد، الأموال، ص: ٢٧٥.

(٣) فتوح البلدان، ص: ٤٨٢؛ أنساب الأشراف، تحقيق: سهيل زكار، ٣٢٠/١٠.

(٤) سيرة عمر بن الخطاب، ص: ٩٣.

(٥) الرياض النضرة، ٨٠/٢.

(٦) تاريخ الرسل والملوك، ٤٦/٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أحببت أن يقوم سعر الطعام بالمدينة كسعره بمصر حفرت له نهراً، وبنيت له قناطر "[١]، فكتب إليه عمر: " افعل وعجّل ذلك "[٢]، وكتب علي بن أبي طالب إلى عامله قرظة بن كعب يقول: " أما بعد، فإن قوماً من أهل عملك أتوني فذكروا أن لهم نهراً قد عفا ودرس، وأنهم إن حفروه واستخرجوه عمرت بلادهم وقووا على كل خراجهم، وزاد في ء المسلمين قبلهم؛ وسألوني الكتاب إليك لتأخذهم بعمله، وتجمعهم لحفره والإنفاق عليه، ولست أرى أن أجبر أحداً على عمل يكرهه، فأدعهم إليك، فإن كان الأمر في النهر على ما وصفوا، فمن أحب أن يعمل فمره بالعمل، والنهر لمن عمله دون من كرهه، ولأن يعمروا ويقووا أحب إليّ من أن يضعفوا، والسلام "[٣]، وكتب عمر إلى أمراء الأجناد بشأن استقرار المسلمين فيها: "... لا يتبدّوا إلى القرى ويتركوا المدائن، وأن يتخذوا في كل مدينة مسجداً، ولا يتخذوا للقبائل مساجد "[٤]، وروى بشير بن عبيد الله بن أبي بكرة أن أبا موسى الأشعري كتب إلى عمر يخبره أن المسلمين بنوا بيوتهم بالقصب الذي يعرضهم للحرائق بسبب سرعة اشتعاله، وأن المسلمين قد استأذنوه بأن يبنوا بالمدر، أي بالطين، لأنه أكثر أمناً[٥] فرد عليه عمر يقول: " إني قد كنت أكره لهم البناء، فأما إذا فعلوه فليقلوا السمك، ويعرّضوا الجُدر، ويقاربوا بين الخشب في السقوف "[٦]، وعدم رغبة عمر في البناء الطيني لعلها تعود إلى أن هذا النوع من البناء يدفع المسلمين إلى الاستقرار ويضعف من رغبتهم في الاستمرار في الجهاد والفتوح، ومنع عمر المسلمين من ستر بيوتهم على غرار الكعبة؛ فقد أرسل إلى أبي موسى يقول: " أما بعد، فإنه بلغني أن امرأة من أهل البصرة سترت بيتها كما تستر الكعبة، وإني عزمت عليك لما أرسلت إليها حين تقرأ كتابي من ينزع ستوره "[٧].

وكان الخليفة في مركزه يتابع ما يستجد في الولايات من أحداث تصيب الرعيّة، فحين انتشر الطّاعون في الشام كتب عمر إلى أبي عبيدة ليخرجه من الشام يقول: " أما بعد، فإنه قد عرضت لي اليك حاجة أريد أن أشافهك فيها، فعزمت عليك إذا نظرت في كتابي هذا ألاّ تضعه من يدك حتى تقبل إليّ "، وتنبه أبو عبيدة لرغبة عمر في إنقاذه من الوباء فأرسل إليه معتذراً مؤكداً رغبته في

---

(١) تاريخ الرسل والملوك، ١٠٠/٤؛ وانظر: فتوح مصر، ص: ١١٢-١١٣؛ المنتظم، ١٠٨٤/٣.

(٢) المصدر نفسه، ١٠٠/٤.

(٣) أنساب الأشراف، ١٦٢/٢.

(٤) تاريخ مدينة دمشق، مطبعة الترقي، دمشق، ١٩٥١، ص: ٩٤/٢-٩٥.

(٥) أنساب الأشراف، تحقيق: سهيل زكار، ٣٣٤/١٠.

(٦) المصدر نفسه، ٣٣٤/١٠.

(٧) المصدر نفسه، ٣٩١/١٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

البقاء مع جنده ليصيبه ما يصيبهم ومما كتب إليه: " يا أمير المؤمنين، إني قد عرفت حاجتك إليّ، وإني في جند من المسلمين لا أجد بنفسي رغبة عنهم، فلست أريد فراقهم حتى يقضي الله فيّ وفيهم أمره وقضاءه فحللّني من عزمتك يا أمير المؤمنين، ودعني في جندي..."[١]، فطلب إليه عمر أن يخرج بالناس الذين معه إلى مكان مرتفع: " أما بعد، فإنك أنزلت الناس أرضاً غمقة، فارفعهم إلى أرض مرتفعة "[٢]، وفي عام الرّمادة كتب إلى أمراء الأمصار لينجدوا أهل المدينة: " أغيثوا أهل المدينة ومن حولها، فإنّه قد بلغ جهدهم "[٣].

والتعزية تعد نوعاً من المشاركة الوجدانية، فحين توفي أبو عبيدة في أثناء طاعون عَمَواس أرسل معاذ بن جبل إلى عمر بن الخطاب ينعى له أبا عبيدة: " لعبد الله عمر أمين المؤمنين من معاذ ابن جبل، سلام عليك، فإني أحمد اليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد، فاحتسب امرءاً كان لله أميناً، وكان الله في عينه عظيماً وكان علينا وعليك يا أمير المؤمنين عزيزاً، أبا عبيدة بن الجراح، غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وإنا لله وإنا إليه راجعون، وعند الله نحتسبه، وبالله نثق له، كتبت إليك وقد فشا الموت، وهذا الوباء في الناس، ولن يخطيء أحداً أجله من الموت، ومن لم يمت فسيموت، جعل الله ما عنده خيراً لنا من الدنيا، وإن أبقانا أو أهلكنا فجزاك الله عن جماعة المسلمين، وعن خاصتنا وعامتنا رحمته، ومغفرته، ورضوانه، وجنّته، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته "[٤]. وتعبّر هذه الرسالة عن موقف إيجابي من المصيبة صادرة ممن يعيشها، ويبرُز فيها الإيمان العميق بالقضاء والقدر، ورباطة الجأش في مواجهة الموت المحدق وقد تجلّت هذه المعاني في كتاب لعمرو بن العاص ينعى فيه معاذ بن جبل لعمر بن الخطاب، ويخبره فيه برغبة الناس في الهروب إلى الصحراء: " أما بعد، فإن معاذ بن جبل ـ رحمه الله ـ هلك، وقد فشا الموت في المسلمين، وقد أستاذنوني في التنحي عنه إلى البرّ، وقد علمت أن إقامة المقيم لا يقرّبه من أجله، وأن هرب الهارب منه لا يباعده من أجله، ولا يدفع به قدره... "[٥].

---

(١) تاريخ الرسل والملوك، ٦١/٤.

(٢) المصدر نفسه، ٦١/٤.

(٣) المصدر نفسه، ٩٩/٤٠.

(٤) الأزدي، فتوح الشام، ص: ٢٧٣.

(٥) المصدر نفسه، ص: ٢٧٣-٢٧٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويعدُّ عمر بن الخطاب واضع التأريخ الهجري؛ روى الشعبي في ذلك أن أبا موسى الأشعري كتب إلى عمر: " إنه يأتينا منك كتب لا نعرف عهدها وتاريخها، فأرّخ "[١]، وأرّخ عمر لمُهَاجَرِ رسول الله لأن مُهَاجَرَه فرق بين الحق والباطل[٢].

وقد دلّت النصوص السابقة على أن الإدارة الإسلامية في هذا العصر كانت تسير في اتجاهين متوازيين: اتجاه يضع الأنظمة والقوانين، واتجاه يحرص على تنفيذ ما نظم على أرض الواقع " فالمسألة في المنظور الإسلامي ليست مسألة خطب تقال، وعهود ووصايا تكتب، ومبادئ تسجل، ولكنها ربط النظر بالعمل والمقول بالمفعول، ومن ثم كان المبدأ لا قيمة له في ذاته إلا إذا تجسّد في عمل "[٣]، وقد ربط القرآن الكريم بين الإيمان والعمل في كثير من الآيات مثل قوله تعالى: " وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار "[٤]، وقوله: " وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيّهم أجورهم والله لا يحب الظالمين "[٥].

وقد انحسرت النماذج التي وقعت إلينا من الرسائل التي تبين وسائل الادارة في ولايات الدولة عن جملة من القواعد والأسس التي تحدد " طبيعة العلائق بين الرعيّة والهيئة الحاكمة التي تشمل الخليفة والوالي والقاضي وقائد الحرب، وكل من كان مسئولاً عن تسيير أمر من أمور الدولة أو مصلحة من مصالحها "[٦]، لذا يسعنا القول إن النظم الإدارية الاسلامية ليست نظماً مثالية يصعب التعامل بها واقعاً وتطبيقاً عملياً، بل هي قابلة للتنفيذ في كل زمان ومكان، ولعل توقيع عمر بن الخطاب الذي أرسله إلى عمرو بن العاص يلخص أسس الإدارة الإسلامية في كل مجالاتها وقد جاء في التوقيع: " كن لرعيّتك كما تحب أن يكون لك أميرك "[٧].

---

(١) أنساب الأشراف، تحقيق: سهيل زكار، ١٠/٣٢٠-٣٢١.

(٢) المصدر نفسه، ١٠/٣٢٠-٣٢١.

(٣) أدب الخلفاء الراشدين، ص: ٤١٦.

(٤) سورة البقرة، آية ٢٥.

(٥) سورة آل عمران، آية ٥٧.

(٦) أدب الخلفاء الراشدين، ص: ٤١٧.

(٧) العقد الفريد، ٤/٢٠٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثاني

علاقات الدولة الاسلامية مع العالم الخارجي

كانت الدولة الإسلامية حريصة على تنظيم علاقاتها الخارجية عن طريق عقد الأحلاف والمعاهدات بغرض تنظيم تلك العلاقات بينها وبين القبائل، والأمم الأخرى، وقد عقد الرسول ـ عليه السلام ـ معاهدات من أنواع مختلفة وفقا للأغراض والظروف السياسية التي كانت الدولة الناشئة تواجهها، وبعد أن استقرت أركان الدولة داخل الجزيرة العربية وانطلق المسلمون يغذون السير لايصال الدعوة إلى الأمم الأخرى عن طريق حركة الفتوح رافق مسيرتهم هذه عقد عهود الصلح والأمان التي تنظم الأواصر المادية وغير المادية مع الشعوب التي آثرت البقاء على دينها ولم يكن يتسنى لها مواجهة المدّ الاسلامي بالقوة، وتعكس الاتفاقيات مراحل تطور قوة الدولة الاسلامية منذ العهد النبوي، وفي هذا الفصل نتتبع علاقة المسلمين بغيرهم والقواعد التي كانت تحكم هذه العلاقة عن طريق نصوص هذه الاتفاقيات(١).

لم ترد اتفاقيات مكتوبة بين المسلمين وأيّ طرف آخر من الأطراف المعارضة أو غير المعارضة للدعوة الجديدة في أثناء الدعوة الاسلامية في مهدها الأول مكة المكرمة؛ فقد كانت بيعتا العقبة الأولى والثانية اتفاقين غير مكتوبين(٢)، وبعد أن أذن الله للرسول بالهجرة إلى المدينة ذكر ابن إسحق أن الرسول ـ عليه السلام ـ كتب " كتاباً بين المهاجرين والأنصار وادع فيه اليهود وعاهدهم، وأقرّهم على دينهم وأموالهم، وشرط لهم واشترط عليهم "(٣). وقد أثارت الصحيفة العديد من الأسئلة التي تتصل بالسند الذي رويت عن طريقه، والظروف أو المفاوضات التي سبقته ولم يرد لها ذكر في كتب الأثر، وتحديد تاريخ اعلان الرسول لها، وهل كانت معاهدة واحدة أم عدة معاهدات أدمجت فيما

---

(١) انظر: الحرب والسلام في شرعة الإسلام، ص: ٢٦٩-٢٦٩؛ محمد علي الحسن، العلاقات الدولية في القرآن الكريم والسنة، ط٢، جمعية عمال المطابع التعاونية، ١٩٨٢، ص: ٣٣٤-٣٨٨؛ المجتمع الإسلامي والعلاقات الدولية، ص: ٢٣٣-٢٥١؛ صالح بن عبد الكريم الزيّد، أحكام عقد الأمان والمستأمنين في الإسلام، ط١، ١٤٠٦هـ؛ العلاقات الخارجية في دولة الخلافة، ص: ٢٨٧-٣٠٤، محمد عبد الغني حسن، المعاهدات والمهادنات في تاريخ العرب، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٦.

(٢) السيرة النبوية، ٢/٥٦-٦٥؛ أنساب الأشراف، تحقيق: محمد حميد الله، دار المعارف، مصر، ١/٢٣٩-٢٤٠.

(٣) السيرة النبوية، ٢/١٠٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بعد[١]، فإن صحت الصحيفة فانها كانت تستهدف " تحقيق السلام في ربوع المدينة من خلال تنظيم العلاقات بين أهل المدينة على أساس من المساواة والعدل وايجاد السلطة التي تعمل على تحقيق ذلك "[٢]، ومما جاء في الصحيفة: "... وأن لا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه، وأن المؤمنين المتقين على من بغى منهم، أو ابتغى دسيعة[٣] ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين، وأن أيديهم عليه جميعاً، ولو كان ولد أحدهم، ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر، ولا ينصر كافراً على مؤمن، وأنّ ذمة الله واحدة، يجير عليهم أدناهم، وأن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس، وانه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة، غير مظلومين ولا متناصرين عليهم... "[٤].

وبعد توقيع وثيقة المدينة بدأ الرسول ـ عليه السلام ـ بعقد معاهدات دفاعية مع بعض القبائل المجاورة التي تحيط بالمدينة، وتخترق قوافل قريش أراضيها، وهي في طريقها إلى الشام، وعقدت هذه المعاهدات مع قبائل: ضمرة، وجهينة، وخزاعة، وتضمنت الاتفاقيات حقوقاً وواجبات على كلا الطرفين المتعاقدين.

كتب الرسول ـ عليه السلام ـ بشأن بني ضمرة: " بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد رسول الله لبني ضمرة بن بكر بن عبد مناة من كنانة: بأنهم آمنون على أموالهم وأنفسهم، وأن لهم النصر على من دهمهم بظلم، وعليهم نصر النبي ما بل بحر صوفة[٥] الا أن يحاربوا في دين الله، وأن النبي إذا دعاهم لنصر أجابوه، عليهم بذلك ذمة الله، وذمة رسوله، ولهم النصر على من بر

---

(١) انظر: مونتجمري وات، محمد في المدينة، ترجمة: شعبان بركات، المكتبة العصرية، بيروت،.ص: ٣٣٧-٣٤٧؛ صالح أحمد العلي، تنظيمات الرسول الادارية في المدينة المنورة، مجلة المجمع العلمي العراقي، بغداد، م١٧، ١٩٦٩، ص: ٥٠-٦٥؛ نشأة الدولة الاسلامية، ص: ٢٩-٣٧؛ أكرم ضياء العمري، المجتمع المدني في عهد النبوة، خصائصة وتنظيماته الأولى، ط١، ١٩٨٣، ص: ١٠٧-١١٧؛ السيرة النبوية الصحيحة، مركز بحوث السنة والسيرة، ٢/٢٧٢-٢٩٩؛ صالح درادكة، العلاقات العربية اليهودية حتى نهاية عهد الخلفاء الراشدين، ط١، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، ١٩٩٢، ص: ٢٦٠-٢٧٧؛ حسين مؤنس، عالم الاسلام، دار المعارف، مصر، ص: ١٣٩-١٥٩؛ هاشم الملاح، الوسيط في السيرة النبوية والخلافة الراشدة، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، جامعة الموصل، ص: ١٩٩-٢١١؛

R. B. Serjeant, The Constitution of Medina, The Islamic Quarterly, Vol. 8, Number 1 and 2, 1964, p. 3-16.

(٢) الوسيط في السيرة النبوية، ص: ٢٠٩.

(٣) الدسيعة: العظيمة، اللسان، مادة: دسع.

(٤) السيرة النبوية، ٢/١٠٨؛ وانظر: أبو عبيد، الأموال، ص: ٢١٥-٢١٦؛ ابن زنجويه، الأموال، ٢/٤٦٧-٤٧١؛ المصباح المضيء، ص: ٢٠٢-٢٢٥.

(٥) صوف البحر، شيء على شكل الصوف الحيواني، وهذا القول من الأبديّات، اللسان، مادة: صوف.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

منهم واتقى "[١]، ويرسي الرسول الكريم في هذا الحلف قواعد التعامل مع بني ضمرة فلهم الأمان على الأموال والأنفس، وإذا تعرّضوا لهجوم من طرف ثالث فإنهم يحظون بمساعدة الرسول لهم، ومقابل هذه الحقوق فإنهم يقدمون النصر للمسلمين إذا دعوا إلى ذلك، وهذا الاتفاق ساري المفعول في كل الأوقات الا إن تعرضوا للمسلمين ووقفوا ضد الاسلام. وقد طغى على هذا الاتفاق الجانب السياسي، إذ كان همّ الرسول الأول ضمان حياد هذه القبيلة، ولم يلزمها بأيّ جانب ديني، ويؤكد الرسول بنود الاتفاق على أن لهم ذمة الله وذمة الرسول[٢].

أما أسلم من خزاعة فكتب إليهم الرسول: هذا كتاب من محمد رسول الله لأسلم: لمن هاجر منهم بالله، وشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، فإنّه آمن بالله، وله ذمة الله ورسوله، وإن أمرنا وأمركم واحد على من دهمنا من الناس بظلم، اليد واحدة، والنصر واحد، ولأهل باديتهم مثل ما لأهل قراهم، وهم مهاجرون حيث كانوا، وكتب العلاء بن الحضرمي"[٣]. واعتبر أفراد القبيلة جميعاً مهاجرين وإن أقاموا بأرضهم، وقد ساوى الرسول بين الأعراب المتبدّين وأهل الحاضرة المستقرين، وفي هذه المعاهدة شروط دينية إذا اتبعت فإن الرسول يدافع عنهم، وهذه الشروط هي: الإيمان بوحدانية الله، وأن محمداً عبده ورسوله، وفي رواية ابن سعد لهذه المعاهدة ذكر لإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، والإشارة إلى الزكاة بوصفها واجباً مالياً في هذه الحقبة المبكرة يلقي ظلالاً من الشك على رواية ابن سعد، وقد تكون عبارة " وآتى الزكاة " الواردة عند ابن سعد من الزيادات اللاحقة[٤]، لأن الرسول استهدف من عقد هذه الأحلاف حسن الجوار، وضمان مساعدة هذه القبائل للمسلمين في حالة تعرضهم لهجوم من قريش أو من غيرها، والالتزام المالي قد ترى فيه هذه القبائل ثقلاً عليها.

وعقد الرسول حلفاً مع بني غفار، وليس في هذا الاتفاق أي شروط دينية، ويكاد النص يقف عند الاعتبارات السياسية التي كانت تشغل الرسول ـ عليه السلام ـ في هذه المرحلة: "... أنهم من المسلمين، لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين، وأن النبي عقد لهم ذمة الله وذمة رسوله على أموالهم وأنفسهم، ولهم النصر على من بدأهم بظلم، وأن النبي إذا دعاهم لينصروه أجابوه وعليهم نصره، الا من حارب في الدين، ما بلّ بحر صوفة، وإن هذا الكتاب لا يحول دون إثم... "[٥].

---

(١) الطبقات الكبرى، ١/٢٧٤-٢٧٥.

(٢) نشأة الدولة الاسلامية، ص: ٤٤.

(٣) الطبقات الكبرى، ١/٢٧١.

(٤) نشأة الدولة الاسلامية، ص: ٥٣.

(٥) الطبقات الكبرى، ١/٢٧٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما قبيلة جهينة فإن ما عُقد معها من معاهدات تترسم خطى المعاهدات السابقة، عقد النبي - عليه السلام - معاهدة مع بني زرعة وبني الربعة من جهينة جاء فيها: " إنهم آمنون على أنفسهم وأموالهم، وأن لهم النصر على من ظلمهم أو حاربهم إلا في الدين والأهل، ولأهل باديتهم من برّ منهم واتقى ما لحاضرتهم[١]، وعقد معاهدة مع بني الحرقة وبني الجرمز من جهينة وجاء في المعاهدة: " لعمرو بن معبد الجهني وبني الحرقة وبني الجرمز من جهينة: من أسلم منهم وأقام الصلاة وآتى الزكاة، وأطاع الله ورسوله، وأعطى من الغنائم الخمس، وسهم النبي الصفي، ومن أشهد على إسلامه، وفارق المشركين، فإنه آمن بأمان الله، وأمان محمد، وما كان من الدّين مدونة لأحد من المسلمين قضى عليه برأس المال، وبطل الربا في الرهن وأن الصدقة في الثمار العشر، ومن لحق بهم فإن له مثل ما لهم "[٢].

ويرى الباحث عون قاسم الشريف أن الفروض المالية المتضمنة في الوثيقة قد ترجع إلى فترة متأخرة عن هذه المرحلة التي اتسمت بكسب صداقة القبائل المجاورة، وضمان مساعدتها ضد الأعداء، ولم تصل قوة المدينة إلى حد يمكنها من فرض إرادتها على القبائل الأخرى، يضاف إلى ذلك أن تفاصيل الزكاة وجزيئاتها، والشروط التي جاءت مفصلة عن الربا في الديون والرهون استغرقت زمناً طويلاً قبل أن تكتمل[٣].

وفي السنة السادسة للهجرة خرج الرسول من المدينة متوجهاً إلى مكة لأداء العمرة يرافقه عدد من أصحابه، ولم يتمكن ومن معه من أداء العمرة لأن قريشاً حالت دون ذلك، وبعد مفاوضات بين ممثل قريش سهيل بن عمرو، والرسول ممثل المسلمين، تمّ عقد اتفاق بين الطرفين عرف باسم صلح الحديبية وكانت بنود الاتفاق: " باسمك اللهمّ، هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو، واصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهن الناس، ويكف بعضهم عن بعض، على أنه من قدم مكة من أصحاب محمد حاجاً أو معتمراً أو يبتغي من فضل الله فهو آمن على دمه وماله، ومن قدم المدينة من قريش مجتازاً إلى مصر أو إلى الشام يبتغي من فضل الله فهو آمن على دمه وماله، على أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليّه ردّه عليهم، ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردّوه عليه، وأن بيننا عيبة مكفوفة، وانه لا إسلال[٤] ولا إغلال[٥]، وأنه من أحب

---

(١) الطبقات الكبرى، ١/٢٧٠.

(٢) المصدر نفسه، ١/٢٧١-٢٧٢.

(٣) نشأة الدولة الاسلامية، ص: ٥٩-٦٠.

(٤) الإسلال: الغارة، اللسان، مادة: سلل.

(٥) الإغلال: الخيانة، اللسان، مادة: غلل.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أن يدخل في عقد محمد وعهده دخله، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه، وأنت ترجع عنا عامك هذا، فلا تدخل علينا مكة، وأنه إذا كان عام قابل خرجنا عنك فدخلتها بأصحابك فأقمت بها ثلاثاً معك سلاح الراكب: السيوف في القِرَب، ولا تدخلها بغيرها، وعلى أن هذا الهدي حيث ما جئناه، ومحله، فلا تقدمه علينا "[١]. وشهد على هذا الصلح: أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعبد الرحمن بن عوف، وعبد الله بن سهيل بن عمرو، وسعد بن أبي وقاص، ومحمود بن مسلمة، ومكرز بن حفص[٢]، وكتب الصحيفة علي بن أبي طالب.

رسمت اتفاقية صلح الحديبية خطوط السلم في طريقين: الأول على المدى البعيد؛ إذ اتفق الجانبان على وضع الحرب عشر سنين، يأمن فيها الناس، وفرض الحجر على كل قرشي يريد اللحاق بالرسول، والهجرة إلى المدينة إلا بإذن وليّه، وقريش غير ملزمة برد أحد من أتباع الرسول، وفتح الباب على مصراعيه لمن أراد من العرب الدخول في عهد سيدنا محمد، أما الطريق الآخر للسلم فهو المتعلق بالجانب القصير المدى فحتى لا يقع في روع العرب أن قريشاً خضعت للرسول، وسمحت له بأداء العمرة، أصرت على أن يرجع عامه ذاك، ويعود العام المقبل، ويقيم في مكة ثلاثة أيام، ومعه ومع أصحابه سلاح الراكب[٣]. ولم يقابل المسلمون بنود الصلح بالارتياح؛ لأنهم لم يحققوا الهدف من الرحلة إلى مكة وهو أداء العمرة في ذلك العام، ولأن بعض بنود الاتفاق بدت للمسلمين غير متكافئة، وكأن فيها لوناً من التراجع أمام قريش، وظهر ذلك جلياً في الحوار الذي دار بين عمر بن الخطاب والرسول ـ عليه السلام ـ بعد الاتفاق، روى الزهري أن عمر قال للرسول الكريم: " يا رسول الله، ألست برسول الله؟ قال: بلى، قال: فعلام نُعطى الدنيّة في ديننا؟ قال: أنا عبد الله ورسوله، لن أخالف أمره، ولن يضيعني... "[٤]، وحين عاد الرسول إلى المدينة، ولم يؤدّ العمرة، قال له بعض من كان معه: " ألم تقل يا رسول الله إنك تدخل مكة آمناً؟ قال: بلى، أفقلت لكم من عامي هذا؟ قالوا لا، قال: فهو كما قال لي جبريل عليه السلام "[٥]، وفي حقيقة الأمر كان صلح الحديبية تطوراً في قوة المسلمين وقد عبّر الزهري عن هذا التطور في قوله: " فما فتح في الاسلام فتح قبله كان أعظم منه، انما كان القتال حيث التقى الناس، فلما كانت الهدنة، ووضعت الحرب،

---

(١) اتكأت في إثبات النص على تحقيق محمد حميد الله في كتابه: مجموعة الوثائق السياسية، وثيقة رقم ١١، ص: ٧٧-٨٤.

(٢) السيرة النبوية، ٢/٢٠٤.

(٣) نشأة الدولة الاسلامية، ص: ٦٨-٦٩.

(٤) السيرة النبوية، ٢/٢٠٣.

(٥) المصدر نفسه، ٢/٢١٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وآمن الناس بعضهم بعضاً، والتقوا وتفاوضوا في الحديث والمنازعة، فلم يكلم أحد بالاسلام يعقل شيئا الا دخل فيه، ولقد دخل تينك السنتين مثل من كان في الاسلام قبل ذلك، أو أكثر "(١).

وقد رأى عدد من الباحثين في هذا العهد مكاسب للاسلام مع أنه في ظاهره يبدو خضوعاً لقريش، في قبول شروطها، ومن هذه المكاسب:

أولاً: تضمنت الوثيقة اعتراف قريش للمسلمين في المدينة بأنهم قوة مستقلة بذاتها، وأن المسلمين يشكلون كياناً سياسياً مساوياً لقريش، ومن ثم فإن من حق القبائل العربية أن تتعامل معه كما تتعامل مع قريش وعلى قدم المساواة(٢)، لذلك بادرت بعض القبائل إلى الدخول في عقود صلح مع الرسول(٣).

ثانياً: لم يرَ الباحثون في الشروط التي التزم بها المسلمون أي تنازل؛ إذ أنّ العودة دون أداء العمرة كان نوعاً من التأجيل لا غير، وأن شرط عدم رد قريش لمن ترك الرسول وانضم اليها لا يعني عدم التكافؤ؛ إذ لا مبرر لاحتفاظ الرسول بمن لا يريد الاسلام ديناً له، بينما المسلم الذي يرغب في اللجوء إليه يكون قد جاء بإيمان عميق في قلبه، وردّه إلى قريش لا يمحو الإيمان من قلبه، بل إن ذلك يُكثر من مؤيدي الاسلام في صفوف قريش(٤).

ثالثاً: وقد استفاد المسلمون من فترة الاستقرار التي أتاحتها لهم هدنة الحديبية حيث انتشروا يجوبون البلاد ليوصلوا دعوة الحق إلى الناس جميعاً، وكانت المرحلة الناتجة عن صلح الحديبية من أعظم المراحل التي حقّقت فيها الدعوة الإسلامية أضخم منجزاتها الإعلامية في مدّة قصيرة من عمر الدعوة وكان من نتيجة ذلك النشاط الإعلامي الواسع أن تضاعف عدد المسلمين، وكان هذا بسبب إتاحة الفرصة للمسلمين والمشركين في الاتصال والتحدّث دون خوف أو وجل لأن الحوافز النفسيّة التي كانت قائمة قد زالت(٥).

وقد ربط بعض القدماء والمحدثين بين صلح الحديبية وفتح مكة المكرمة؛ قال ابن القيمّ: إن هذه الهدنة " كانت مقدمة بين يدي الفتح الأعظم الذي أعز الله به رسوله وجنده، ودخل الناس به في

---

(١) السيرة النبوية، ٢٠٦/٣.

(٢) المجتمع الاسلامي والعلاقات الدولية، ص: ٣٤٦، الوسيط في السيرة النبوية، ص: ٢٩١؛ الدولة في عهد الرسول، ٢٥٧/١.

(٣) السيرة النبوية، ٢٠٣/٣.

(٤) الدولة في عهد الرسول، ٢٥٦/١.

(٥) سليم عبد الله حجازي، منهج الإعلام الإسلامي، في صلح الحديبية، ط١، دار المنارة، جدة، ١٩٨٦، ص: ١٩٩-٢٠٠؛ وانظر: ص: ٢١٠-٢٣٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

دين الله أفواجاً، فكانت هذه الهدنة باباً له، ومفتاحاً ومؤذناً بين يديه، وهذه هي عادة الله سبحانه في الأمور العظام التي يقضيها قدراً وشرعاً، بأن يوطئ لها بين يديه مقدّمات وتوطئات تؤذن بها وتدلُّ عليها "[١].

وبعد أن غدا الاسلام صاحب قوة وسيطرة تمكن من فرض شروطه على القبائل الأخرى، وتم عقد اتفاقيات تنظم العلاقات مع القبائل التي لم تدخل الإسلام، وآثرت البقاء على ديانتها السابقة، ونعرض لاتفاقين عقدهما الرسول مع نجران ومع ثقيف.

أما نجران فقد دخل قسم منها في الاسلام، وبقي القسم الآخر على نصرانيته، وقد أرسل الرسول ـ عليه السلام ـ عمرو بن حزم إلى من أسلم منهم وكتب له عهداً بين له فيه ما يتوجب عليه القيام به وهو مقيم عندهم، أما الذين رغبوا عن الاسلام فقد عقد معهم اتفاقاً تم بموجبه بيان الحقوق والواجبات التي يقدمها كلّ طرف.

أما الواجبات فهي أن يدفعوا للرسول ألفي حلة، وهي أقمشة تصنع محليّاً عندهم، ويتم ذلك على دفعتين فصليتين في رجب وفي صفر، ويرى أبو عبيد أن تقديم الحلل أسهل على النجرانيين من تقديم المال[٢]، وتقدر قيمة كل حلة أو رداء بالنقود، وإذا سلم النجرانيون الحلل بسعر أغلى فإن الفائض يخسم من المبلغ الإجمالي المفروض عليهم، وأعطاهم الرسول فرصة ليدفعوا بوسائل أخرى مثل: الدروع، والخيل: "... على ألفي حلة من حلل الأواقي في كل رجب ألف حلة، وفي كل صفر ألف حلة، كل حلة أوقية من الفضة، فما زادت حُلل الخراج أو نقصت فبالحساب... "[٣]، وفرض الرسول عليهم أن يمدوا المسلمين الذين يمرون بهم من جند أو رسل بالمؤن، وحقوق الضيافة تكون ما بين عشرين يوماً فما دون ذلك، وفي حال حدوث ما من شأنه يدعو إلى استخدام القوة فعلى أهل نجران إقراض المسلمين ثلاثين درعاً وإذا هلك شيء مما أُقرض أو أُعير للمسلمين فعلى المسلمين تعويض ذلك كله: "... وما قضوا من دروع، أو خيل، أو ركاب، أو عروض أخذ منهم فبالحساب، وعلى نجران مؤونة رسلي ومبعثهم ما بين عشرين يوماً فما دون ذلك، ولا تُحبس رسلي فوق شهر، وعليهم عارية ثلاثون درعاً وثلاثون فرساً، وثلاثون بعيراً إذا كان كيد باليمن ومعرّه، وما هلك مما يُعار رسلي من دروع، أو خيل، أو ركاب، أو عروض فهو ضمين على رسلي حتى يؤدوه إليهم"[٤].

---

(١) ابن قيم الجوزية، زاد المعاد، ط٢، تحقيق: الارناؤوط وعبد القادر الارناؤوط، ٣م، مؤسسة الرسالة، بيروت، ٣٠٩/٣؛ منهج الإعلام الإسلامي، ص: ٢٠١-٢٠٥.

(٢) أبو عبيد، الأموال، ص: ٢٠٣.

(٣) أبو يوسف، الخراج، ص: ١٩١؛ أبو عبيد، الأموال، ص: ٢٠١؛ الطبقات الكبرى، ٣٥٨/١.

(٤) المصدر نفسه، ص: ١٩١؛ ص: ٢٠١؛ ٣٨٥/١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما الحقوق التي قدمت لهم فكانت تكفل لهم الاستقلال والحماية، ومنحوا ضمانات تكفل لهم السلامة، والأمن في أرضهم[١]، ونظام حياتهم الداخلي وديانتهم لا يتدخل المسلمون فيه: " ولنجران وحاشيتهم جوار الله، وذمة محمد النبي رسول الله على أموالهم، وأنفسهم، وأرضهم، ومساكنهم، وغائبهم، وشاهدهم، وعبادتهم وبيعهم، لا يُغير أسقف من أسقفيته، ولا راهب من رهبانيته، ولا وافه من وفيهاه، ولا كاهن من كهانته، وكل ما بين أيديهم من قليل أو كثير، فليس عليهم ربّية، ولا دم جاهليّة، ولا يُحشرون ولا يعشّرون، ولا يطأ أرضهم جيش، ومن سأل منهم جزيتهم فسهمهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين، ومن أكل رباً من ذي قبل فذمتي منه برئية، ولا يؤخذ رجل بظلم آخر..."[٢]، وهذه الامتيازات حق لهم " ما نصحوا وأصلحوا ما عليهم غير منقلبين بظلم "[٣].

وقصة النجرانيين لم تنته، ولم تقف عند هذا العهد؛ فقد جاءوا إلى خلفاء الرسول الأربعة وكتبوا لهم عهوداً أعطوهم فيها الحقوق التي قدمها لهم الرسول عليه السلام[٤]، وبعد أن أجلاهم عمر بن الخطاب كتب موصياً بهم: "... أما بعد، فمن مرّوا به من أمراء الشام وأمراء العراق فليوسعهم من حرث الأرض، فما اعتملوا من ذلك فهو لهم، صدقة لوجه الله، وعُقبة[٥] لهم مكان أرضهم لا سبيل عليهم فيه لأحد ولا مغرم... "[٦].

وفي العصر الحديث نشر عدد من العهود المنسوبة للرسول عليه السلام، وفيها يوصي بهم، ويذكر مساندتهم للإسلام، ومما جاء في أحد العهود: "... وأراد النصارى من تقوية أمري، ونصبوا لمن كرهه، وأراد تكذيبه وتغييره، ونقصه وتبديله وردّه وبعث الكتب إليّ كلٌ من كان في أقطار الأرض من سلطان العرب من وجوه المسلمين، وأهل الدعوة بما كان من تجميل رأي النصارى لأمري وذبّهم عن غزاة الثغور نواحيهم، والقيام بما فارقوني عليه وقبلته، إذ كان الأساقفة والرهبان لذلك منّة قويّة في الوفاء بما أعطوني من مودّتهم وأنفسهم وأكّدوا من إظهار أمري والإعانة على ما أدعو اليه وأريد إظهاره "[٧]، وقد انبرى ثلّة من الباحثين لدراسة هذه العهود وبيّنوا بطلانها متكئين

---

(١) نشأة الدولة الاسلامية، ص:١٢٩.

(٢) أبو يوسف، الخراج، ص: ١٩١-١٩٢؛ ابو عبيد، الأموال، ص: ٢٠١-٢٠٢.

(٣) المصدر نفسه، ص: ١٩١-١٩٢؛ ص: ٢٠١-٢٠٢.

(٤) المصدر نفسه، ص: ١٩٣-١٩٥؛ أبو عبيد، الأموال، ص: ٢٠٢-٢٠٣؛ وقد درس الأب هنري لامانس علاقة النجرانيين بالمسلمين منذ بداية ظهور الاسلام، انظر تفصيل ذلك في:
Henri Lammens, Le Califat de Yazid I, Melanges, Vol., V, 2, 1912, p. 327-369.

(٥) العُقبة، البدل من الشيء، اللسان، مادة: عقب.

(٦) أبو يوسف، الخراج، ص: ١٩٣-١٩٤.

(٧) مجموعة الوثائق السياسية، ص: ١٨٣-١٨٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في ذلك على دراسة مضمون العهود، ودراسة لغتها، وكان فيما قاموا به غناء لا مسوّغ لإعادة البحث فيه[١].

أما الاتفاقية التي زعمت الرواية أن الرسول ـ عليه السلام ـ عقدها مع القسم الذي لم يسلم من قبيلة ثقيف فإن شروطها كانت تميل لجانب ثقيف، وهذه الوثيقة مصدرها الأول كتاب " الأموال " لأبي عبيد[٢]، في حين أن خبراً عن اتفاقية مع ثقيف جاء في مصادر أخرى ولكنه ورد على أساس أن ثقيف قد أسلمت جميعها ولم يبق أحد منها لم يسلم[٣]. والوثيقة لا تتضمن أية واجبات مالية أو عسكرية تقدمها ثقيف للمسلمين فهم غير ملزمين بالاشتراك في القتال، ولا ضرائب مالية عليهم، وقد أعطوا من الحقوق والامتيازات ما لم يُعط لأي فريق تعاهد مع الرسول ـ عليه السلام ـ وقد شعر أبو عبيدة بالمبالغة فيما قدّمه الرسول لثقيف، وسوّغه قائلاً: "... إن الامام ناظر للإسلام وأهله، فإذا خاف من عدوّ غلبة لا يقدر على دفعهم الا بعطيّه يردّهم بها فعل، كالذي صنع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالأحزاب يوم الخندق، وكذلك لو أبوا أن يسلموا إلا على شيء يجعله لهم، وكان في إسلامهم عزٌ للإسلام، ولم يأمن معرّتهم وبأسهم أعطاهم ذلك ليتألفهم به، كما فعل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالمؤلفة قلوبهم، إلى أن يرغبوا في الاسلام، وتحسن فيه نيتهم، وانما يجوز من هذا ما لم يكن فيه نقض للكتاب، ولا للسنّة "[٤]، ولعلّ من المفيد ذكر جملة من الملاحظات على ما جاء في أخبار ثقيف، ومعاهدة الرسول ـ عليه السلام ـ معهم.

أولاً: لم تذكر المصادر التي روت أخبار اسلام ثقيف أن جزءاً منها لم يسلم، بل إنها ذكرت أن ثقيفاً لما أسلم عروة بن مسعود الثقفي وقتله الثقفيون حين عاد إليهم، ائتمروا بينهم وتشاوروا، ورأوا أنه لا طاقة لهم بحرب من حولهم من العرب وقد بايعوا وأسلموا، وأرسلوا إلى الرسول عليه السلام وفداً للبيعة والإسلام[٥]، وبما أنهم أسلموا جميعاً فلا مسوّغ لهذا العهد.

---

(١) لويس شيخو، عهود بني الاسلام والخلفاء الراشدين للنصارى، المشرق، جزء: ١٢، ١٩٠٩، ص: ٦٠٨-٦١٨، ٦٧-٦٨٢؛ عبد الباقي قصة، تحقيق بعض الوثائق النبوية من العهود التي أعطاها الرسول لليهود والنصارى، الدارة، ع٣، الرياض، ١٩٨٠، ص: ١٢٤-١٢٠؛ عتيق عبد الرحمن العثماني، دراسة للمعاهدات في العهد النبوي، المؤرخ العربي، ع١٦، القسم الأول، ١٩٨١، ص: ٢٨٠-٣٠٤.

(٢) أبو عبيد، الأموال، ص: ٢٠٤-٢٠٥.

(٣) السيرة النبوية، ١٣٩/٤؛ الطبقات الكبرى، ٢٨٤/١-٢٨٥.

(٤) أبو عبيد الأموال، ص: ٢٠٧.

(٥) السيرة النبوية، ١٣٥/٤-١٣٨؛ تاريخ الرسل والملوك، ٩٦/٣-١٠٠؛ الطبقات الكبرى، ٣١٢/١-٣١٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثانياً: إن المسوّغات التي ذكرها أبو عبيد للشروط التي اشترطها الرسول لثقيف، لا تتوافق مع ما ذكرته المصادر من أن ثقيفاً لا طاقة لها بقوى الإسلام في هذا الوقت الذي لم يعد فيه المسلمون يخشون من يجاورهم من العرب.

ثالثاً: جاء في العهد ما فيه مخالفة للحقوق والواجبات التي للمسلم حين يعتنق الاسلام: "... وما كان لثقيف من حليف، أو تاجر، فأسلم فإن له مثل قضية أمر ثقيف... "[١].

رابعاً: إن عهد الرسول مع ثقيف التي لم تسلم لم يرد الاّ في كتاب الأموال لأبي عبيد في حين أن ما جاء في السيرة النبوية، وطبقات ابن سعد كان يتعلق بالذين اسلموا، وتفرّد أبي عبيد في إثبات العهد وفي ذكر خبر أن جزءاً من ثقيف لم يسلم يلقي شكاً عميقاً على العهد، يشجع الباحث على الاعتقاد بأن قبيلة ثقيف كلها قد اعتنقت الإسلام.

خامساً: وللدلالة على مدى المبالغة في إعطاء امتيازات لجماعة لم تسلم مثل ما روي عن قسم من قبيلة ثقيف لعل من المناسب ذكر جزء مما جاء في العهد المنسوب للرسول لبيان عدم اتفاقه والظروف الحرجة التي تعيشها ثقيف في تلك الحقبة بعد أن حوصرت بأتباع الرسول ومعاهديه، ويُضاف إلى ذلك أن الرسول ـ عليه السلام ـ لم يكن مضطراً لعقد معاهدة حسن جوار أو الدخول في حلف يقدم فيه امتيازات للطرف الآخر من غير واجبات عليه كما حدث في المعاهدات التي عقدها مع بعض القبائل العربية بعيد هجرته إلى المدينة، وقبل صلح الحديبية: "... إن واديهم حرام محرّم لله كله عِضاهِه[٢]، وصيده، وظلم فيه، وسرق فيه أو إساءة، وثقيف أحق الناس بوجّ، ولا يعبر طائفهم، ولا يدخله عليهم أحد من المسلمين يغلبهم عليه، وما شاؤوا أحدثوا في طائفهم من بنيان أو سواه بواديهم، لايحشرون ولا يعشرون، ولا يستكرهون بمال ولا نفس، وهم أمة من المسلمين يتولجون من المسلمين حيث ما شاؤوا..."[٣].

أما العهود التي أُبرمت زمن الخلفاء الراشدين في أثناء الفتوحات الاسلامية فتظهر فيها معالم أصول أو طريقة عقد العهد أو الحلف واضحة جلية من ناحية المضمون الذي احتوته، ومن جهة البناء الفني، وبدراسة هذه العهود معاً يمكن للباحث أن يتصور ما كانت عليه هذه العهود من جانبي المضمون والشكل.

---

(١) أبو عبيد، الأموال، ص: ٢٠٥.

(٢) العضاه – كل شجر له شوك، اللسان، مادة: عضه.

(٣) أبو عبيد، الأمول، ص: ٢٠٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتعكس هذه العهود القوة التي وصلت إليها الدولة الاسلامية في هذه الحقبة وقد منح الله المسلمين الظفر على من عاداهم بعد أن عقدوا العزم على نشر الاسلام إلى أهل الأرض طراً، وتغيير وجه تاريخ أماكن شاسعة من العالم، وتعد هذه العهود واجهة مشرقة من واجهات تاريخنا، تتجلى فيها النزعة الاسلامية الأصيلة لدى قواد المسلمين إلى التشريع والتقنين، وإلى كتابة العهد، وإلى إشهاد الشهود عليه، وإلى العناية بالحقوق والواجبات من غير إبهام بل ربما إسراف في التوضيح، بالإضافة إلى السعي للتوثيق الدقيق[١].

ويتضمن عهد الصلح ست وحدات جزئية تتعلق بالمضمون وهي: التحديد الجغرافي لمن تعنيهم عهود الصلح، والتحديد السكاني لمن تعنيهم عهود الصلح، وحقوق المصالحين، وواجباتهم، وضمانات الصلح، والعقوبات التي يتعرض لها المصالحون في حال نقض شروط العهد[٢]، ولا يعني هذا وجود هذه الوحدات في العهود جميعاً، بل إن وجودها يتفاوت من عهد لآخر، في حين أن وحدتي الحقوق والواجبات لا يخلو منها أي عهد لأن " ترتيب الوضع القانوني بين الفاتحين والمعاهدين هو أهم ما كان يُهدف إليه من وراء العهود "[٣].

أما التحديد الجغرافي لعهود الصلح فتذهب وداد القاضي إلى القول إنه " في رأس الضروريات في عهد من طبيعة عهد الصلح، ولكن بما أن عهود الصلح تعقد في الغالبية العظمى من الأحوال مع مدن وبلاد حدودها معروفة فإن هذه الوحدة قليلة الورود في ما وصلنا من عهود... وهي ترد وحسب في الحالات التي يكون فيها إبهام ما بالنسبة لمن تعنيهم شروط الصلح "[٤]، وذكرت الباحثة أن التحديد الجغرافي للعهد لا يذكر الا في حالات بعينها مثل " الحالات التي يكون فيها عهد الصلح شاملاً لأبناء منطقة واسعة لا لمكان واحد محدود "[٥]، وذكرت كذلك أن التحديد الجغرافي قد يأتي بغرض التوضيح والإبانة[٦] وبهدف التأكيد[٧]، ولم تذكر الباحثة أي عهد روي غفلاً من تحديد المكان الذي دخل أهله في عهد مع المسلمين وكل العهود التي عملت على إثباتها في ملحق بحثها

---

(١) وداد القاضي، مدخل إلى دراسة عهود الصلح الاسلامية زمن الفتوح، المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام، (بلاد الشام في صدر الاسلام)، المجلد الثاني، ص: ٢٤٨.

(٢) مدخل إلى دراسة عهود الصلح الاسلامية، ص: ٢٢٨-٢٢٩.

(٣) المرجع نفسه، ص: ٢٣٦.

(٤) المرجع نفسه، ص: ٢٢٩.

(٥) المرجع نفسه، ص: ٢٢٩.

(٦) المرجع نفسه، ص: ٢٢٩.

(٧) المرجع نفسه، ص: ٢٢٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فيها تحديد جغرافي لكل عهد[١]. وعلى كل حال فإن أي عهد أو اتفاق بين المسلمين وغيرهم لا بد أن يكون التحديد الجغرافي أساسياً فيه، لأن هذه العهود ترسل إلى الخليفة في حاضرة الدولة ليعرف الجهة التي عقدت صلحاً أو عهداً مع المسلمين؛ ولأن هذه العهود تبنى عليها أصول العلاقات المادية والإنسانية مع المسلمين والأطراف الأخرى، وكل عهد من هذه العهود يحتوي واجبات وحقوقاً قد تختلف ولا سيما فيما يتعلق بالتراتيب المالية لذلك كان ذكر المكان ضرورياً، ويُضاف إلى الأسباب السابقة أن هذه العهود وما جاء فيها تعدُّ سارية المفعول إلى من يأتي بعد من عقد الصلح فالعهود التي عقدت زمن الخلفاء الراشدين سار عليها بنو أمية، وتحديد المكان ضروري لمعرفة شروط صلح كل مدينة أو رقعة، ومن أمثلة التحديد الجغرافي لعهود الصلح: "... هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر "[٢]، " هذا ما أعطى حذيفة بن اليمان أهل ماه دينار "[٣]، " هذا ما أعطى سويد بن مقرّن أهل قومس ومن حشوا... "[٤]، " هذا كتاب من سويد بن مقرّن للفرُخان إصبهبذ خراسان على طبرستان وجيل جيلان "[٥]، " هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل لدّ، ومن دخل معهم من أهل فلسطين أجمعين "[٦].

أما التحديد السكاني فيستهدف استبعاد أي لبس قد يقع لدى سكّان " مكان ما حول من هو المعني، ومن هو غير المعني بشروط عهد الصلح، وهذا التحديد لا يكون مطلوباً الا في الأماكن التي يكون سكانها متنوعي الأجناس أو الأديان، أو ما إلى ذلك، فيقوم نص العهد بتبيان المعنيين بدقة... "[٧]، ومن أمثلة التحديد السكاني: "... أهل بعلبك رومها وفرسها وعربها "[٨]، فالعهد يشمل الأجناس الثلاثة ممن يقيم في بعلبك، "... أهل لد ومن دخل معهم من أهل فلسطين أجمعين "[٩]، "...

---

(١) مدخل إلى دراسة عهود الصلح الاسلامية، ملحق رقم (١)، ص: ٢٥١-٢٥٧، ملحق رقم (٢)، ص: ٢٥٨-٢٦٩.

(٢) تاريخ الرسل والملوك، ١٠٩/٤.

(٣) المصدر نفسه، ١٣٧/٤.

(٤) المصدر نفسه، ١٥٢/٤.

(٥) المصدر نفسه، ١٥٣/٤.

(٦) المصدر نفسه، ٦٠٩/٣؛ وانظر: ١٣٦/٤، ١٤١، ١٥٥، ١٦٢؛ وانظر: فتوح البلدان، ص: ١٦٦، ص٣٨، ٢٣٩، ٢٤٠.

(٧) مدخل إلى دراسة عهود الصلح الاسلامية، ص: ٢٣٠.

(٨) فتوح البلدان، ص: ١٧٧.

(٩) تاريخ الرسل والملوك، ١٥١/٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نصارى أهل دبيل ومجوسها ويهودها شاهدهم وغائبهم... "[١]، "... أهل الري ومن كان معهم من غيرهم[٢]، " أهل قومس ومن حشوا... "[٣]، "... إلى باذان مرذبان مروروذ، ومن معه من الأساور والأعاجم "[٤].

ويتضمن العهد من جهة المضمون جزءاً رئيساً فيه وهو وحدة الحقوق والواجبات؛ أما الحقوق التي قدمها المسلمون للمعاهدين فكانت تشمل أولاً الأمان على الأنفس، والأموال، وقد يأتي اعطاء الأمان على الأموال قبل الأنفس كما جاء في بعض الروايات، ويؤمنون على أراضيهم، واعطيت لهم الحرية الدينية، فهم أحرار في شرائعهم، ولا تتعرض كنائسهم للهدم، ولهم المنعة والدفاع عنهم، وفي عهد دمشق تعهد المسلمون بعدم هدم سور المدينة، ودورهم تبقى لهم لا يسكنها غيرهم؛ "... الأمان على أموالهم وأنفسهم وملتهم وشرائعهم "[٥]، "... بالأمان على أنفسكم، وأموالكم، وصوامعكم، وبيعكم، وصلواتكم... "[٦]، "... الأمان على أنفسهم، وملتهم، وأموالهم، وكنائسهم، وصلبهم، وبرهم، وبحرهم لا يدخل عليهم شيء من ذلك، ولا ينتقص، ولا يساكنهم النوب... "[٧]، " هذا كتاب أمان...على أنفسهم، وأموالهم، وكنائسهم، ودورهم، داخل المدينة وخارجها، وعلى أرحائهم[٨]، وللروم أن يَدَعُوا سرحهم ما بينهم وبين خمسة عشر ميلاً "[٩]، وأعطي أهل الذمة الداخلون في عهد مع المسلمين الحماية، والحرمة لأرضهم، فلا يدخلها المسلمون إلا بإذن: "... فليس لأحد منا أن يغير عليك، ولا يتطرق أرضك، ولا يدخل عليك إلا بإذنك، سبيلنا عليكم بالإذن آمنة وكذلك سبيلكم"[١٠]، والتفصيل في الأمان لم يرد في النصوص كلها بل انه جاء موجزاً جداً في كلمة تحمل كل المعاني التي تم التفصيل فيها في عهود أخرى؛ ففي عهد جرجان جمعت حقوق المصالحين في

---

(١) فتوح البلدان، ص: ٢٨٢.

(٢) تاريخ الرسل والملوك، ٦٠٩/٣.

(٣) المصدر نفسه، ١٥٢/٤.

(٤) المصدر نفسه، ٣١٠/٤-٣١١.

(٥) المصدر نفسه، ١٥٧/٤، (عهد موقان).

(٦) المصدر نفسه، ١٦٢/٤، (عهد تفليس).

(٧) المصدر نفسه، ١٠٩/٤، (عهد مصر).

(٨) الأرحاء، الطواحين، اللسان، مادة: رحا.

(٩) فتوح البلدان، ص: ١٧٧.

(١٠) تاريخ الرسل والملوك، ١٥١/٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قول سويد بن مقرّن: " إن لكم الذمة وعلينا المنعة "[١]، وقول خالد بن الوليد لأحد المعاهدين: "... فلك الذمة والمنعة "[٢].

والحقوق تعطى للمصالحين إذا أدّوا الواجبات التي تلقى على عاتقهم من قبل المسلمين، وفي حقيقة الأمر فإن الواجبات والحقوق يرتبط تحققهما ارتباطاً وثيقاًبمدى التزام كل طرف بما اشترط عليه، وقد ورد هذا الارتباط في نصوص بعض المعاهدات مثل: "... فلك الذمة والمنعة، فإن منعناكم فلنا الجزية، والا فلا حتى نمنعكم "[٣]، " فإن لم يمنعهم فلا شيء عليهم حتى يمنعهم "[٤].

وفي معظم العهود التي بين أيدينا تأتي وحدة " الحقوق " قبل وحدة " الواجبات "، " وذلك لأن أكثر العهود تبدأ بالأمان ومن ثم تنطلق إلى تبيان ما يشمل، ولأن الحقوق مهما جاء فيها من التفصيلات، فإنها تبقى اشد بساطة من الواجبات، وأقل تفريعاً منها "[٥]، وهذا لا يشكل قاعدة عامة؛ فقد تأتي الواجبات قبل الحقوق كما هو الحال في عهد جرجان[٦]، وهرَاة [٧]، وفي بعض العهود جاءت وحدة الواجبات في قسمين اعترضتهما وحدة الحقوق أو العكس[٨]، مثل ما جاء في عهد تفليس[٩]، ودنباوند[١٠]، وطبرستان[١١]، وهذا يقودنا إلى القول إن هذه العهود لا تسير وفق قاعدة عامة تطرد في كل المعاهدات وكأن الأمر في ترتيب مضمون العهد قد ترك لمن يقوم على إبرامه مع الطرف الآخر ممن لم يدخلوا في الاسلام، ويلاحظ أن العهود التي يبرمها قائد واحد تختلف في بيان الحقوق والواجبات ومن ذلك عهد عياض بن غنم، والنعمان بن مقرن، وسويد بن مقرن[١٢].

وأول الواجبات التي شرعها المسلمون على المصالَحين هي الجزية، وتختلف العهود في تحديد الجزية؛ ويعود ذلك إلى تباين الأوضاع الاقتصادية في كل بلد؛ " على أن تؤدوا إليّ عن كل رجل

---

(١) تاريخ الرسل والملوك، ١٥٣/٤.

(٢) المصدر نفسه، ٣٦٧/٣، ٣٦٨.

(٣) المصدر نفسه، ٣٦٧/٣، ٣٦٨.

(٤) المصدر نفسه، ٣٦٤/٣.

(٥) مدخل إلى دراسة عهود الصلح الاسلامية، ص: ٢٣٢.

(٦) تاريخ الرسل والملوك، ١٥٢/٤.

(٧) فتوح البلدان، ص: ٥٧٠.

(٨) مدخل إلى دراسة عهود الصلح الإسلامية، ص: ٢٣٢.

(٩) أبو عبيد، الأموال، ص: ٢٢٠-٢٢١.

(١٠) تاريخ الرسل والملوك، ١٥١/٤.

(١١) المصدر نفسه، ١٥٣/٤.

(١٢) مدخل إلى دراسة عهود الصلح الاسلامية (الملحق).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ديناراً، ومدّي قمح "[١]، " على الجزاء دينار عن كل حالم، أو قيمته "[٢]، "... عاهدهم على تسعين، ومائة ألف درهم، تقبل في كل سنة جزاء... "[٣]، "... وأنتم ضامنون جزية من نقبتم عليه على ألفي ألف تقيل في كل سنة عن كل ذي يد... "[٤]، " على إقرار بصغار الجزية على أهل كل بيت دينار وافٍ، ليس لكم أن تجمعوا بين متفرق الأهلات استصغاراً منكم للجزية، ولا لنا أن نفرق بين مجتمع استكثاراً منا للجزية "[٥]، وقد أخذت هذه الجزية على البيوت لذلك لا يحق لهم غشّ المسلمين وضم عدد من البيوت إلى بعضها للإقلال من الجزية، ولا يحق للمسلمين تفريق ما هو مجتمع منها لزيادة الجزية، وجاء في صلح مصر: "... وعلى أهل مصر أن يعطوا الجزية إذا اجتمعوا على هذا الصلح، وانتهت زيادة نهرهم خمسين ألف ألف،... وإن نقص نهرهم من غايته إذا انتهى دفع عنهم بقدر ذلك... "[٦].

وقد ورد ذكر الجزية في العهود من غير تحديد لقيمتها: "... إذا أعطوا الجزية التي عليهم"[٧]، "... وأديتم الجزية والخراج "[٨]، " أن يعطوا الجزية كما يعطي أهل مدائن الشام "[٩]، وقد تترك القيمة حسب الوسع والطاقة: " على كل حالم في ماله ونفسه على قدر طاقته "[١٠]، "...على الجزاء، وطاقة كلّ حالم في كل سنته "[١١]، " القوي على قدر قوته، والمقل على قدر إقلاله "[١٢].

وكانت نظرة المسلمين إلى الجزية انسانية إذ تطرح الجزية عمن لا يقدر على دفعها مثل: كبير السن، ومن ضعف على القيام بعمل لسبب خارج عن إرادته مثل المرض: "... وجعلت لهم، أيما شيخ ضعف عن العمل أو أصابته آفة من الآفات، أو كان غنياً فافتقر وصار أهل دينه يتصدقون

---

(١) فتوح البلدان، ص: ٢٣٩، (عهد الرها).
(٢) تاريخ الرسل والملوك، ١٥٧/٤، (عهد موقان).
(٣) المصدر نفسه، ٣٦٤/٣، (عهد الحيرة).
(٤) المصدر نفسه، ٣٦٨/٣، (عهد البهقباذ الاسفل والأوسط).
(٥) أبو عبيد، الأموال، ص: ٢٢١، (عهد تفليس).
(٦) تاريخ الرسل والملوك، ١٠٩/٤؛ صبح الأعشى، ٣٢٤/١٣، (عهد مصر).
(٧) فتوح البلدان، ص: ٢٣٨، (عهد الرقة).
(٨) المصدر نفسه، ص: ٢٨٢، (عهد دبيل).
(٩) المصدر نفسه، ص: ٢٨٢، (عهد لدّ).
(١٠) تاريخ الرسل والملوك، ١٣٧/٤، (عهد ماه دينار).
(١١) المصدر نفسه، ١٥١/٤.
(١٢) المصدر نفسه، ٣٦٧/٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عليه طرحت جزيته وعيل من بيت مال المسلمين وعياله، ما أقام بدار الهجرة ودار الاسلام "[١]، وطرحت الجزية عن فئات بعينها كما جاء في عهد أذربيجان: "... على أن يؤدوا الجزية على قدر طاقاتهم، ليس على صبي ولا امرأة ولا زَمِن ليس في يديه من الدنيا شيء "[٢]، واحتوت العهود حالة أخرى يُعفى بموجبها المصالحون من دفع الجزية، وهذه الحالة هي اشتراكهم في القتال مع المسلمين، ويعدّ القتال عوضا من الجزية المفروضة، وتعود الجزية عليهم إذا لم يقاتلوا: "... وعلى أهل أرمينية والأبواب الطُّرُاء منهم والتُّنَّاء، ومن حولهم فدخل معهم أن ينفروا لكل غارة، وينفروا لكل أمر ناب، أو لم ينُب رآه الوالي صلاحاً؛ على أن توضع الجزاء عمن أجاب إلى ذلك الا الحشر، والحشر عوض من جزائهم، ومن استُغني عنه منهم وقعد فعليه مثل ما على أهل أذربيجان من الجزاء "[٣]،." ومن استعنّا به منكم فله جزاؤه في معونته عوضاً من جزائه "[٤]، "... ومن حُشر منهم في سنة وضع عنه جزاء تلك السنة "[٥].

ويُلاحظ وجود اختلاف في تحديد الجزية بين ما جاء في عهود الصلح، وأخبار الرواة، وقد فسرت وداد القاضي هذا الفرق بناءً على ما جاء في كتب التعهد التي كان يكتبها أبناء البلاد المفتوحة للمسلمين إذ وجدت تشابهاً بين ما جاء في هذه العهود من تفصيلات وما جاء في أخبار الرواة ولا سيّما في تعهد أهل دمشق للمسلمين: "... وفي تصوّري أن الأخبار التي في المصادر مأخوذة عن " رسائل التعهد " التي كان يكتبها أبناء البلاد المفتوحة، ويوقعونها، ويعطونها للمسلمين مقابل تسلمهم عهود الصلح منهم،... "[٦]، وما ذهبت إليه الباحثة لا يبين ما كان عليه الوضع في تحديد الضرائب في تلك الحقبة؛ فعهود الصلح التي قيل إن أهل البلاد المفتوحة كانوا يكتبونها للمسلمين غير ثابتة لتفسر في ضوئها التباين الظاهر بين ما جاء في العهود وما جاء في الروايات[٧]،

---

(١) أبو يوسف، الخراج، ص: ٣٠٦، (عهد الحيرة).

(٢) تاريخ الرسل والملوك، ١٥٥/٤، (عهد أذربيجان).

(٣) المصدر نفسه، ١٥٧/٤، (عهد ارمينية).

(٤) المصدر نفسه، ١٥٢/٤، (عهد جرجان).

(٥) المصدر نفسه، ١٥٥/٤، (عهد أذربيجان).

(٦) مدخل إلى دراسة عهود الصلح الاسلامية، ص: ٢٣٧-٢٣٨.

(٧) لا يستطيع الباحث الجزم بصحة هذه العهود التي قيل إن أصحاب البلاد المفتوحة قد كتبوها إلى أنفسهم، وقد تعرض لهذه القضية بالبحث والنقد غير باحث وكانت نتيجة البحث إثارة الشكوك في هذه العهود، انظر: ترتون، أهل الذمة في الاسلام، ترجمة: حسن حبش، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٧، ص: ١-١١؛ زكريا القضاة، معاهدة فتح بيت المقدس ـ العهدة العمرية ـ المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام، (بلاد الشام في صدر الإسلام)، م٢، ص: ٢٧٨-٢٨٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولعلّ ما جاء به الدكتور عبد العزيز الدوري في تفسير هذا الاختلاف، وبيان مصادر الروايات هو الأقرب إلى واقع الوضع الاقتصادي في ذلك الحين[١].

ولم تقتصر واجبات المصالحين على الجزية أو العلاقة المادية مع المسلمين بل إن بعض العهود قد أودعت عدداً من الواجبات المعنوية تنظم العلاقة غير الماديّة بين الطرفين المتعاهدين، وكانت مساعدة المسلمين في قتال أعدائهم أحد هذه الواجبات وقد بينا سابقاً أن من يقاتل في صفوف المسلمين من المصالحين تسقط عنه الجزية، كما جاء في بعض العهود، وقد ورد واجب القتال مع المسلمين غير مرتبط بإسقاط الجزية: "... وإن عليك نصرة المسلمين، وقتال عدوّهم بمن معك من الأساورة إن أحبّ المسلمون ذلك وأرادوه... "[٢]، "... ولنا نصيحتكم وضلعكم على عدوّ الله، ورسوله، والذين آمنوا فيما استطعتم... "[٣]، وقد تكون هذه الاستطاعة أو القدرة على شكل مشاركة في القتال أو تقديم دعم مادّي مثل الطعام أو السلاح، أما الشروط الأخرى فمنها أن عليهم إصلاح الجسور، وبناء القناطر على الأنهار، وإصلاح الطرق، وهداية الضالّ، وإرشاده، وعدم الغش، ودلالة المسلم، والحفاظ على المسلمين وقت الحرب وعدم بيان نقاط الضعف عندهم للعدو، وتقديم النصح للمسلمين؛ "... ولنا عليهم أن يصلحوا جسورنا، ويهدو ضالنا... "[٤]، "... وما ارشدوا ابن السبيل، وأصلحوا الطرق... "[٥]، "... على أن ينصحوا، ولا يغشوا، وعلى أن يدلّوا "[٦]، "... ولا تؤون لنا بغية، ولا تسلون لنا إلى عدو، ولا تغلّون "[٧]، وعلى المصالحين الحد من إظهار شعائرهم الدينية بين المسلمين، جاء في عهد الرقة: "... وعلى أن لا يحدثوا كنيسة، ولا بيعة، ولا يظهروا ناقوساً، ولا باعوثاً، ولا صليباً "[٨]، وقد روي أن أبا عبيدة اشترط على أهل الشام أن لا: "يرفعوا في نادي أهل الاسلام صليباً، ولا يخرجوا خنزيراً من منازلهم إلى أفنية المسلمين،... ولا يضربوا

---

(١) عبد العزيز الدوري، التنظيمات المالية لعمر بن الخطاب (الضرائب ـ السواد)، وقائع ندوة النظم الإسلامية، أبو ظبي، ١٩٨٤، الجزء الثاني، ص: ١٥٣-١٨٥؛ تنظيمات عمر بن الخطاب (الضرائب في بلاد الشام)، المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام (بلاد الشام في صدر الإسلام)، المجلد الثاني، ص: ٤٥٧-٤٦٧؛ وانظر: الإدارة ونظام الضرائب في الشام في عصر الراشدين، ص: ٤٣٣-٤٥٥.

(٢) تاريخ الرسل والملوك، ٣١١/٤.

(٣) أبو عبيد، الأموال، ص: ٢٢١.

(٤) فتوح البلدان، ص: ٢٤٠.

(٥) تاريخ الرسل والملوك، ١٣٧/٤.

(٦) المصدر نفسه، ١٥٢/٤.

(٧) المصدر نفسه، ١٥٣/٤.

(٨) فتوح البلدان، ص: ٢٣٨-٢٣٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نواقيسهم قبل آذان المسلمين ولا في أوقات آذانهم، ولا يخرجوا الرايات في أيام عيدهم، ولا يلبسوا السلاح يوم عيدهم... "[١]، وقد نبه عمر بن الخطاب ولاته إلى عدم تشبه غير المسلمين بلباس المسلمين؛ فأرسل إلى عامله يقول له: إن على أهل الكتاب " أن تجزّ نواصيهم، وأن يربطوا الكُستجان[٢] في أوساطهم، ليعرف زيهم من زي أهل الاسلام... "[٣]، ولعل هذه الشروط كانت تستهدف إشعار من لم يسلم بأنه شاذ عن قاعدة إسلامية ويكون هذا دافعاً له للدخول في الإسلام ليمارس شعائر دينه الجديد بكل حرية، وفي هذه الشروط رفع من الروح المعنوية عند المسلمين بأن لهم الغلبة المادية والروحية مما يثبت الإيمان في نفوسهم، وقد اشترط على المصالحين عدم التعرض للمسلمين بأي أذى، جاء في بعض العهود: "... على أن يفخّموا المسلم، فمن سبّ مسلماً، أو استخف به نُهك عقوبة، ومَن ضربه قُتل "[٤]؛ "... وعلى أن مَن سبّ مسلماً بُلغ جهده، ومَن ضربه حلّ دمه"[٥]، ولعل ذكر قتل من يضرب المسلم جاء على سبيل التهديد والتخويف. ومن الشروط المهمة في عهود الصلح قِرى المسلمين وجندهم. إن اشتراط الضيافة بدأ بعد أن استطاع الرسول ـ عليه السلام ـ أن ينشئ نواة لكيانه السياسي والعسكري في الجزيرة العربية، وذلك بعد أن بدأت الدعوة الاسلامية تحرز نجاحاً واسعاً بعد فتح مكة[٦]، ونجد الضيافة شرطاً في عهود الصلح والاتفاقيات التي عقدها الرسول الكريم مع بعض الجماعات، ومن ذلك اتفاقه مع قبيلة بارق؛ إذ اشترط عليهم أن " مَن مر بهم من المسلمين من عَرك أو جدب فله ضيافة ثلاثة أيام "[٧]، وفي اتفاق الرسول مع نجران اشترط عليهم مئواة رسله عشرين يوماً[٨]، وهذه الضيافة " أصبحت بعد خروج القوات العربية الإسلامية خارج الجزيرة العربية أكثر ضرورة من قبل لذا فإنها ترتبط ارتباطاً وثيقاً بحاجة الجند إلى التموين لدى العرب، فكان لا بدّ أن تتدبر الدولة أمور تموين جيشها "[٩]، ولذلك فإن العديد

---

(١) أبو يوسف، الخراج، ص: ٢٩٨.

(٢) الكستج: خيط غليظ بقدر الاصبع من الصوف يشدّه الذمي على وسطه، علي بن محمد الجرجاني، التعريفات، دار السرور، بيروت، ص: ٧٩-٨٠.

(٣) أبو عبيد، الأموال، ص: ٥٨.

(٤) تاريخ الرسل والملوك، ١٥١/٤، (عهد الرّي).

(٥) المصدر نفسه، ١٥٢/٤.

(٦) فالح حسين، الفروض العينية ـ الضيافة والأرزاق ـ كمصدر لتمويل جيش الفتح، المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام (بلاد الشام في صدر الاسلام)، المجلد الثاني، ص: ١٧٧.

(٧) الطبقات الكبرى، ٢٨٧/١.

(٨) أبو يوسف، الخراج، ص: ١٩١.

(٩) الفروض العينية، ص: ١٧٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من عهود الصلح التي عقدت في الحقبة الراشدية تضمنت واجباً على الطرف غير المسلم هو ضيافة المسلمين: "... وقروا المسلمين "[١]، "... وإقراء المسلم المجتاز ليلة بالمعروف من حلال طعام أهل الكتاب وحلال شرابهم... "[٢]، "... وقروا جنود المسلمين من مر بهم، فآوى اليهم يوماً وليلة "[٣]، "... وعليهم نُزُل من نزل بهم من المسلمين يوماً وليلة من أوسط طعامهم "[٤]، "... والنُّزُل يوماً كاملاً "[٥]، ولعمر بن الخطاب بعض الكتب التي تشدد على الضيافة؛ روى حارثة بن مضرب قال: "قرئ علينا كتاب عمر: إنا جعلنا الضيافة على أهل السواد يوماً وليلة، فإن حبسه مطر، أو مرض انفق من ماله "[٦]؛ روى حكيم بن عمير قال: كتب عمر بن الخطاب: " أيما رفقة من المهاجرين آواهم الليل إلى أهل قرية من المعاهدين فلم يؤوهم، فقد برئت منهم الذمة... "[٧].

وأتاحت العهود مجالاً لمن رغب في الدخول في الإسلام واعتناقه، وفي هذه الحالة فهو واحد من المسلمين له ما لهم، وعليه ما عليهم: "... ومن أسلم منهم، فله ما لنا وعليه ما علينا... "[٨]، "...فإن تبتم، وأقمتم الصلاة، وآتيتم الزكاة فإخواننا في الدين "[٩].

وإثر بيان الحقوق والواجبات تأتي وحدة الضمان، ويكون الضمان بالعهود والذمة، ذمة الله والرسول والخلفاء؛ "... لهم بذلك عهد الله، وذمة رسوله، والخلفاء، والمؤمنين "[١٠]، " على ما جاء في هذا الكتاب عهد الله وذمته، وذمة رسوله، وذمة الخليفة أمير المؤمنين، وذمم المؤمنين... "[١١].

ويعتبر عدم الوفاء بالشروط التي اتفق عليها الطرفان خروجاً على المعاهدة، ونقضاً لها، يبيح للمسلمين قتالهم دون نبذ اليهم: "... فمن منع ما عليه، فلا عهد، ولا ذمة "[١٢]، " فإن غشوا وبدّلوا

---

(١) تاريخ الرسل والملوك، ٤/١٥٢.

(٢) أبو عبيد، الأموال، ص: ٢٢١.

(٣) تاريخ الرسل والملوك، ٤/١٣٦-١٣٧.

(٤) المصدر نفسه، ٤/١٥٢.

(٥) المصدر نفسه، ٤/١٥٧.

(٦) أبو عبيد، الأموال، ص: ١٦٠.

(٧) المصدر نفسه، ص: ١٦٠.

(٨) فتوح البلدان، ص: ١٧٧.

(٩) الأموال، أبو عبيد، ص: ٢٢١.

(١٠) قدامة بن جعفر، (ت ٣١٩هـ)، الخراج وصناعة الكتابة، تحقيق: محمد حسن الزبيدي، دار الرشيد، ١٩٨١، ص: ٢٩٢.

(١١) تاريخ الرسل والملوك، ٤/١٠٩.

(١٢) فتوح البلدان، ص: ٥٧٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فذمتنا منهم بريئة "[١]، " ومن تولى عن الإيمان والاسلام والجزية فعدوّ لله ورسوله والذين آمنوا... "[٢]، وقد يعاقبون إذا ارتكبوا تجاوزات بعينها كما جاء في عهد النوبة: "... فإن أنتم آويتم عبداً لمسلم، أو قتلتم مسلماً، أو معاهداً، أو تعرضتم للمسجد الذي ابتناه المسلمون بفناء مدينتكم بهدم، أو منعتم شيئاً من الثلاثمائة رأس والستين رأساً، فقد برئت منكم هذه الهدنة والأمان... "[٣].

ويتضح للباحث أنّ أهم الميزات التي حكمت علاقة المسلمين بغيرهم كانت الاعتبارات الانسانية والأخلاقية، وقد تجلت هذه الميزة في جوانب كثيرة مما احتوته المعاهدات من حقوق وواجبات وخاصة في عهد الخلفاء الراشدين بعد أن قويت شوكة الاسلام، وأصبح المسلمون قادرين على فرض جميع شروطهم دون الاضطرار إلى تقديم بعض التنازلات كما حدث إبان العهد النبوي وقت نشوء الدولة الاسلامية، أما الجوانب التي تتجلى فيها النزعة الانسانية في علاقة المسلمين مع المصالَحين فهي:

أولاً: تقتضي الموادعة أو عقد العهد أن يأمن المعاهدون على أنفسهم ونسائهم وذراريهم؛ فالعهد عقد أمان لذلك يجب مراعاة حرماتهم وحمايتهم[٤].

ثانياً: أعطى المصالحون الحرية في القيام بشعائر دينهم، وتعهد المسلمون بعدم هدم بيوت عبادتهم.

ثالثاً: رافق شرط الجزية بعض الحالات التي يُعفى فيها أهل الصلح من دفع هذا الالتزام المالي مثل عدم القدرة على العمل، أو الاشتراك في الحرب إلى جانب المسلمين.

رابعاً: كان تنفيذ الواجبات التي قررها المسلمون على المصالحين مرهوناً بقيام المسلمين بالتزاماتهم نحو الطرف الآخر فلا إجحاف أو تفرقة وكأن الطرفين متساويان في القوة رغم أن القوة إلى جانب المسلمين.

ومع ذلك فإن في عهود الصلح ما يحفظ للمسلمين الهيبة، وأن يكون الطابع العام للدولة هو الاسلام وحده؛ فالشعائر الدينية وبناء أماكن العبادة لم تترك دون تقييد، ويحظر عليهم التعرض للمسلمين بالسب أو الضرب، وعليهم تقديم العون لمن ضلّ طريقه، أو اضطر للنزول عندهم.

---

(١) تاريخ الرسل والملوك، ١٣٧/١٣٦/٤.

(٢) أبو عبيد، الأموال، ص: ٢٢١.

(٣) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ٢٠٠/١.

(٤) عثمان علي جمعة ضميرية، المعاهدات الدولية في فقه الامام محمد بن الحسن الشيباني (دراسة فقهية مقارنة)، رابطة العالم الإسلامي، ص:١٠٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثالث

التنظيمات الماليـــة

بالإضافة إلى ما احتوته المعاهدات من إجراءات مالية فقد وصلتنا جملة من الوثائق التي تنظم التعامل المالي بين الدولة والرعية وعلى اختلاف فئاتهم، ويشكل نظام الاقطـاع جـزءاً مهمـاً فـي هـذا التنظيم.

عرّف العلماء الإقطاع الإسـلامي بأنـه " أن يقطـع السلطان رجـلاً أرضـاً فتصـير لـه رقبتهـا، وتسمّى تلك الأرضون قطائع، واحدتها قطيعة "[١]، أو هو: " تسويغ الإمام من مال الله لمن يراه أهـلاً لذلك، فأصلة كأنه أقطع من جملة المال "[٢].

وتمثلت دوافع هذا الإقطاع بجملة من الأمور منها تحقيق تآلف القبائل على الاسـلام، ولإحيـاء الأرض الموات؛ إذ كان الإقطاع وسيلة لاستصلاح الأراضي واستغلالها، ولخدمـة النفـع العـام فكـان صاحب الأمر يعطي إقطاعاً لمن قدم خدمات عامة للدولة، ولدواعي الحاجة والإعاشة[٣].

وقد كانت صحة وثائق الإقطاع موضوع جدل عنـد قدمـاء البـاحثين إذ ذهـب بعضهـم إلـى أنّ الرسـول وأبـا بكـر وعمـر بـن الخطـاب لـم يقطعـوا وأن أول مـن أقطـع الأرض وباعهـا عثمـان بـن عفان[٤]، وقد ردّ على هؤلاء أبو يوسف في قوله: " فقد جـاءت الآثـار بـأن النبـي ـ صلـى اللـه عليـه وسلم ـ أقطع أقواماً وأن الخلفاء من بعده أقطعوا، ورأى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الصـلاح

---

(١) الخوارزمي، أبو عبيد الله محمد بن أحمد، (ت ٣٨٧هـ)، مفاتيح العلوم، المطبعة المنيرية، القاهرة، دار الرشـيد للنشر، ١٩٨٦، ص: ٢١٨.

(٢) تخريج الدلالات السمعية، ص: ١٨١-١٨٢.

(٣) أبو يوسف الخراج، ص: ١٧٧؛ نشأة الدولة الإسلامية، ص: ٢٧١-٢٧٣؛ جابر قميحة، أدب الرسائل في صدر الاسلام، (عهد النبوة)، ط١، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٨٦، ص: ٨٨-٨٩؛ محمـد عبـد القـادر خريسـات، القطـائع فـي صـدر الإسـلام، دراسـات تاريخيـة، ع٢٧ و ٢٨، ١٩٨٧، ص: ٦٧-٩٩، ص: ٧٦-٧٨؛ عبـود الراضي، موقف الإسلام من الأرض والإقطاع، دار التربية، ١٩٧٠؛ عادل محيـي الألوسـي، قطـائع الرسـول صلى الله عليه وسلم، المؤرخ العربي، عدد ٣٣، ١٩٨٧، ص: ١٩٧-١٩٨.

(٤) يحيى بن آدم القرشي (ت ٢٠٣هـ)، الخراج، ط٢، تحقيق: أحمد محمد شاكر، ١م، المطبعة السلفية، ١٣٨٤هـ، ص: ٧٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فيما فعل من ذلك إذ كان فيه تألّف على الإسلام، وعمارة للأرض؛ وكذلك الخلفاء إنّما أقطعوا من رأوا أن له غناءً في الاسلام ونكاية للعدو، ورأوا أن الأفضل ما فعلوا، ولولا ذلك لم يأتوه، ولم يقطعوا حق مسلم ولا معاهد... "(١).

ومضمون وثيقة الإقطاع يشمل: اسم الرسول المقطع أو الخليفة، واسم الشخص الذي مُنح الإقطاع له أو القوم: " هذا ما أعطى محمد رسول الله بلال بن الحارث المزني "(٢)، " هذا كتاب من محمد رسول الله للزبير بن العوام إني أعطيته "(٣)، " هذا ما أعطى الرسول عوسجة بن حرملة الجهني من ذوي المروة "(٤)، " وكتب رسول الله لبني زياد بن الحارث الحارثيين "(٥)، ومن ثم يحدد مكان الإقطاع بدقة: "... أعطاه معاون القبيلة جلسيها وغوريها، وحيث يصلح الزرع "(٦)، "...أعطاه سوارق كله أعلاه وأسفله، ما بين مودع القرية إلى موقت إلى حين الملحمة... "(٧)، "... أعطاهم المحدّب، وهو بين الهُدّ إلى الوابدة "(٨)، "... أعطاه موضع دار بمكة يبنيها مما يلي المروة ... "(٩)، وتضمن نص الاقطاع التأكيد على أن لا أحق لأحد آخر في الإقطاع الممنوح: "... لا يحاقه فيها أحد، ومن حاقّه فلا حقّ له، وحقّه حقّ "(١٠)، وقليل من وثائق الاقطاع يفرض شروطاً مقابل منح الإقطاع: " وكتب رسول الله ليزيد بن الطفيل الحارثي إنّ له المضنّة كلها، لا يحاقة فيها أحد ما أقام الصلاة، وآتى الزكاة، وحارب المشركين "(١١)، " لبني قنان بن يزيد الحارثي، إنّ لهم مذوداً وسواقيه ما أقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وفارقوا المشركين، وأمنوا السبيل، وأشهدوا على إسلامهم، وأنّ في أموالهم حقّاً للمسلمين "(١٢).

---

(١) أبو يوسف، الخراج، ص: ١٧٧.

(٢) الطبقات الكبرى، ٢٧٢/١.

(٣) المصدر نفسه، ٢٧٤/١، إعلام السائلين، ص: ١٦٢.

(٤) المصدر نفسه، ٢٧١/١.

(٥) المصدر نفسه، ٢٦٨/١.

(٦) المصدر نفسه، ٢٧٢/١.

(٧) اعلام السائلين، ص: ١٦٢.

(٨) المصدر نفسه، ص: ١٦٣.

(٩) الطبقات الكبرى، ٢٨٥/١.

(١٠) المصدر نفسه، ٢٧١/١، ٢٧٤.

(١١) المصدر نفسه، ٢٦٨/١.

(١٢) المصدر نفسه، ٢٦٨/١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولا يدّعي أيّ باحث الجزم بصحّة جميع وثائق الإقطاع إذ أن احتمال الوضع فيها وارد؛ فيدّعي فرد أو مجموعة من الأفراد مكاناً معيناً ولتسويغ دعواهم وإكسابها الشرعية اللازمة يلجأون إلى وضع وثيقة ممهورة بالخاتم النبوي تمنحهم حق ملكية الأرض المعنية، وبذلك يحتجون على كل سلطة تحاول الوقوف في سبيل حيازتهم لها بالوثيقة النبوية المدّعاة[١]، ومن وثائق الإقطاع التي حدث حول صحتها خلاف إقطاع الرسول عليه السلام لتميم الداري[٢].

وفي عهد عمر بن الخطاب روي عن محمد بن عبيد الله الثقفي أنّ رجلاً من أهل البصرة قال لعمر بن الخطاب: " إن قبلنا أرضاً بالبصرة ليست من أرض الخراج، ولا تضر بأحد من المسلمين، فإن رأيت أن تقطعنيها اتخذ فيها قضباً[٣] لخيلي، قال: فكتب عمر إلى أبي موسى الأشعري: إن كانت كما يقول فأقطعها إيّاه "[٤]، وفي طلب آخر للإقطاع أرسل عمر إلى أبي موسى يقول: " إن أبا عبد الله سألني أرضاً على شاطئ دجلة، فإن لم تكن أرض جزية ولا أرضاً يجري إليها ماء جزية فأعطها إيّاه "[٥].

أما الفرائض المالية التي تفرض على المسلمين وعلى من لم يعتنقوا الاسلام في عهد الرسول الكريم وفي عهد من بعده من الخلفاء الراشدين فقد أوضحت الوثائق جوانب منها؛ ففي عهد الرسول ـ عليه السلام ـ لعمرو بن حزم بيّن له الالتزامات المالية المفروضة على بني الحارث بن كعب فعليه أن يأخذ من المغانم الخمس، أما زكاة الزرع فيأخذ على ما سقى من العيون ومن السماء العشر، أما ما يُسقى بواسطة المجهود البشري بنقل الماء إليه فعليه نصف العشر، وحدّد العهد زكاة الحيوان: "... وأمره أن يأخذ من المغانم خمس الله، ومما كتب على المؤمنين في الصدقة من العقار عشر ما سقت العين، وسقت السماء، وعلى ما سقى الغرب[٦] نصف العشر، وفي كل عشر من الإبل شاتان،

---

(١) نشأة الدولة الاسلامية، ص: ٢٦٩.

(٢) رفيق التميمي، الاقطاع وأول إقطاع في الاسلام، مكتبة الطاهر اخوان، يافا؛ نشأة الدولة الأسلامية، ص: ٢٦٢-٢٦٦، أدب الرسائل في صدر الاسلام، ص: ٩٠-٩٣؛
F. Krenkow, Grant of Land by Muhammad to Tamim ad-Dari, Islamica, 1924, Vol. 1, p. 529-532.

(٣) القضب: شجر ينبت في مجامع الشجر، له ورق كورق الكمثرى الا انه أرق وأنعم، وترعى الابل ورقه وأطرافه، اللسان، مادة: قضب.

(٤) أبو عبيد، الأموال، ص: ٢٩٠؛ ابن زنجويه، الأموال، ٦٢٤/٢-٦٢٥.

(٥) ابن آدم، الخراج، ص: ٢٥؛ أبو عبيد، الأموال، ص: ٢٩٠؛ ابن زنجويه، الأموال، ٦٢٤/٢-٦٢٥.

(٦) الغرب: دلو عظيمة تتخذ من جلد ثور، اللسان، مادة: غرب.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي كل عشرين اربع شياه، وفي كل أربعين من البقر بقرة، وفي كل ثلاثين من البقر تبيع[١]، جذع[٢] أو جذعة، وفي كل أربعين من الغنم سائمة[٣] وحدّها شاه، فإنها فريضة الله التي افترض على المؤمنين في الصدقة فمن زاد فهو خير له... "[٤]. وتطرقت وثيقة العهد إلى اليهود والنصارى وبيّنت الجزية المفروضة عليهم في حال عدم إسلامهم: " وأنّه من أسلم من يهودي أو نصراني إسلاماً خالصاً من نفسه، ودان بدين الاسلام فإنّه من المؤمنين له مثل ما لهم، وعليه مثل ما عليهم، ومن كان على نصرانيته أو يهوديته فإنّه لا يرد عنها، وعلى كل حالم، ذكر أو أنثى، حر أو عبد، دينار وافٍ أو عوضه ثياباً، فمن أدّى ذلك، فإنّ له ذمة الله، وذمة رسوله، ومن منع ذلك، فإنّه عدوّ لله ولرسوله وللمؤمنين جميعاً "[٥].

وقد كتب الرسول لبعض القبائل التي دخلت في الاسلام كتباً تتضمن حقوقاً مالية أُعطيت لهم من قبل الرسول؛ كتب لقبيلة بارق وهم فرع من الأزد وجاء في الكتاب: "... أن لا تجذ ثمارهم، وأن لا ترعى بلادهم في مربع، ولا مصيف الا بمسألة من بارق، ومن مرّ بهم من المسلمين في عرك[٦] أو جدب، فله ضيافة ثلاثة أيام، فإذا أينعت ثمارهم، فلابن السبيل اللقاط يوسع بطنه من غير أن يقتتم[٧] "[٨]، وكتب الرسول كتاباً لمطرّف بن الكاهن الباهلي حين زار الرسول وقبل الاسلام، وجاء في الكتاب: " إنّ من أحيا أرضاً مواتاً بيضاء، فيها مناخ الأنعام، ومراح فهي له، وعليهم في كل ثلاثين من البقر فارض[٩]، وفي كل أربعين من الغنم عتود[١٠]، وفي كل خمس من الإبل ثاغية[١١] مسنّة، وليس على عامل الصدقة أن يصدقها الا في مراعيها، وهم آمنون بأمان الله "[١٢]. ويلزم الكتاب المصدق ألا يأخذ الزكاة على الحيوان إلا وهو في المرعى وفي هذا تخفيف على الناس، " إذ

---

(١) التبيع: الفحل من ولد البقرة في أول سنّه، اللسان، مادة: تبع.

(٢) الجذع: صغير السّن، اللسان، مادة: جذع.

(٣) السائمة، كل إبل تُرسل ترعى ولا تُعلف، اللسان، مادة: سوم.

(٤) السيرة النبوية، ١٧٩/٤؛ اعلام السائلين، ص: ١٤٠.

(٥) المصدر نفسه، ١٧٩/٤؛ ص: ١٤٠.

(٦) العرك، الحرب والقتال، اللسان، مادة: عرك.

(٧) يقتتم، يحمل معه، اللسان، مادة: قتم.

(٨) الطبقات الكبرى، ٣٥٢/١.

(٩) الفارض، المسنة، اللسان، مادة: فرض.

(١٠) العتود: من أولاد المعز، ما رعى وقوي وأتى عليه حول، اللسان، مادة: عتد.

(١١) الثاغية، الشاة، اللسان، مادة: ثغا.

(١٢) الطبقات الكبرى، ٢٨٤/١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يوفر عليهم الجهد والمشقة التي يتطلبها جمعهم كل قطعانهم في مكان مركزي واحد، ليختار منها المصدق "[١].

وقد قام باحثان بدراسة بعض الرسائل النبويّة التي تحتوي فرائض مالية، من ذلك رسائله ـ عليه السلام ـ مع بعض القبائل العربية في جنوبي بلاد الشام مثل رسالته ـ عليه السلام ـ إلى أكيدر دومة الجندل، وإلى أسقف أيلة وإلى أهل جرباء واذرح، وقد قام الباحثان بدراسة هذه الرسائل من جهتي السند والمتن، وبيّنا ما لحق هذه الرسائل من وضع وتحريف، وحاولا إثبات بعض روايات الرسائل التي رويت بغير رواية[٢].

وكتب الرسول وثيقة في أمر الغنائم مخصصاً جزءاً منها لأفراد من المسلمين، ومن ذلك ما كتبه حين قسّم أموال خيبر: "... هذا ما أعطى محمد رسول الله لأبي بكر بن أبي قحافة مائة وسق، ولعقيل بن أبي طالب مائة وأربعين ولبني جعفر بن أبي طالب خمسين وسقاً ولربيعة بن الحارثة مائة وسق... "[٣]، وكتب ما أعطاه لنسائه من قمح خيبر: "... قسم لهنّ مائة وسق وثمانين وسقاً، ولفاطمة ابنة رسول الله خمسة وثمانين وسقاً، ولأسامة بن زيد أربعين وسقاً، وللمقداد بن الأسود خمسة عشر وسقاً، ولأم رُميثة خمسة أوسق، شهد عثمان بن عفان، وعباس، وكتب "[٤].

وكانت ترد إلى عمر بن الخطاب كتب يستشيره فيها قادة الجيش والولاة بشأن القضايا المالية التي استجدّت بالفتوح؛ روى طلحة بن عبيد الله أنه كُتب إلى عمر بن الخطاب بشأن الصوافي فكتب إليهم: " اعمدوا إلى الصوافي التي أصفاكموها الله، فوزّعوها على من أفاءها الله عليه؛ أربعة أخماس للجند وخمس في مواضعه إليّ، وإن أحبّوا أن ينزلوها فهو الذي لهم... "[٥]. والصوافي هي الأراضي التي كانت تابعة لقيصر وآله، ولرجال الدين، أو كانت تابعة للأشراف، أو لرجل قتل في الحرب، أو لحق بأرض الحرب أو مغيض ماء، وقد ضم عمر بن الخطاب هذه الأرض إلى بيت مال

---

(١) نشأة الدولة الإسلامية، ص: ٢٤١.

(٢) جاسر ابو صفية، المراسلات النبوية مع بعض القبائل العربية في جنوبي بلاد الشام، المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام، م٢، ص: ٦٥-٨٣؛ ابراهيم زيد الكيلاني، المراسلات النبويّة مع بعض القبائل العربية في جنوبي بلاد الشام، المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام (بلاد الشام في صدر الاسلام)، م٢، ص: ٨٥-١٠١.

(٣) مغازي الواقدي، ٦٩٤/٢-٦٩٥، السيرة النبوية، ٢٢٧/٣.

(٤) السيرة النبوية، ٢٢٨/٣؛ مغازي الواقدي، ٦٩٤/٢.

(٥) تاريخ الرسل والملوك، ٣١/٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المسلمين، وعرفت بالصوافي لأنه استصفاها أي جعلها خالصة للمسلمين[١]. وقد كتب بعض أمراء الطائف إلى عمر بشأن أصحاب النحل الذين كانوا يؤدون إلى الرسول من كل عشر قِرب قِربة، وقد توقفوا عن ذلك، ويطلبون من الأمراء الاستمرار في حمايتهم، فكتب إليهم عمر: ' إن أدّوا اليك ما كانوا يؤدون إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فاحمِ أوديتهم، وإن لم يؤدّوا إليك ما كانوا يؤدون إليه فلا تحمِ لهم "[٢].

وكتب أبو موسى الأشعري إلى عمر بن الخطاب بشأن تجار المسلمين الذين يذهبون تجاراً إلى أرض الحرب فتؤخذ منهم ضريبة تسمّى " العشر "، فكتب إليه عمر: " خذ أنت منهم كما يأخذون من تجار المسلمين، وخذ من أهل الذمة نصف العشر، ومن المسلمين من كلّ أربعين درهماً درهماً، وليس فيما دون المائتين شيء، فإذا كانت مائتين ففيها خمسة دراهم، وما زاد فبحسابه "[٣]. فالعشور ضريبة تستوفى من المسلم، ومن أهل الذمة، ومن أهل الحرب الذين يدخلون ديار الإسلام للتجارة[٤].

وروى أنس بن مالك أن عمر بن الخطاب أرسله على العشور، وكتب إليه عهداً أن يأخذ من " المسلمين مما اختلفوا فيه لتجاراتهم ربع العشر، ومن أهل الذمة نصف العشر، ومن أهل الحرب العشر "[٥]. وقد لجأ بعض القدماء والمحدثين لوضع أسباب لهذا الاختلاف في ضريبة العشور بين المسلمين، وأهل الذمة، وأهل الحرب، ومن ذلك أن المأخوذ من المسلمين زكاة، والمأخوذ منهم كالجزية حتى تصرف إلى مصارفها، وقيل بسبب حاجة الذميّ إلى الحماية أكثر لأنّ طمع اللصوص في أموال أهل الذمة أوفر، فيؤخذ منه ضعف ما يؤخذ من المسلم، وعللّ هذا الاختلاف بأن التكاليف الماليّة المفروضة على المسلم أكثر منها على الذمي، فاقتضى هذا الأمر تضعيف الضريبة التجارية على الذميّ[٦].

---

(١) أبو يوسف، الخراج، ص: ١٦٩؛ نجدة خماش، الادارة ونظام الضرائب في الشام في عصر الراشدين، المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام (بلاد الشام في صدر الاسلام)، المجلد الثاني، ص: ٤٤٩.

(٢) أبو يوسف، الخراج، ص: ١٦٧.

(٣) المصدر نفسه، ص: ٢٩٣؛ ابن آدم، الخراج، ص: ١٦٩.

(٤) فرج محمد الهوني، النظم الإدارية والمالية في الدولة العربية الإسلامية، ١٩٧٦، ص: ١٤٥-١٤٩؛ عبد الكريم زيدان، أحكام الذميين والمستأمنين في دار الإسلام، ط٢، ١٩٧٦، ص: ١٧٦-١٩٦؛ فالح حسين، العشور ضرائب التجارة في صدر الإسلام، دراسات تاريخية، ع: ٢٩-٣٠، ١٩٨٨، ص: ٣٢-٥٣؛ محمد الصادق عفيفي، المجتمع الإسلامي والعلاقات الدولية، مؤسسة الخانجي، القاهرة، ٣١٣-٣١٨.

(٥) أبو يوسف، الخراج، ص: ٢٩٣.

(٦) أحكام الذميين والمستأمنين، ص: ١٨٤-١٨٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهذه الضريبة تستوفى مرة واحدة في السنة فقد أرسل عمر بن الخطاب إلى عامله زياد بن حدير الأسدي عامله على عشور العراق كتاباً بشأن شكوى رجل نصراني من تغلب أستوفيت منه الضريبة غير مرة في السنة الواحدة، وجاء في كتاب عمر: " من مرّ عليك فأخذت منه صدقة فلا تأخذ منه شيئاً إلى مثل ذلك اليوم من قابل الا أن تجد فضلاً "[١]، وهذا يعني أن المال الواحد لا يدفع عليه الا مرّة واحدة، وإذا مرّ التاجر بتجارات أخرى في السنة ذاتها فإنه يدفع عن كل ما يمرّ به، وكان التاجر بعد استيفاء الضريبة منه يُعطى وثيقة من العاشر لتكون حجة بأدائه الضريبة ولا يعشّر ثانية على المال نفسه[٢]، أما الحربيّ فإذا أخذ العاشر منه الضريبة فعاد فدخل في دار الحرب ثم خرج بعد شهر منذ أخذ منه العشر فمرّ على العاشر فإنه يأخذ منه الضريبة مرّة أخرى[٣]، ويعلل أبو يوسف ذلك بأن الحربي إذا عاد إلى دار الحرب فقد سقطت عنه أحكام أهل الإسلام[٤]. وفي رواية جاءت في كتاب الخراج لابن آدم قيل إنّ عمر بن الخطاب بعث كتاباً إلى أحد ولاته وهو زياد بن حُدير ذكر فيه أن أناساً من أهل الحرب يدخلون أرض المسلمين، ويقيمون فيها، فكتب إليه عمر: " إن أقاموا ستة أشهر فخذ منهم العشر، وإن أقاموا سنة فخذ منهم نصف العشر "[٥]، وتحدد هذه الرواية مقدار ضريبة العشور على أهل الحرب إذا دخلوا ديار المسلمين بالمدة التي يقيمون فيها، وكلما أقاموا مدة أطول فإنّ الضريبة تكون نصف العشر عوضاً عن العشر إذا أقاموا فقط ستة أشهر.

وحين افتتح سعد بن أبي وقاص العراق سأله الناس أن يقسم بينهم المغانم، وما أفاء الله عليهم، وأرسل سعد إلى عمر بن الخطاب يطلب رأيه، وقد استشار عمر مَن عنده من الصحابة وأدلى كل منهم برأيه، واتخذ عمر قراراً بأن لا تقسم الأرض على أهل الفتح بل تبقى بيد أصحابها وأرسل إلى سعد يقول: "... فإذا أتاك كتابي هذا فانظر ما أجلب الناس عليك به إلى العسكر من كُراع[٦]، ومال، فاقسمه بين من حضر من المسلمين، واترك الأرضين، والأنهار لعمّالها ليكون ذلك في أعطيات المسلمين، فإنك إن قسمتها بين مَن حضر لم يكن لمن بعدهم شيء... "[٧]، وأرسل أبو عبيدة إلى عمر بن الخطاب يستشيره بشأن القضية ذاتها حين افتتح الشام، فأرسل إليه عمر مبيناً ما

---

(١) أبو يوسف، الخراج، ص: ٢٩-٢٩٥.

(٢) المغني، ٥١٩/٨.

(٣) أبو يوسف، الخراج، ص: ٢٩٠؛ أبو عبيد، الأموال، ص: ٥٣٦-٥٣٧.

(٤) المصدر نفسه، ص: ٢٩٠.

(٥) ابن آدم، الخراج، ص: ١٦٨.

(٦) الكُراع، الأبل، اللسان، مادة: كرع.

(٧) أبو يوسف، الخراج، ص: ١١٣؛ ابن آدم، الخراج، ص: ٢٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

جاء في القرآن الكريم في طريقة التعامل مع ما يغنمه المسلمون بعد هزيمة الأعداء، ومما جاء في رد عمر: "... فأقرّ ما أفاء الله عليك في أيدي أهله، واجعل الجزية عليهم بقدر طاقتهم تقسمها بين المسلمين، ويكونون عمّار الأرض فهم أعلم بها وأقوى عليها، ولا سبيل لك عليهم ولا للمسلمين معك أن تصيرهم فيئاً وتقسمهم للصلح الذي جرى بينك وبينهم... "[١]، وقد تضمنت هذه الرسالة جزءاً لا يترشح منه معنىً، وفيه مخالفة لقاعدة التعامل مع أهل الذمة وهي حرية كل من دخل في كنف الدولة الإسلامية: " أرأيت لو أخذنا أهلها فاقتسمناهم ما كان يكون لمن يأتي بعدنا من المسلمين؟ والله ما كانوا يجدون أنساناً يكلمونه ولا ينتفعون بشيء من ذات يده، وإن هؤلاء يأكلهم المسلمون ما داموا أحياء فإذا هلكنا وهلكوا أكل أبناؤنا أبناءهم أبداً ما بقوا، فهم عبيد لأهل دين الاسلام ما دام الاسلام ظاهراً، فاضرب عليهم الجزية، وكفّ عنهم السبّي "[٢]، وروى ابن الحكم أن خلافاً حدث بعد فتح الاسكندرية حول تقسيم الأرض وأرسل عمر بن الخطاب إلى واليه يقول: " لا تقسمها، وذرهم يكون خراجهم فيئاً للمسلمين، وقوة لهم على جهاد عدوّهم... "[٣].

إن الرأي الذي تبناه عمر بن الخطاب وبعض الصحابة، وخالفوا فيه بقية الصحابة، وأصحاب الفتح كان مستنداً على ما جاء في القرآن الكريم، وكان مستنداً كذلك على نظر ثاقب، ونظرة ممتدة إلى أبعد من زمن الفتح؛ لأن توزيع الأرض على المسلمين يحرم الدولة من ريعها؛ والمسلمون بحاجة للمال لاستكمال الفتوح التي لن تقف عند زمن عمر بن الخطاب ومَن معه، ومما جاء على لسان عمر في أثناء النقاش حول هذه القضية قوله: "... قد أشرك الله الذين يأتون من بعدكم في هذا الفيء، فلو قسمته لم يبق لمن بعدكم شيء، ولئن بقيت ليبلغنّ الراعي بصنعاء نصيبه من هذا الفيء، ودمه في وجهه..."[٤]، والخليفة منطلق في نظرته هذه من مفهوم الأمة، وهي في حالة جهاد، وتحتاج إلى الوارد، والفيء يُهيّىء لها ذلك في حين أن النظرة الأخرى للأرض باعتبارها غنيمة حرب هي أقرب للنظرة القبليّة[٥].

وأرسل عمر بن الخطاب إلى عماله عدداً من الكتب تحمل تعليمات مالية لاتباعها في المصر الذي هم فيه؛ كتب عمر إلى أبي عبيدة: " إذا أتاك كتابي هذا، فاعلمني يوماً من السنة لا يبقى في

---

(١) أبو يوسف، الخراج، ص: ٣٠١-٣٠٢.

(٢) المصدر نفسه، ص: ٣٠٢.

(٣) فتوح مصر، ص: ٦٣.

(٤) أبو يوسف، الخراج، ص: ١١٢-١١٣.

(٥) عبد العزيز الدوري، التنظيمات المالية لعمر بن الخطاب (الضرائب)، وقائع ندوة النظم الاسلامية، أبو ظبي، ١٩٩٤، ١٦٤/٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بيت مال المسلمين درهم، حتى يكتسح اكتساحاً، حتى يعلم الله اني قد أدّيت إلى كل ذي حقّ حقّه"[١]، وفي هذا القول حرص على أموال الدولة وسعي حثيث لينفق المال في وجوهه التي قررها الشرع الإسلامي؛ وروى يعلى بن أمية أن عمر بن الخطاب كتب إليه لما بعثه على خراج أهل نجران: "...انظر كل أرض جلى أهلها عنها، فما كان لهم من أرض بيضاء تُسقى سيحاً[٢] أو تسقيها السماء، فما كان فيها من نخل أو شجر فادفعه إليهم يقومون عليه ويسقونه، فما أخرج الله من شيء فلعمر وللمسلمين منه الثلثان ولهم الثلث، وما كان يُسقى بغرب فلهم الثلثان، ولعمر وللمسلمين الثلث "[٣]، وبعث عمر إلى واليه جزء بن معاوية يطلب إليه أخذ الجزية من المجوس: "... خذ ممن قبلك من المجوس الجزية، فإن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد أخذ الجزية من مجوس هجر... "[٤]، وروى أسلم مولى عمر بن الخطاب أن عمر كتب إلى أمراء الأجناد "... اقبلوا الجزية ممن جرت عليه المواسي، ولا تأخذوا من امرأة ولا صبيّ، ولا تأخذوا الجزية إلا أربعة دنانير أو أربعين درهماً، واجعل على كل واحد مُدّيً حنطة... "[٥]، وحرص عمر على التجارة المشروعة وكان يتلف أي مال اكتسب بوسائل محرّمة؛ روى أبو عمرو الشيباني أن عمر بن الخطاب بلغه عن رجل كان بالسواد يتجر بالخمر، فأثرى وكثر ماله، فكتب فيه عمر: " اكسروا كلّ شيء قدرتم له عليه، وسيّروا كل ماشية له ولا يأوينّ احد له شيئاً "[٦]، وروى يزيد بن أبي حبيب أن عمر بن الخطاب كتب إلى سعد بن أبي وقاص: " إني قد كتبت إليك أن تدعو الناس إلى الإسلام ثلاثة أيام، فمن استجاب لك قبل القتال فهو رجل من المسلمين له ما للمسلمين، وله سهمه في الإسلام، ومَن استجاب لك بعد القتال، وبعد الهزيمة فماله فيء للمسلمين لأنهم قد كانوا أحرزوه قبل إسلامه، فهذا أمري وكتابي إليك "[٧].

---

(١) ابن زنجويه، الأموال، ٥٦٤/٢.

(٢) الأرض البيضاء، لا نبات فيها، اللسان، مادة: بيض، السيح، الماء الجاري، اللسان، مادة: سيح.

(٣) أبو يوسف، الخراج، ص: ١٩٦-١٩٧.

(٤) المصدر نفسه: ص: ٢٨٣.

(٥) المصدر نفسه، ص: ٢٨١، ابن آدم، الخراج، ص: ٦٩.

(٦) المحلى، ٤٩٢/٧؛ وانظر: محمد دوّاس قلعة جي، موسوعة فقه عمر بن الخطاب، ط٢، مكتبة الفلاح، الكويت، ١٩٨٤، ص: ٨٦.

(٧) أبوعبيد، الأموال: ص: ١٥٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وروى طارق بن شهاب أن عمر بن الخطاب كتب إليه في امرأة أسلمت: " ادفعوا إليها أرضها تؤدي عنها الخراج "[١]، أي أنّ الأرض التي تؤخذ عنوة تبقى أرضاً خراجية حتى لو أسلم صاحبها، ويؤدي أهلها إلى مَن يقوم بأمر الاسلام خراجها[٢].

وقد وصلتنا برديّة من هذا العصر في مصر إبّان الفتح الاسلامي تحمل معلومات عن استلام أعداد من الماشية قدمتها احدى الكور إلى أحد القادة وهي لغايات التموين العسكري، ومؤرخة بسنة اثنتين وعشرين هجرية، وقد جاء فيها:

" بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أخذ عبد الله ابن جبر واصحبه من الجزر من أهنس أخذنا من خليفة تذرق ابن أبو قير الأصغر ومن خليفة اصطفن ابن أبو قير الأكبر خمسين شاة من الجزر وخمس عشرة أخرى أجزرها اصحب سفنه وكتبه وثقلاه في شهر جمادى الأولى من سنة اثنين وعشرين وكتب ابن حديدو "[٣].

---

(١) أبو عبيد، الأموال، ص: ٩٤.

(٢) المصدر نفسه، ص: ٧٣-٨٢.

(٣) Grohmann, Adolf, From the World of Arabic Papyri, Cairo, 1952, p. 113-114.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الباب الثالث

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصـــل الأول

البناء الفنّي للرسائل والعهود

لا يعدو الباحث الحقيقة إذا أكّد الصعوبة التي تعترضه في تحديد بناء وثائق هذا العصر؛ فهو نثر جديد بما احتواه من مضامين، وجديد كذلك في بنائه، إذ لم يحذُ حذو قوالب فنية جاهزة ورثها من العصر الذي سبقه كما كان الحال في الشعر وفي سبيل تتبع الأصول التي اتبعت في مقدمات الرسائل والعهود والتحالفات وخواتيمها فإن طريق الباحث في هذه المحاولة لتحقيق هدفه شائك، ووعر، ويعود ذلك إلى عدد من الأسباب نجملها فيما يلي:

يفتقر هذا العصر إلى الوثائق الأصليّة، وقد وصلتنا الوثائق المنسوبة إليه عن طريق الرواية، مما جعلها عرضة للاختصار البسيط حيناً، والشديد حيناً آخر؛ وقلة من الرسائل رويت بصورة كاملة متضمنة الافتتاحية والخاتمة في حين أن كثيراً منها روي غفلاً من المقدمة والخاتمة ولم يذكر أيّ جزء من البناء خلا عبارة فصل الخطاب " أما بعد "، ورسائل كثيرة جداً روي منها المضمون فقط. أما العهود ولا سيما التي عقدت في العهد الراشدي فهي أقرب إلى الاكتمال في أجزائها لذلك فإن دراسة بنائها أيسر من دراسة الوثائق الأخرى، وأمر آخر يتصل ببناء هذه الوثائق، زاد في صعوبة دراستها، هو ما اعتورها من وضع ونحل بفعل الأهواء والعصبيات، وضعف الذاكرة فكأن الراوي يؤلف مقدمة وخاتمة كما يحلو له من غير تثبت وروية، يُضاف إلى ذلك أن هذا العصر كان عصر بناء وتأسيس في مضامين النثر وأشكاله، فلا نتوقع أن تكون أولى الرسائل مكتملة في بنائها، مع العلم أن التأريخ في الرسائل بدأ في عهد عمر بن الخطاب كما مرّ سابقاً.

ومع كل ذلك فإن الباحث يمكنه تلمس صورة للبناء الفني الذي كانت تنتهجه وثائق عهد النبوة والخلافة الراشدة وذلك من خلال ما يلي:

١- الوثائق المروية خاصة التي رويت كاملة في مصادر عُنيت بذلك مثل " فتو ح الشام " للأزدي. ٢- مرويّات المصادر التي اهتمت بأساليب الخطاب في هذا العصر مثل " أدب الكتاب"، و " العقد الفريد "، و " صبح الأعشى ". ٣- البرديّات التي وصلت إلينا من العصر الأموي لأنها قريبة العهد من عصر النبوة والخلافة وهي امتداد له، ولا سيما أن بناء البرديّات الفني كان استمراراً للعهد الذي سبقه، أو أنه الصورة الكاملة العناصر لما بدأ في العهد السابق.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويكاد البناء في الوثائق على اختلافها يتفق في كثير من جوانبه، ويغلب عليه طابع المراسلات كما رأينا، أما المقدمة فقد كانت تتضمن: البسملة، والعنوان، والسلام، والتحميد، وعبارة " أما بعد ".

وقد قيل عن البسملة، إنّها لم تكن كاملة منذ بداية المراسلات فقد روى ابراهيم بن محمد الشيباني ومحمد بن حفص " أن قريشاً كانت تكتب في جاهليتها " باسمك اللهم " وكذلك كان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم نزلت سورة هود وفيها: " بسم الله مجراها ومرساها "[١]، فأمر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأن يُكتب في صدر كتبه " بسم الله "، ثم نزلت في سورة بني إسرائيل " قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياً ما تدعوا فله الأسماء الحسنى "[٢]، فكتب بسم الله الرحمن "، ثم نزلت في سورة النمل " إنه من سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم "[٣]، فجعل ذلك في صدر الكتاب إلى الساعة "[٤].

إن نصوص الوثائق المنسوبة إلى عهد النبوة لا تساعدنا في إثبات صحة هذه الرواية في تطور البسملة[٥]، إلى أن وصلت إلى الاكتمال في صورة ' بسم الله الرحمن الرحيم '، ولعل ذلك يعود إلى أن الرواة استبدلوا المقدمّات السابقة بالصورة الأخيرة للبسملة أو أن الرواية السابقة ما هي الا نوع من محاولة الربط بين ما جاء في القرآن الكريم ومقدمات المراسلات، وقد انتقد جابر قميحة هذه الرواية منبهاً إلى مسألة مهمة فيها قائلاً: "... إن هذه الآيات كلها مكيّة، وارتباط تطور الافتتاح بها يعني أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كتب عدداً كبيراً من الرسائل قبل الهجرة لأن مفهوم الرواية يعني أن كل " افتتاح " يمثل مرحلة اطردت فيها الكتابة على هذا النحو، وهذا لم يقل به أحد، فالبداية الحقيقية لكتابة الرسائل كانت بعد الهجرة "[٥]، أما العهد المكي فلم يصل إلينا منه إلا رسالتان: الأولى عهد الرسول لسراقة بن مالك ولم يرو بنصّه[٦]، والثانية رسالة الرسول لمصعب بن عمير مبعوث النبي إلى المدينة يطلب إليه إقامة الصلاة يوم الجمعة، وكانت بداية كتابه لمصعب " أما بعد "[٧].

---

(١) سورة هود، آية ٤١.

(٢) سورة الإسراء، آية ١١٠.

(٣) سورة النمل، آية ٣٠.

(٤) أبو بكر محمد بن يحيى الصولي، (ت ٣٣٦هـ)، أدب الكتاب، تحقيق: محمد بهجت الأثري، ١م، ص: ٣١-٣٢؛ العقد الفريد، ١٥٨/٤؛ صبح الأعشى، ٢١١/٦.

(٥) أدب الرسائل في صدر الاسلام، ص:١١٦.

(٦) السيرة النبوية، ٩٧/٢.

(٧) الروض الآنف، ٢٥٥/٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد اختلف العلماء في البسملة على ثلاثة أقوال:

الأوّل: ليست بآية من الفاتحة ولا من غيرها.

الثاني: أنّها آية من كلّ سورة.

الثالث: هي آية في الفاتحة، ولا خلاف في أنّها آية من القرآن في سورة النمل[١].

ويلي البسملة العنوان الذي يتضمن المرسل والمرسل إليه، وكان الرسول عليه السلام يبدأ بنفسه مبيناً أنه النبي أو رسول الله، " بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد النبي لبني زهير "[٢]، " بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما أعطى الرسول عوسجة بن حرملة الجهني "[٣]، وقد جمع النبي بين الصفتين في كتاب آخر جاء فيه: " بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب من محمد النبي رسول الله لعباد الله العتقاء "[٤] وفي عهد الخلفاء الراشدين كانت المكاتبات في الغالب تبدأ باسم المرسل ومن ثم يُذكر اسم المرسل إليه: "... من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى أبي عبيدة بن الجراح "[٥]، "...من عبد الله عثمان أمير المؤمنين إلى الوليد بن عقبة "[٦]، "... من عبد الله علي بن أبي طالب أمير المؤمنين لأهل النجرانية "[٧]، "... من عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب... "[٨]، ويلاحظ أن بعض الرسائل كانت تذكر قبل العنوان " هذا كتاب " كما جاء في كتب الرسول عليه السلام[٩]. وذكر اسم المرسِل أولاً ليس قاعدة ثابتة بل هناك نصوص ذكر فيها اسم المرسَل إليه قبل المرسِل، وذلك عندما يكون المرسل إليه أعلى منزلة من المرسِل: " لعبد الله بن عثمان خليفة رسول الله، من خالد بن الوليد "[١٠]، " لعبد الله عمر أمير المؤمنين من عامر بن الجرّاح "[١١]، وهذا الأسلوب كتب

---

(١) القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري، (ت ٦٧١هـ)، الجامع لأحكام القرآن، ط١، دار الكتب المصرية، ١٩٣٣، ٨١/١.

(٢) الطبقات الكبرى، ٢٧٩/١.

(٣) المصدر نفسه، ٢٧١/١.

(٤) المصدر نفسه، ٢٧٩/١.

(٥) فتوح الشام، الأزدي، ص:١٤١.

(٦) أبو يوسف، الخراج، ص: ١٩٥.

(٧) المصدر نفسه، ص: ١٩٥.

(٨) الواقدي، فتوح الشام، ٥٨/٢.

(٩) الطبقات الكبرى، ٢٧٤/١، ٢٨٥، ٢٨٦، ٢٨٧، ٢٨٨، ٢٩٠، صبح الأعشى، ٣٦٧/٦.

(١٠) كتاب الرّدة، ص: ٧٨.

(١١) الفتوح، ٢٢٥/١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

به خالد بن الوليد إلى الرسول ـ عليه السلام ـ؛ " لمحمد النبي رسول الله، من خالد بن الوليد..." [١]، ورويت بعض الرسائل من غير ذكر العنوان؛ " بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد، ... "[٢].

أما العهود فقد كانت تبدأ بالبسملة، وبعدها وقبل العنوان يذكر كاتب العهد عبارة تمهيدية مثل: " هذا كتاب "[٣]، " هذا ما أعطى "[٤]، " هذا ما عاهد عليه "[٥]، " هذا كتاب أمان "[٦]، " عهد من..."[٧]، " هذا ما أمر به "[٨]، وقد تبدأ بعض العهود خالية من هذه العبارة التمهيدية مثل عهد مروالروذ "[٩].

والعنوان في العهود يذكر فيه الطرفان اللذان توليا عقد الصلح من الجانب المسلم من الجانب غير المسلم، ويعقد عهد الصلح عن المسلمين في العادة قائد الجيش الفاتح وقد يكون هو الأمير نفسه، أو قد يكون قائد جيش صغير، أما من جانب السكان المحليّن أو المصالحين فإن بعض عهود الصلح تذكر أن الصلح تمّ مع أهل البلد، وفي بعض العهود تذكر وظيفة الشخص الذي أبرم الصلح مع الجانب المسلم، أو تذكر اسمه صريحاً[١٠] ومن أمثلة ذلك: "... من عياض بن غنم ومن معه من المسلمين لأهل الرّها "[١١]، وهنا جمع العهد بين القائد المسلم والمسلمين جميعاً، " هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر "[١٢]، " من سويد بن مقرن لرزبان صول بن رزبان وأهل دهستان وسائر أهل جرجان "[١٣]، " من خالد بن الوليد لصلوبا نسطونا وقومه "[١٤]، " هذا ما عاهد عليه خالد

---

(١) السيرة النبوية، ١٧٧/٤.

(٢) الأزدي، فتوح الشام، ٦٢.

(٣) فتوح البلدان، ص: ٢٤٠.

(٤) تاريخ الرسل والملوك، ١٠٩/٤؛ وانظر: ٦٠٩/٣، ١٣٧/٤؛ فتوح البلدان، ص: ٢٣٨.

(٥) تاريخ الرسل والملوك، ٣٦٤/٣.

(٦) فتوح البلدان، ص: ١٧٧.

(٧) المواعظ والاعتبار، ٢٠٠/١.

(٨) فتوح البلدان، ص: ٥٧٠.

(٩) تاريخ الرسل والملوك، ٣١٠/٤.

(١٠) مدخل إلى دراسة عهود الصلح الاسلامية، ص: ٢١٥.

(١١) فتوح البلدان، ص: ٢٤٠.

(١٢) تاريخ الرسل والملوك، ١٠٩/٤.

(١٣) المصدر نفسه، ١٥٢/٤.

(١٤) المصدر نفسه، ٣٦٧/٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ابن الوليد عدّياً وعمراً ابني عدي، وعمرو بن عبد المسيح، وإياس بن قبيصة وحيري بن أكال "[١]، "عهد من الأمير عبد الله بن سعد بن أبي سرح لعظيم النوبة وجميع أهل مملكته "[٢]، وقيل إن أول من كتب " من عبد الله فلان أمير المؤمنين " عمر بن الخطاب[٣].

وبعد العنوان أو ذكر طرفي الكتاب يكون السلام والتحميد، وللسلام والتحميد صيغتان: صيغة للمسلمين، وصيغة لغير المسلمين، أما صيغة المسلمين فتكون: " سلام عليك فإني أحمد إليك الله الذي لا إلى إلا هو "[٤]، ومثال ذلك " بسم الله الرحمن الرحيم، لعبد الله أبي بكر خليفة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من أبي عبيدة بن الجراح، سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إلى إلا هو "[٥]، " من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى أبي عبيدة بن الجراح، سلام عليك فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو "[٦].

أما غير المسلمين فيكتب إليهم: " سلام على من اتبع الهدى "[٧] والتحميد يكون خلواً من " إليك "[٨] أي " فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو " ومن أمثلة ما يكتب لغير المسلمين: " " من خالد ابن الوليد إلى مرازبة أهل فارس، سلام على مَن اتبع الهدى "[٩]، " بسم الله الرحمن الرحيم، من أبي عبيدة بن الجراح إلى بطارقة أهل إيلياء وسكانها، سلام على من اتبع الهدى "[١٠]، وقد ورد التحميد لغير المسلمين في بعض المراسلات النبويّة باستخدام " اليك " وكان هذا من المآخذ التي أُخذت على هذه النصوص[١١]، وفي عهد الخلفاء الراشدين فإن الرسائل التي وصلت إلينا لم يرد فيها التحميد،

---

(١) تاريخ الرسل والملوك، ٣/٣٦٤.

(٢) المواعظ والاعتبار، ١/٢٠٠.

(٣) أدب الكتاب، ص: ١٤٤.

(٤) البخاري، الأدب المفرد، مكتبة الآداب ومطبعتها، ١٩٧٩، ص: ٢٢٣-٢٢٥؛ أحكام أهل الذمة، ٢/٧٧٢-٧٧٣؛ جاسر أبو صفية، المراسلات النبوية، ص: ٧٤؛ أدب الرسائل، ص: ١٢٠.

(٥) الأزدي، فتوح الشام، ص: ٣٠، وأنظر: ص: ٦٦، ١٦٥، ٢٤٣.

(٦) المصدر نفسه، ص: ٢٤٤.

(٧) الأدب المفرد، ٢٢٣-٢٢٥؛ أحكام أهل الذمة، ٢/٧٧٢-٧٧٣؛ صبح الأعشى، ٦/٣٥٢؛ جاسر أبو صفية، المراسلات النبوية، ص: ٧٤.

(٨) جاسر أبو صفية، المراسلات النبوية، ص: ٧٤-٧٥.

(٩) تاريخ الرسل والملوك، ٣/٣٤٦.

(١٠) الأزدي، فتوح الشام، ص: ٢٤٣.

(١١) جاسر أبو صفية، المراسلات النبوية، ص: ٧٤-٧٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد يكون ذلك بسبب اسقاطه اختصاراً، أما في البرديّات الأموية مثل برديّات قرّة بن شريك[١] فكان ذلك جلياً فيها.

وهذا الاختلاف بين الصيغة التي يكتب بها للمسلم، والصيغة التي يكتب بها لغير المسلم تعود إلى طبيعة العلاقة بين الطرفين؛ فالمسلم تربطه بالمسلم الآخر حالة سلم لذلك فإنّ شبه الجملة للمخاطب " عليك " تعبّر عن هذه العلاقة، أما علاقة المسلم بغيره فهي ليست علاقة سلم، لذلك يأتي السلام واقعاً على " من اتبع الهدى " وكأنه يقع على مجهول أو على أي انسان اتبع هدى الله، وهؤلاء المرسَل إليهم غير مشمولين بهذا السلام.

ويمكن أن يقال الشيء نفسه عن التحميد؛ فجملة " أحمد اليك الله " تحتمل غير معنى؛ قال الخليل بن أحمد والأزهري إنها تعني أحمد معك الله، وقال بعضهم إنها تعني أشكر إليك نعمه وأياديه واحدثك بها "[٢]، ومعاني " أحمد إليك " تفترض الاجتماع مع غير المسلمين والحديث عن نعم الله عليهم، والعلاقة بين الطرفين لا تسمح بذلك لأنّها علاقة حرب وإن تخللها فترات سلام فإنّها ليست دائمة.

وتنتهي المقدمة بعبارة " أما بعد "، روى أبو سلمة قال: " إنّ أول مَن قال " أما بعد " كعب بن لؤي "[٣]، وقيل إن أول من قال " أما بعد " النبي داود ـ عليه السلام ـ وأن ذلك فصل الخطاب[٤] الذي قاله له الله عز وجل: " وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب "[٥] ولا تقع " أما بعد " إلا بعد الحمد أو الدعاء أو العنوان، فيفصل بها بين الخطاب المتقدّم والخطاب الذي يجيء بعدها[٦]، وقال الصولي في " أدب الكتاب ": " لا بدّ من مجيء الفاء بعد " أما " لأن " أما " لا عمل لها إلا اقتضاء الفاء واكتسابها فإن الفاء تصل بعض الكلام ببعض وصلاً لا انفصال بينه، ولا مهلة فيه "[٧].

أما خاتمة الرسائل فقد كانت تتضمن السلام، والتأريخ، وكاتب الرسالة، والخاتم. ومما يؤسف له أن رواة الرسائل لم يعنوا بهذه الأمور إذ إنّ قليلاً من الرسائل أُثبتت فيها الخاتمة أو جزء منها،

---

(١) Phil. C. H. Becker, Papyri Schott. Renhardt I, Heidelberg, 1906, p. 58, 62, 68, 92.

(٢) اللسان، مادة: حمد.

(٣) أدب الكتاب، ص: ٣٦.

(٤) المصدر نفسه، ص: ٣٧؛ صبح الأعشى، ٢٢٢/٦.

(٥) سورة ص، آية ٢٠.

(٦) أدب الكتاب، ص: ٣٧-٣٨.

(٧) المصدر نفسه، ص: ٣٨؛ صبح الأعشى، ٢٢٢/٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومما ختمت به رسائل هذه الحقبة ما يلي: " والسلام عليك ورحمة الله وبركاته "(١)، " والسلام عليك "(٢)، " والسلام "(٣). ولعل الصيغة الأولى هي التي كانت متبعة في المراسلات في حين أن الصيغتين الثانية والثالثة قد تكونان اختصاراً للأولى، وذلك بناءً على ما ختمت به الرسائل البرديّة التي وصلت إلينا من العصر الأموي(٤)، هذا ما يتصل " بالسلام " في خاتمة الرسائل الموجهة إلى المسلمين، أما غير المسلمين فيكون السلام على النحو التالي: " والسلام على مَن اتبع الهدى "(٥)، ويلاحظ أن سلام الافتتاح يكون نكرة في حين أن سلام الخاتمة يكون معرفة؛ وذلك لأن " سلام التحية يكون ابتداءً فيكون نكرة، وسلام الوداع يكون انتهاءً فيكون معرفة لرجوعه إلى الأول "(٦).

وعُني أصحاب الرسائل بتأريخها وذكر اسم الكاتب، ومثال ذلك ما جاء في أول وثيقة عربية اسلامية أصليّة وصلت إلينا: "... في شهر جمادى الأولى من سنة اثنتين وعشرين، وكتب ابن حديدو... "(٧)، وقيل إنّ أبيّ بن كعب الأنصاري كاتب الرسول أول من كتب في آخر الكتاب " وكتب فلان "(٨).

وفي عهود الصلح نجد أن العهد عليه شهود لتأكيده، وتختلف العهود في عدد الشهود، وفي بعضها لا يذكر الشهود مثل عهد الري(٩)، وعهد دبناوند(١٠) ومن أمثلة ما أشهد عليه: " شهد هشام ابن الوليد، والقعقاع بن عمرو، وجرير بن عبد الله الحميري، وحنظلة بن الربيع... "(١١)، " شهد الله وكفى بالله شهيداً "(١٢)، " شهد الله وملائكته والمسلمون "(١٣)، وعدد الشهود غير ثابت، فهم أربعة

---

(١) فتوح الشام، ص: ٥، ٥٥، ٦٣، ٨٦، ٨٧؛ الفتوح، ٢١٧/١.

(٢) المصدر نفسه، ص: ٧١، ١٦٢، ١٦٣، ١٥٧.

(٣) المصدر نفسه، ص: ٦٢، ٦٧، ١٤٧؛ الفتوح، ٤١/١.

(٤) Papyri Schott, p. 66-67.

(٥) الطبقات الكبرى، ٢٧٦/١؛ صبح الأعشى، ٣٥٢/٦؛ جاسر أبو صفية، المراسلات النبوية، ص: ٧٤-٧٥؛ وانظر نماذج من البرديّات الأموية في: Papyri Schott, Reinhard t-I, P. 66, 76, 80.

(٦) صبح الأعشى، ٢٢٠/٦.

(٧) From the World of Arabic Papyri, p. 13-114.

(٨) فتوح البلدان، ص: ٦٦٢.

(٩) تاريخ الرسل والملوك، ١٥١/٤.

(١٠) المصدر نفسه، ١٥١/٤.

(١١) المصدر نفسه، ٣٦٧/٣.

(١٢) فتوح البلدان، ص: ١٧٧.

(١٣) المصدر نفسه، ص: ٢٤٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

شهود في عهد خالد لصلوبا نسطونا، وثلاثة شهود في عهد ماه دينار[١]، ولا يقل الشهود عن شاهدين حسب ما قرره الإسلام[٢]، وإذا لم تذكر أسماء الشهود فهناك " انتحاء لإشهاد الله في حال عدم تسمية شهود بأعيانهم منذ العهود المبكرة (بعلبك ودبيل والرقة والرها وتفليس والنوبة)، وهذا الإشهاد يكون بسيطاً مباشراً كما في عهد النوبة: " الله الشاهد بيننا على ذلك "[٣]، أو مضافاً إلى الله تعالى "[٤].

وتعقب وحدة الشهود وحدة الكاتب، ولا تتضمن العهود جميعها هذه الوحدة، ومن أمثلة الكتاب: " كتبه عمرو بن شرحبيل "[٥]، " وكتب جندب "[٦]، " وكتب كيسان مولى بني ثعلبة "[٧]، " وكتب ربيع ابن نهشل "[٨]، " وكتب مرضي بن مقرن "[٩]، ووردت كلمة " كتب " وحدها دون ذكر اسم الكاتب في عدد من العهود مثل عهد الري[١٠]، وقومس[١١]، ودنباوند[١٢] وفي هذه العهود قرن الفعل "كتب " بالفعل " شهد " وفي هذه الحالة قد يكون الكاتب واحداً من الذين شهدوا على العهد " كتب وشهد "[١٣]، وترد هذه الصيغة من غير أن يذكر اسم الكاتب والشاهد، كما هو حال العهود الثلاثة التي لم يرد فيها اسم الكاتب والشاهد مثل: " وكتب وشهد عبد الله بن قيس، وعبد الله بن ورقاء، وعصمة بن عبد الله "[١٤].

---

(١) تاريخ الرسل والملوك، ٣/٣٦٧، ٣٦٨، ٤/١٣٧.

(٢) الآية: " واستشهدوا شهيدين من رجالكم "، سورة البقرة، آية ٢٨٢.

(٣) المواعظ والاعتبار، ١/٢٠٠.

(٤) مدخل إلى دراسة عهود الصلح الاسلامية، ص: ٢٢٥.

(٥) المواعظ والاعتبار، ١/٢٠٠.

(٦) تاريخ الرسل والملوك، ٤/١٥٥.

(٧) المصدر نفسه، ٤/٣١١.

(٨) فتوح البلدان، ص: ٥٧٠.

(٩) تاريخ الرسل والملوك، ٤/١٥٧.

(١٠) المصدر نفسه، ٤/١٥١.

(١١) المصدر نفسه، ٤/١٥٢.

(١٢) المصدر نفسه، ٤/١٥١.

(١٣) المصدر نفسه، ٤/١٥١.

(١٤) المصدر نفسه، ٤/١٤١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويلي وحدة الكاتب تأريخ العهد، ومعظم العهود المؤرخة كان التأريخ بالسنة وبعضها جاء مؤرخاً بالسنة والشهر، " وكتب في سنة ثماني عشرة "[١]، " وكتب في سنة إحدى وثلاثين "[٢]، " وكتب سنة اثنتي عشرة في صفر "[٣]، " وكتب في شهر ربيع الأول من سنة اثنتي عشرة "[٤]، وجاء التأريخ في عهد ماه دينار بالشهر فقط، وقد يكون ذلك إسقاطاً من الراوي، : " وكتب في المحرّم"[٥].

وآخر ما يكتب في الرسالة أو العهد هو الخاتم، وقد جاءت صيغة الختم وكأنها خبر بأنّ العهد قد ختم، أيّ أنها لم تكن جزءاً أصيلاً في العهد، وأرى أن نقش الختم هو الأصيل في العهد، ولتوضيح ذلك نورد أمثلة من العهود التي ذكر أنها ختمت، ففي عهد الرقة وبعد ذكر الشهود جاء: " وختم عياض بخاتمه "[٦]، " وختم حبيب بن مسلمة "[٧]، " وختم ابن عامر "[٨]، وفي عهد مرو الروذ ذكر نقش الخاتم: " ونقش خاتم الأحنف " نعبد الله "[٩]، وقد رجحت وداد القاضي أن تكون هذه الصيغ جميعاً من صلب العهد وغير خارجة عنه "[١٠]، وبما أن هذه العهود ليست وثيقة أصيلة بل هي مرويّة فإن من الصعب إثبات ما ذهبت إليه وداد القاضي وإن كنت أرجح أن نقش الخاتم هو الأصيل وليس الإخبار بأن فلاناً قد ختم العهد كما ورد في بعض البردّيات وإن كانت متأخرة في زمنها[١١].

---

(١) المصدر نفسه، ١٥٢/٤.

(٢) المواعظ والاعتبار، ٢٠٠/١.

(٣) تاريخ الرسل والملوك، ٣٦٧/٣.

(٤) المصدر نفسه، ٣٦٤/٣.

(٥) المصدر نفسه، ١٣٧/٤.

(٦) فتوح البلدان، ص: ٢٣٩.

(٧) تاريخ الرسل والملوك، ١٣٧/٤.

(٨) فتوح ابلدان، ص: ٥٧٠.

(٩) تاريخ الرسل والملوك، ٣١١/٤.

(١٠) مدخل إلى دراسة عهود الصلح الاسلامية، ص: ٢٢٧.

(١١) Grohman, Chrestomathie De Papyrologie Arabe, E. J. Brill, 1993, p. 120, 124.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن الوثائق التي يمكن أن نتلمس في بنائها طابعاً محدداً وثائق الإقطاع وهي تبدأ بالبسملة[١]، وثم صيغة الإقطاع " هذا ما أعطى " أو " هذا كتاب... "[٢]، ويلي صيغة الإقطاع اسم المقطع؛ " محمد رسول الله "[٣] أو " محمد النبي "[٤] أو " الرسول "[٥] أو " محمد النبي رسول الله "[٦] ، وبعد اسم الرسول يكتب اسم صاحب الإقطاع أو أصحابه[٧]، ومن ثم يُذكر الإقطاع محدداً بدقة[٨]، وأحياناً تذكر بعض الشروط المفروضة على صاحب وثيقة الإقطاع[٩]، ويرد التحذير من الاعتراض على الإقطاع وكأنه جزء أساسي من بناء وثيقة الإقطاع[١٠]، وتنتهي الوثائق بذكر اسم الكاتب[١١]، أو الكاتب والشاهد[١٢] ويكون مَن كتب هو مَن شهد في هذه الحالة.

---

(١) الطبقات الكبرى، ١/٢٧١، ٢٧٤.

(٢) المصدر نفسه، ١/٢٧١، ٢٧٤؛ إعلام السائلين، ص: ١٥٦-١٥٩.

(٣) المصدر نفسه، ١/٢٧٤؛ إعلام السائلين، ص: ١٤٧، ١٤٨، ١٤٩.

(٤) المصدر نفسه، ١/٢٧١.

(٥) المصدر نفسه، ١/٢٧١.

(٦) إعلام السائلين، ص: ١٥١، ١٦٠.

(٧) الطبقات الكبرى، ١/٢٧١.

(٨) المصدر نفسه، ١/٢٧١، ٢٧٤؛ إعلام السائلين، ص: ١٤٨-١٤٩.

(٩) المصدر نفسه، ١/٢٦٨.

(١٠) المصدر نفسه، ١/٢٧١؛ إعلام السائلين، ص: ١٥٢.

(١١) المصدر نفسه، ١/٢٧١، إعلام السائلين، ص: ١٤٧-١٥٧.

(١٢) المصدر نفسه، ١/٢٧١، إعلام السائلين، ص: ١٥٧، ١٦١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثاني

خصائص الأسلوب

إن تتبع السّمات والخصائص الاسلوبية للنثر الديواني في هذا العصر، على الرغم من سهولته الظاهرة، إلا أنه في الحقيقة ليس بالأمر السهل، لأن الباحث يتعامل مع وثائق رسمية، الغرض الرئيس منها هو إدارة دفّة الدولة عن طريق المراسلات والمعاهدات والاتفاقيات التي تعقدها الدولة مع أطراف أخرى بهدف تنظيم العلاقات بينهما، ولذلك فإننا بصدد دراسة أدب إداري لم يوجه عناية للأسلوب الفني، ومع ذلك فهذه محاولة لبيان ما احتوت هذه الوثائق من سمات أسلوبيّة فنية عامة لأنها جاءت بحكم السليقة، واستهدفت خدمة المضمون في المقام الأوّل.

لقد كانت وثائق هذا العصر بعيدة عن تأثير الثقافات الأجنبيّة، إذ ما تزال عربيّة اللحم والدم، ولم يسبق فن الرسائل الاسلامية نثر جاهلي يمكن الركون إليه ليتخذ تكأة لبيان تأثيره في النثر الاسلامي، ويمكننا أن نعدّ هذا اللون من النثر لوناً جديداً إسلامي النشأة، وبغياب التأثير الأجنبي والجاهلي فإن القرآن الكريم ببيانه المعجز كان منهلاً ثرّا للكتاب ينهلون منه اقتباساً وتضميناً، واستهدف التأثر بالقرآن الكريم خدمة الموضوع والأسلوب؛ أما الموضوع فلأنّ ما ورد في القرآن يعدّ تشريعاً ملزماً للمسلمين لا مجال لمخالفته، وهو من ناحية الأسلوب يعمل إلى إثارة الجمال الفني وإثارة العواطف، وتعددت مظاهر التأثر بالقرآن الكريم في النثر الديواني، وسنلقي الضوء عليها لبيان الدور الذي قامت به في أسلوب الرسائل ومضمونها.

لجأ الكتاب إلى الاقتباس المباشر من آي القرآن الكريم، وقد تركز هذا الاقتباس في الدعوة إلى الجهاد، وقتال المرتدين، أو قتال مَن يقف في وجه نشر الدعوة الاسلامية وذلك " من أجل إذكاء جذوة الحماسة في نفوس الجند، ودفعهم إلى الاستبسال في قتال الأعداء، والاستشهاد في سبيل الله، ولا غرابة في ذلك لأن اسلوب القرآن أشدّ تأثيراً في النفوس "[1]؛ وقد كان لآيات القرآن الكريم أثر كبير في النفوس بعد وفاة الرسول ـ عليه السلام ـ فأرسل أبو بكر كتاباً إلى القبائل المرتدّة ذكرهم فيه بما أنزل الله على رسوله من القرآن الذي يؤكد فيه إنسانية محمد، وإنّه سيموت وانه غير مخلّد،

---

(١) أدب معارك تحرير العراق، ص: ٣٦٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن الآيات التي اقتبسها أبو بكر في رسالته: " إنك ميت، وإنهم ميتون "[١]، " وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد، أفإن متّ فهم الخالدون "[٢]، " وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل، أفإن مات أو قُتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضرّ الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين "[٣]، وتمثل أبو بكر بهذه الآيات " لإعادة الثقة التي زعزعت نفوس هؤلاء بعد وفاة الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ فظنوا بسبب ضعف ايمانهم ـ أن الرسول لا يموت كسائر البشر، فبيّن لهم أبو بكر أنّ الرسول يموت كما يموت الناس "[٤].

وحين رأى أبو عبيدة أن المسلمين تخاذلوا عن نصرته في جبهة القتال أرسل إليهم رسالة كانت جملة من الآيات القرآنية، وفيها تصوير مؤثر للحياة البهيجة وانقلابها بعد ذلك: " سلامٌ عليك. أما بعد فإن الله تبارك وتعالى قال " إنما الحياة الدنيا لعبٌ ولهو وزينةٌ وتفاخرٌ بينكم وتكاثرٌ في الأموال والأولاد كَمَثَل غيثٍ أعجب الكفارَ نباتُهُ ثم يهيجُ فتراهُ مصفراً ثم يكونُ حُطاماً وفي الآخرة عذابٌ شديدٌ ومغفرةٌ من الله ورضوانٌ، وما الحياةُ الدنيا إلا متاعُ الغُرور. سابقوا إلى مغفرةٍ من رَبكم وجنةٍ عرضُها كعرضِ السماءِ والأرضِ أُعدت للذين آمنوا بالله ورسله، ذلك فضلُ اللهِ يُؤتيهِ من يشاءُ والله ذو الفضلِ العظيم " "[٥].

لم يلجأ أبو عبيدة إلى الآيات المباشرة في الحض على الجهاد ونصرة الجيش بل وظف آيات فيها صورة فنية معبرة، فالحياة موقوتة الأجل مثل النبات الذي يغرسه الانسان ويبلغ أجله قريباً حين " يهيج مصفراً " للحصاد، وشريط الحياة كلها بهذه الصورة المتحركة المستقاة من مشاهدات الحياة المألوفة، في حين أن الآخرة جديرة أن يحسب حسابها أكثر من الدنيا لأنها لا تنتهي في لمحة كما هي الحياة الدنيا لأن فيها حساباً وجزاء ودواماً يستحق الاهتمام[٦]، إن اختيار هذه الآيات بعينها لم يكن عشوائياً بل كان اختياراً فيه تنبه ودقة ملاءمة للظرف الذي فيه الجيش؛ فأبو عبيدة أرسل هذا الكتاب رداً على رسالة بعث بها إليه عمر بن الخطاب حين استنجده أبو عبيدة وحرص عمر في رسالته على اعتماد الجيش على نفسه، والاستبسال في القتال من غير أن يرسل مدداً لمؤازرته، لذلك

---

(١) سورة الزمر، آية ٣٠.

(٢) سورة الأنبياء، آية ٣٤.

(٣) سورة آل عمران، آية ١٤٤.

(٤) ابتسام مرهون الصفار، أثر القرآن في الأدب العربي في القرن الأول الهجري، ط١، مطبعة اليرموك، بغداد، ١٩٧٤، ص: ٣١٥.

(٥) سورة الحديد، آية: ٢٠-٢١، والرسالة وردت في: أبو يوسف، الخراج، ص: ٣١٢.

(٦) سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، ٣٤٩/٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

جاءت رسالة أبي عبيدة تحمل آيات قرآنية فيها تعريض بالتخاذل عن نصرة الجيش في أرض المعركة، وفيها دعوة إلى الاستهانة بنعم الدنيا الزائلة وفيها حث على الجهاد، وهي بذلك تحقق غرضين في آن. وقد وظفت الآيات القرآنية في إثبات حكم فقهي زمن الفتوحات الإسلامية؛ وذلك حين اختلف أهل الفتح في اقتسام الأرض المفتوحة بينهم أو تركها بيد أهلها يدفعون عنها ضرائب للدولة، ومن الآيات التي ذكرها عمر بن الخطاب في تأكيد رأيه: "... وإن رأيي تبع لكتاب الله تعالى: قال الله تعالى: " وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب، ولكن الله يسلط رسله على من يشاء والله على كل شيء قدير "[١]، " ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم، وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا، واتقوا الله إن الله شديد العقاب[٢] "[٣].

وحين كان المسلمون يواجهون أعداداً كبيرة من قوات العدو ويرسلون إلى الخليفة طالبين المدد كانت آيات القرآن تبث فيهم القوة والطمأنينة مؤكدة أن الله معهم، وسوف ينصرهم على الرغم من قلّة عددهم؛ كتب عمر بن الخطاب إلى أبي عبيدة: " أما بعد، فقد ورد عليّ كتابك تذكر فيه مسير الروم بقضهم وقضيضهم فإن الله تعالى رأي أماكنهم حين بعث محمداً ـ صلوات الله عليه ـ وأعزه بالنصر، ونصره بالرعب فقال وهو لا يخلف الميعاد: "هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون "[٤]، وقد علمت أبا عبيدة انه لم تكن شدة قط إلا جعل الله بعدها فرجاً فلا تهولنك كثرة من جاءك من الكفرة الفجرة فإن الله بريء منهم، ومن يبرأ الله منه فلن ينصره، ولا توحشك قلة المسلمين وكثرة الكافرين " كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله، والله مع الصابرين "[٥]، وليس بقليل من كان الله معه... "[٦]، وكتب في اليرموك: " أما بعد، فإنه مهما ينزل بعبدٍ شدة إلا جعل الله له بعدها فرجاً، ولن يغلب عسر يسرين، فإن الله تعالى يقول: " يا أيها

---

(١) سورة: الحشر، آية ٦.

(٢) سورة الحشر، آية ٧.

(٣) أبو يوسف، الخراج، ص: ٣٠١.

(٤) سورة التوبة، آية ٣٣.

(٥) سورة البقرة، آية ٢٤٩.

(٦) أبو منصور، عبد الملك بن محمد الثعالبي، (٤٢٩هـ)، الاقتباس من القرآن الكريم، ط١، تحقيق: ابتسام مرهون، الصفار، م١، ١٩٩٢، ١١٨/١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الذين آمنوا اصبروا، وصابروا ورابطوا، واتقوا الله لعلكم تفلحون "[١] "[٢]، وذلك حين حُصر أبو عبيدة وتألّب عليه العدو.

وقد ظهر تأثير القرآن الكريم بارزاً في الرسائل التي تحث على الجهاد، والتي تبين أن النصر من عند الله وحده، " أما الكتب التي تبودلت بين القادة والخليفة في الفتوح الإسلامية فقد كانت بين إخبار بأنباء الحرب، أو أخبار بالنصر المؤزر، أو رسم خطة يضعها الخليفة لقادته، وفي كل هذه الكتب ندر وجود الآيات القرآنية الكريمة "[٣]، وفي عهود الصلح والتحالفات التي عقدت بين المسلمين وغيرهم فإن ما وصلنا منها يكاد يخلو من الاقتباسات القرآنية خلواً تاماً، وما ذكر فيها كان ألفاظاً قرآنية مثل الجزية، وذمة الله، وذمة الرسول، والصلاة، والصوم، وخلت كتب الاعطيات أو القطائع من الآيات القرآنية كذلك.

وقد استخدمت آيات القرآن الكريم بوصفها نوعاً من العلاج النفسي الذي يهدىء من روع الإنسان، ويعطيه أملاً وطمأنينة، وقد برز ذلك جلياً في رسالة عمر بن الخطاب إلى أبي جندل حين أصابه الوسواس بعد أن عوقب بسبب شرب الخمر وقاطعه الناس[٤]؛ فذكر له في البداية آية المغفرة: " إن الله لا يغفر إن يُشرك به، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء "[٥]، ودعاه إلى التوبة، وزاد في التخفيف عنه بالتأكيد أنه إذا تاب توبة نصوحاً فإن الله سوف يسبغ عليه لباس عفوه، وتمثل عمر بهذه الآية: " يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله، إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم "[٦]، وهذا يدل على أن القرآن كان اقتباسه لغرض يخدم المضمون والأسلوب.

ولم يقف الأثر القرآني في نثر هذه الحقبة على الاقتباس من آياته، واستخدام الفاظه حتى أصبحت مصطلحات إسلامية خالصة بل تعدى ذلك إلى تضمين آيات القرآن في النثر كأنها جزء منه مثل ما جاء في رسالة عمر بن الخطاب إلى أبي عبيدة: "... وإن أتاكم وقد أصابكم نكب أو قرح فلا تهنوا ولا تحزنوا ولا تستكينوا فأنتم الأعلون، وانها دار الله وهو فاتحها عليكم... "[٧]، وفي قول

---

(١) سورة آل عمران، آية ٢٠٠.

(٢) أبو يوسف، الخراج، ص: ٣١٢؛ تاريخ مدينة دمشق، تحقيق: محب الدين العمروي، ١٤٣/٢.

(٣) أثر القرآن في الأدب العربي، ص: ٣٢٠.

(٤) تاريخ الرسل والملوك، ٩٧/٤.

(٥) سورة النساء، آية ٤٨.

(٦) سورة الزمر، آية ٥٣.

(٧) الأزدي، فتوح الشام، ص: ١٢٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عمر اشارة إلى الآية الكريمة: " ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين "[١]، وكتب أبو عبيدة إلى أهل إيلياء: "... وإن أبيتم فأقرّوا لنا بإعطاء الجزية عن يد وأنتم صاغرون... "[٢]، وهذه إشارة إلى قوله تعالى: " حتى يعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون "[٣]، وكتب عمار بن ياسر إلى عمر بن الخطاب وذكر له شدة شوكة الفرس، وكثرة عددهم، واستفحال أمرهم، فكتب إليه عمر: " يد الله فوق أيديهم، وسيمدكم الله بجند من الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم، ويقذف الرعب في قلوبهم، والزلازل في أقدامهم حتى يهزمهم هزيمة يكون فيها بوارهم، ودمارهم إن شاء الله "[٤]، وفي الرسالة إشارة إلى الآية: " إنّ الذين يبايعونك إنما يبايعون الله، يد الله فوق أيديهم "[٥].

أمّا أثر الحديث النبويّ في هذا اللّون من النثر فقد كان قليلاً مقارنة بأثر القرآن الكريم لأن الأسلوب القرآني كان مسيطراً على المسلمين بما فيه من إعجاز وبلاغة، ومن أمثلة التأثر بالحديث النبوي ما جاء في رسالة عمر بن الخطاب إلى أبي عبيدة: "... وانها دار الله، وهو فاتحها عليكم تصديق منا لقول نبينا ـ صلى الله عليه وسلم ـ فاصبروا إن الله مع الصابرين "[٦]، وما جاء في كتاب أبي بكر الصديق إلى خالد بن الوليد ومن معه من المهاجرين والأنصار: "... ولقد ذكر لنا الصادق المصدوق ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن الله يبعث الشهداء يوم القيامة شاهرين سيوفهم، لا يتمون على الله شيئاً الا أتاهموه حتى أعطوا أمانيهم "[٧]، وأرسل عمر في وراثة الخال: " إن النبي قال: الله ورسوله مولى من لا مولى له، والخال وارث من لا وارث له "[٨].

وقد كان للشعر تأثير ضئيل في النثر الديواني في عصر النبوة والخلافة الراشدة، ويكاد الشعر يكون نادراً أو غير مستخدم في رسائل الفتوح، ولكنه يبرز جليّاً في الفتن التي حدثت في هذا العصر مثل الرّدة وفتنة علي ومعاوية، وقد بينا سابقاً أن هذا الشعر من الصعب التعامل معه على أنه صحيح النسبة لهذا العصر، وهو في هذه الصفة مثل الرسائل التي قيل إنّها كتبت في أثناء الفتن، وقد قيل إن

---

(١) سورة آل عمران، آية ١٣٩.

(٢) الأزدي، فتوح الشام، ص: ٢٤٣.

(٣) سورة التوبة، آية ٢٩.

(٤) الاقتباس من القرآن، ص: ١١٩.

(٥) سورة الفتح، آية ١٠ لمزيد من الأمثلة انظر: أثر القرآن في الأدب العربي، ص: ٢٩٨-٣٢٠.

(٦) الأزدي، فتوح الشام، ص: ١٢٧.

(٧) كتاب الرّدة، ص: ٥٥.

(٨) مسند أحمد بن حنبل، ١/١٩٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أحد الشعراء أرسل رسالة شعرية إلى عمر بن الخطاب يشكو إليه فيها من العمال، ومما جاء في هذه الرسالة[١]:

ألا ابلغ أمير المؤمنين رسالـــــــة فأنت أمين الله في الأمر والنهـي
وأنت أمين الله فينا ومن يكـــــن أميناً لرب الناس يسلم له صـدري
فلا تدعن أهل الرساتيق[٢] والقـرى يضيعون مال الله في الأدم الوفـر
وأرسل إلى الحجاج فاعرف حسابه وأرسل إلى جُزء وأرسل إلى بشر
ولا تنسين النافعين كليهمـــــــا ولا ابن غلاب من سراة بني نصر

وحين استمد عياض بن غنم خالد بن الوليد وهو في حالة حصار أرسل إليه خالد يقول: " من خالد إلى عياض، إيّاك أريد:

لبث قليلاً تأتك الحلائب[٣] يحملن آساداً عليها القاشبُ[٤]
كتائبٌ يتبعها كتائبُ[٥]

وروي أن زياد بن لبيد كتب إلى أبي بكر الصديق في أثناء حروب الرّدة يخبره بقتل أحد الرسل، ويعلمه أنه وأصحابه محاصرون في مدينة تريم[٦] حصاراً شديداً وألحق الكتاب بعدد من الأبيات الشعرية[٧]:

هل راكب يرد المدينة مخبـــراً رهط الرسول وسادة الأنصـار
ويقول للصديق عند لقائـــــه والدمع يهمل كالبدي[٨] الجاري
أنا حُصرنا في تريم كأننـــــا نحن النكوص بها على الأدبـار
حشدت لنا أملاك كندة واعتدت بالمرهفات[٩] وبالقنا الخُطّـــار

---

(١) أبو هلال العسكري، الحسن بن عبد الله بن سهل، (ت ٣٩٥هـ)، الأوائل، تحقيق: محمد السيّد الوكيل، ١م، ص: ١٣٧.

(٢) الرساتيق: السّواد والقرى، معرّب رُستا، القاموس المحيط، مادة رُزداق.

(٣) الحلائب، الجماعات، القاموس المحيط، مادة: حلب.

(٤) القاشب، السيف المجلوّ.

(٥) تاريخ الرسل والملوك، ٣/٣٧٧.

(٦) تريم: اسم إحدى مدينتي حضرموت، معجم البلدان، ٢/٢٨.

(٧) الرّدة، تحقيق: محمود عبد الله أبو الخير، دار الفرقان، عمان، الأردن، ص: ٢٩٢-٢٩٣.

(٨) البديّ، واد لبني عامر بنجد، معجم البلدان، ١/٣٦٠.

(٩) المرهفات، السوف القاطعة.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فامنعهم بمهاجرين فـــــوارس فرسان صدق من بني النّجـــآر

وبكل قرن في الهياج مُـــهذب يسمو بغضب[١] صارم بتـــــار

وكان المثل والحكمة يستخدمان في نثر هذا العصر على قلة في عهد النبوة وعهدي أبي بكر وعمر وحتى أواخر خلافة عثمان، في حين أننا " نجد هذه الأمثال تظهر فجأة كالشعر ظهوراً صريحاً في مطلع الفتنة التي انتهت بمقتل عثمان وتفاقمت في خلافة علي "[٢] ويعلل محمود المقداد هذه الظاهرة قائلاً: "... مما يدل على أن استعمالها يرتبط بالفتن والأحداث التاريخية بين العرب أنفسهم ارتباطاً قوياً إذ تجد فيها مرتعاً خصباً للعيش، خصوصاً أن تلك الفتن كانت تحرك النفوس وتذكي العواطف وتحرض العقل بسبب طبيعتها الخاصة "[٣]. وقد فات محمود المقداد في تعليله وجود احتمال الوضع والاختلاق في هذه الرسائل التي يكثر فيها الشعر، والأمثال والحكم لأنه ليس من طبيعة المشتركين في الفتن التروي لاختيار الأبيات الملائمة، والأمثال المعبرّة التي تقتضي من كاتبها هدوء نفس وصفاء ذهن. أما الأمثال التي استخدمت في النثر في عهد النّبيّ وعهد خليفتيه فقد جاءت عفو الخاطر ومن هذه الأمثال ما جاء في عهد بني ضمرة "... وعليهم نصر النبي ما بلّ بحر صوفة "[٤] وقول عمر بن الخطاب في صفات الوالي: " لا يحنق في الحق على جرّة "[٥]، ويضرب هذا المثل لمن لا يحفظ ما في صدره بل يتكلم ولا يهاب[٦]، ومن التأثر بالأمثال ما ذكره عثمان بن عفان في رسالة بعث بها إلى علي بن أبي طالب حين أُحيط به: "... أما بعد، فإنه قد جاوز الماء الزُبَى، وبلغ الحزام الطّبْيين، وتجاوز الأمر بي قدره، وطمع فيّ من لا يدفع عن نفسه "[٧]، أما قوله " جاوز الماء الزبى " فهو مأخوذ من المثل العربي " بلغ السيل الزبى " وهو جمع زُبية، وهي حفرة تحفر للأسد إذا أرادوا صيده، وأصلها الرابية لا يعلوها الماء، فإذا بلغها السيل كان جارفاً مجحفاً،

---

(١) العضب، السيف القاطع، لسان العرب، مادة: غضب.

(٢) تاريخ الترسل النثري، ص: ٢٩١.

(٣) المرجع نفسه، ٢٩٢.

(٤) الطبقات الكبرى، ٢٧٥/١؛ مجمع الأمثال، ٢٧١/٢.

(٥) الخطب والمواعظ، ص: ٢٠٤.

(٦) مجمع الأمثال، ٣٤١/٢.

(٧) الكامل، ٢٦/١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويضرب هذا المثل لما جاوز الحد[١]، وقوله " بلغ الحزام الطبيين " يضرب عند بلوغ الشدة منتهاها والطبي للحافر والسّباع[٢].

وحين كان القادة يصفون جيوش الأعداء استخدموا أمثالاً تعبرّ بدقة عما هو حالهم: "... إن هرقل استنفر أهل مملكته وانهم قد جاءوا يجرون الشوك والشجر "[٣]، ويضرب المثل لمن جاء بالشيء الكثير من كل ما كان من جيش عظيم وغيره[٤]، و " استخدام المثل في سياق الكلام يختزل المعنى، ويرسخه في ذهن السامع، ويقوي حجته فيما أراد الذهاب إليه وهو يكسب الكلام قوة أسر أكبر بكثير من الكلام الذي يرد خالياً منه، وهكذا تتجلى وظيفته الداعمة والموضحة في بيان المرء عن قصده "[٥]، وهذا لا يعني أن الكلام الذي يخلو من ضرب الأمثال يفتقد إلى البيان والوضوح فالمعول في ذلك هو قدرة الكاتب على التعبير عما يجول في نفسه، وقد ذهب محمود المقداد إلى انه لم يجد في النثر المكتوب لعهد النبوة وعهد ابي بكر وعمر إلا مثلين فقط[٦]، وفيما ذهب إليه عدم دقة، وما عرض من أمثال فيه دليل على ذلك، ولكن يمكن القول إن استخدام الأمثال كان قليلاً في رسائل هذه الحقبة، ومن الأمثال الأخرى قول الرسول في صلح الحديبية: " ... وأن بيننا عيبة مكفوفة "[٧]، والعيبة ما يجعل فيه الثياب، ومكفوفة أي مشدودة، ومعنى المثل أن أسباب المودة لا سبيل إلى نقضها[٨]، ومن الأمثلة كذلك " لا لعا لها "[٩].

وقد أجمع الدارسون للعهد النبوي والخلافة الراشدة على أن لغة الكتابة في هذا العصر اتّسمت بالترسل والبعد عن التكلّف، ويأتي الكلام " بلا سعي وراء تزويق مقصود يكدّ له الذهن أو يقف المرء فيه طويلاً لتخير ما يندفع على لسانه أو يتزاحم في صدره من الألفاظ المعبرّة عن المراد"[١٠]، ويرى محمود المقداد " أن مخالفة ذلك تعد بلا ريب مؤشراً من المؤشرات الدالة على وضع

---

(١) مجمع الأمثال، ١/١٣٢.

(٢) المصدر نفسه، ١/٢٢٠

(٣) الأزدي، فتوح الشام، ص: ٣١.

(٤) مجمع الأمثال، ١/٢٢٠.

(٥) تاريخ الترسل النثري في صدر الاسلام، ص: ٢٩٥.

(٦) المرجع نفسه، ص: ٢٩٢.

(٧) مجموعة الوثائق السياسية، ص: ٨٠.

(٨) مجمع الأمثال، ١/٧٤.

(٩) العقد الفريد، ١/٣٠٠.

(١٠) تاريخ الترسل النثري في صدر الاسلام، ص: ٣٧٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الرسالة "[١]، ويقول شكري فيصل في وصف أدب هذه المرحلة: "... كان أدباً تصطنعه المواهب النفسية في حدود قدراتها، لا تتكلف أن تشحذ هذه القدرات ولا أن تضيف إليها وكانت تتعاون عليه طاقات الأدباء الداخلية، ولكنها كانت لا تتلوى أو تتعقد في إنتاجه، كانت تستجيب لهذا التنفس الأدبي استجابة حرّة مطلقة "[٢].

ومن مظاهر هذه البساطة عدم العناية بالديباجة، والالتفات إلى المطالع والرغبة في الزخرف وإيثار الألفاظ على المعاني، وإهمال الغرض الأصيل من الإفهام في سبل الأغراض الأخرى من الزينة[٣]، فلا نجد الفاظ التفخيم، والألقاب فالضمائر تستخدم على وجه الحقيقة في المفرد والمثنى والجمع، ويُستثنى من ذلك الفاظ لا بدّ منها مثل " الرسول " والنبي، وأمير والقائد[٤]، فالأدب كان يقصد الأداء والإفهام، لا سيما أنه أدب موجه يستهدف إيصال الفكرة في حالة الدعوة والفتوح، وتنظيم إدارة الدولة في الداخل والخارج وكل هذه الأغراض تتطلب هذا الأسلوب الذي يصدر عن صاحبه، وينبع من ذاته من غير مشقة وكد ذهن، وحين يرد السجع في بعض المراسلات فهو عفويّ بسيط غير مقصود لذاته.

وقد بعدت ألفاظ وثائق هذا العهد عن الغريب والوحشي والمبتذل، باستثناء بعض المراسلات النبوية لبعض القبائل وخاصة قبائل اليمن التي نلحظ في ألفاظها بعض الصعوبة، وورد أكثر ذلك في رسائله إليهم بشأن تحديد الزكاة على الأموال التي بحوزتهم من إبل، وغنم، وغيرها، ومن ذلك هذه الرسالة: " بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى الأقيال العباهلة، ليقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، والصدقة على النيعة السائمة، لصاحبها النيمة، لا خلاط، ولا وراط، ولا شغار، ولا جلب، ولا جنب، ولا شناق... "[٥] وفي غير مثل هذه المراسلات فإن الوضوح وبساطة التركيب من

---

(١) المرجع نفسه، ص: ٣٧٠.

(٢) المجتمعات الاسلامية، ص: ٣٦٨؛ وانظر" عبد السميع سالم الهرّاوي، لغة الادارة العامة في صدر الاسلام، المؤسسة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦، ص: ٣٥٢؛ المعاهدات والمهادنات في تاريخ العرب، ص: ٩٢.

(٣) المجتمعات الاسلامية، ص: ٢٦٨.

(٤) السباعي السباعي، تاريخ الأدب العربي في صدر الاسلام والعصر الأموي، ١٩٣٢، مطبعة العلوم، ص: ١٨٨.

(٥) الطبقات الكبرى، ٢٨٧/١؛ المصباح المضيء، ص: ٣٩٦؛ وانظر: تفصيل المراسلات النبوية لاقيال اليمن وشرح غريب ما جاء في روايات الرسائل: هادون أحمد العطاس، أضواء على رسائل الرسول صلى الله عليه وسلم إلى القيل وائل بن حجر الحضرمي، أبحاث مقدمة للندوة الثالثة لدراسات تاريخ الجزيرة العربية، جامعة الملك سعود، السعودية، ١٩٨٣، الجزء الأول، ص: ١٠٥-١١٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

سمات لغة النثر، " ويتبسط التركيب اللغوي في هذا النثر من غير أن يفارق المتانة والقوة ويجزل من غير أن يهجر الوضوح أو يلمّ بالغرابة، فهو في توازن بين البساطة والقوة، والوضوح مع الجزالة، ولا تثريب على هذا النثر في هذه المعادلة المتوازنة ما دام الأمر فيه متعلقاً بإشباع الفهم... "[١]، والبساطة في هذا النثر ناتجة عن تحديد دلالات الألفاظ والمصطلحات فلا مجال لأن تحتمل اللفظة غير معنى، ولا مجال لأن يكدّ القارئ ذهنه ليصل إلى غرض صاحب النص المنثور من هذه اللفظة أو تلك، وهو أسلوب بسيط لأنه لا يلجأ إلى التعقيد الناجم عن التقديم والتأخير مثلاً.

وفيما يتصل بكتابه المعاهدات والاتفاقيات فقد اشترط العلماء أن تكون اللغة في العهد مكتوبة على أحوط الوجوه، ويتحرز فيها من طعن كل طاعن[٢] وعلى الكاتب كذلك " التحرز من العبارات المحتملة للمعاني، وتجنب الألفاظ المشتركة، وتحرّي تحقيق المعاني بألفاظ مبينة خارجة عن حد الشركة "[٣]، لئلا تفضي إلى الإبهام والتأويل واختلاف التفسيرات، وهذا ما كانت عليه المعاهدات في هذا العصر.

ويرى حسين نصار أن لغة الكتابة في هذا العصر كانت لغة التخاطب الفصحية لدى العرب في ذلك الزمن[٤]، ومما يتصل بالألفاظ في نثر هذا العهد وجود توسّع في مدلولات الألفاظ وذلك بإخراجها غن معانيها المعجمية إلى معان شرعيّة محددة مثل: الصلاة، والزكاة، والصوم، والجزية، والخراج، والمسلم، والكافر، ولعل ما قاله الجاحظ عن امتزاج اللفظ والمعنى امتزاجاً لا سبيل معه إلى ادراك حدود أحدهما بدون الآخر ينسجم وسمات هذا النثر: حتى يسابق معناه لفظه، ولفظه معناه، فلا يكون لفظه إلى سمعك أسبق من معناه إلى قلبك "[٥].

وثمة طابع آخر يغلب على النثر الديواني لعهد النبوة والخلافة الراشدة ويسمه هو الايجاز الذي يكاد يغلب على كل النثر المكتوب لهذه الحقبة، ولهذا الإيجاز ثلاثة مصادر: الأول، السير على

---

(١) مقدمة في دراسة الأدب الاسلامي: ص: ١٢٦؛ وانظر: أدب الرسائل في صدر الاسلام، ص: ١٣٤؛ انيس المقدسي، تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي، ط١، دار العلم للملايين، ١٩٦٠، ص: ٩٥-٩٦؛ تاريخ الترسل النثري، ص: ٢٦٩-٢٧٠؛ أدب الخلفاء الراشدين، ص: ٤٧٢.

(٢) محمد بن الحسن الشيباني (ت ١٨٩هـ)، السير الكبير، ط١، تحقيق: محمد حسن الشافعي، ٣م، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧، ٦٥/٣.

(٣) الجصاص، أبو بكر أحمد بن علي الرازي (ت ٣٧٠هـ)، أحكام القرآن، ط١، تحقيق: عبد السلام محمد علي شاهين، ٣م، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٤، ٥٨٧/١.

(٤) نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي، ص: ٤٠.

(٥) البيان والتبيين، ١١٥/١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

طريقة الجاهليين في التزام الإيجاز، واعتماده[١]، أما الثاني، فيتعلق بطبيعة الحياة في هذا العهد، فقد كانت " حياة منطلقة معجلة، من أمامها ووراءها هذه الأعباء الثقال، أعباء الفتح وما يقتضي الفتح من إدارة وصلات سياسية وحكم، ....، وحياة كهذه الحياة التي تتمثلها ترهقها الوجائب، وتثقلها الأعباء وتناديها الأصوات من هنا وهناك، وتلح عليها الفتوح من كل جانب لم تكن لتسمح قط بالإطالة، أو التمهل، أو تشقيق الكلام، وإنما يبدو أنها كانت تدفع إلى هذا الإيجاز دفعاً وتضطر إليه اضطراراً "[٢]، والمصدر الثالث، هو عدم اختلاط العرب بالأعاجم أو عدم الإسراف في الاختلاط بهم، ولو حدث ذلك لتأثروا بهم، وأخذوا بطرقهم في فن القول والكتابة "[٣].

وباتباع سبيل الإيجاز فإن هذا النثر يستغني عن كل لفظة أو ألفاظ لا تزيد المعنى وضوحاً، وهو في غناء عن تفاريع الكلام، وتجنب الإسهاب، والتبسط في عرض الفكرة[٤]، وهذا التركيز أو الإيجاز لا يقصد به الإخلال بغرض الفكرة أو أن تكون المراسلات أو المعاهدات ومضات لا يترشح منها معنىً واضح محدد بل هو البعد عن كل ما يمكن أن يكون ترديداً لمعنى في أكثر من تركيب، أو حشواً، وشروحات لا داعي لها، وهو " الوفاء بما يفرضه التواصل الفكري والنفسي بين المنشئ والمتلقي من غير إخلال بالتبيين، ولا انحراف عن جادّة القصد بالفضول والتكرار "[٥] وهذا الإيجاز كان إيجازاً نسبياً أي أن بعض الرسائل ولا سيما الرسائل التي فيها أجوبة على رسائل القادة في ساحة المعركة أو الولاة كانت بضع كلمات تتضمن رداً شافياً وافياً بالغرض كما مر في بعض الفصول.

واتسم النثر بالانسجام الدقيق بين الكلمة المكتوبة، والإحساس الذي انطلقت منه، " بحيث تكتسب الكلمة دقتها أو جزالتها، وطبيعة جرسها من طبيعة الشعور الذي يسيطر على صاحبها، ولا يكون ذلك عند المطبوعين تعملاً وتصنعاً، بل يأتي عفو الخاطر "[٦]، وقد تبدى هذا الانسجام فيما صدر عن الخلفاء من رسائل إلى الولاة، وقادة الجيوش؛ فحين أخطأ أبو عبيدة في حربه مع الروم، أرسل إليه عمر بن الخطاب يقول: "... فكرهت هذا من رأيكم وفعلكم... "[٧]، ونرى هذا الاسلوب

---

(١) المجتمعات الإسلامية، ص: ٣٦٥.

(٢) المرجع نفسه، ص: ٣٦٥؛ وانظر: أدب الرسائل، ص: ١٢٧، تاريخ الترسل النثري، ص: ٢٦٨.

(٣) المرجع نفسه، ص: ٣٦٦.

(٤) تطور الأساليب النثرية، ص: ٩٨-٩٩.

(٥) مقدمة في دراسة الأدب الاسلامي، ص: ١١٦.

(٦) أدب الخلفاء الراشدين، ص: ٤٦٩.

(٧) الفتوح، ٢٢٧/١؛ الاكتفاء، ٢٢٨/٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الحادّ حين عامل عمرو بن العاص ابن عمر بن الخطاب معاملة خاصة كما مرّ بنا سابقاً، ويلاحظ أن هذا النوع من الرسائل لم يكن يفسح فيه أيّ مجال للطعن والإساءة، وهي رسائل تعليم وتوجيه أكثر منها رسائل تقريع وتوبيخ، ويظهر هذا في إحدى رسائل علي بن أبي طالب إلى عماله إذ بلغه عن أحدهم خيانة، فكان يكتب إليهم: " قد جاءتكم موعظة من ربكم، فأوفوا الكيل والميزان بالقسط، ولا تبخسوا الناس أشياءهم، ولا تعثوا في الأرض مفسدين، بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين، وما أنا عليكم بحفيظ... "[١]، وحين كانت تأتي أخبار النصر إلى الخليفة كانت ردوده على القادة فيها الكثير من الغبطة، والتشجيع، والدعوة إلى حمد الله وشكره لأن النصر أولاً من عنده[٢] ومن ذلك رسالة عمر إلى أبي عبيدة بعد أن بشرّه بالنصر: " أما بعد، إذا وصل إليك كتابي هذا فاشكر للمسلمين صبرهم وفعالهم، وأقم بموضعك حتى يأتيك أمري والسلام "[٣]، ويرتبط بهذا التواؤم بين اللفظ والمعنى استخدام أسلوبي التحذير والإغراء، فالحض على الجهاد ومنافحة الأعداء يتطلب أسلوباً إغرائياً يعد القادة فيه الجيش برضا الله والشهادة، وخوض غمار المعركة يستدعي التحذير من تجاوز الحدود، والامتثال إلى التعليمات والتوصيات.

وقد تراوحت الجمل في النثر بين الخبر والإنشاء؛ فكانت التعليمات الحربية والإدارية تزخر بالجمل الإنشائية مثل الأمر، والنهي، في حين أن رسائل أخبار الفتح تعجّ بالجمل الخبريّة، وقد استبانت هذه الأساليب الخبرية والنثرية في مطاوي الفصلين الثالث والرابع من الباب الأول، فلا مسوّغ لتكرار النصوص مرّة ثانية.

أما الصورة الفنيّة فيما صحّ من هذا النثر ووصل إلينا فيكاد يكون تقريرياً يؤدي المعنى بشكل لا يحفل كثيراً بالتصوير بوصفه وسيلة للتعبير، ولعل ذلك يرجع إلى إنشغال المسلمين " بهموم الحياة اليومية، وأحداثها الجسام التي كانت تتفاقم باستمرار، ولعدم توقفهم كثيراً عند موضوع الوصف... "[٤]، وقد يعود كذلك إلى طبيعة هذه الوثائق والدقة المطلوبة في تحريرها؛ فالصور الفنية القائمة على التشبيه والاستعارة والكناية قد تبعد المعنى الحقيقي المقصود، وتتيح المجال لتعدد التفسيرات والتأويلات مما يبهم المعنى الحقيقي، وهذه الوثائق لا تحتمل هذا اللون من الاختلاف لأنها تتعلق بحياة أفراد وجماعات، ولأنها تنظم علاقات الدولة الاسلامية بين المسلمين وغيرهم.

---

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ٢١١/٣.

(٢) الأزدي، فتوح الشام، ص: ١٤٧، ٢٤٤؛ وانظر الفصل الرابع من الباب الأول لمزيد من الأمثلة.

(٣) الفتوح، ٢٧٠/١-٢٧١.

(٤) تاريخ الترسل النثري عند العرب، ص:٢٧٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إن قضية البساطة في أسلوب هذا النثر المتعددة الجوانب؛ بساطة في التراكيب، وبساطة في استخدام الصورة الفنية، يمكن أن نجملها في ثلاثة أسباب رئيسة ساهمت في وسم هذا النثر بالبساطة:

أولاً: إن هذا النثر يُعدّ نثراً جديداً في بنائه الفني يتمشى مع المعتقدات الدينية الجديدة، وهو جديد في موضوعاته التي اقتضتها ظروف نشر الدعوة الاسلامية، وحركة الفتوح، واقتضتها كذلك أساليب ادارة الدولة، وعلاقاتها مع الأمم الأخرى، وهو جديد فيما دخله من ألفاظ ذات دلالات جديدة، ومصطلحات فقهيّة؛ فالنثر الديواني يمر بمرحلة النشأة والتكوين، فلا نتوقع أن يبلغ في هذه المرحلة شأواً من العناية بالصور الفنية، والتراكيب المعقدة، والدلالات الممتدة للألفاظ، فقد حدثت هذه العناية في مراحل لاحقة من تطور الأساليب النثريّة.

ثانياً: والسبب الثاني الذي قد يكون له مساهمة في هذه القضية هو ارتباط هذا النثر بالدعوة الاسلامية التي كانت " ترى الأدب صورة من صور التعبير عنها وأداة من أدوات التمثيل لها، فلم يكن الأدب عندها هذه الأُلهية التي تتلهى بها طبقة خاصة من الناس، ولا هذا الترف الذي يستمتع به فريق من القادرين عليه "[1] فهو أدب موجّه لخدمة الدعوة الجديدة والدولة الناشئة ينطق بلسانها ويعبر عن قضاياها المختلفة، فهو وسيلة إلى غاية، والدولة هي المشرف المباشر عليه، وقد أثّر هذا الإشراف على موضوعات النثر التي كان يدور في فلكها فكانت أغراضه من صميم الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية للجماعة الإسلامية الجديدة[2]، ومن دخل في كنفها من أصحاب الديانات الأخرى، وأثر هذا كذلك في أسلوب الكتابة، فما دام النثر يرزح تحت إشراف الدولة وينطق بإسمها في كل شؤونها فلا بدّ من أن يكون محدّد الألفاظ والدّلالات، واضحاً بسيطاً موجّهاً ليفهمه العامة والخاصة، تقريريّاً في معظم نماذجه، يهدف إلى إيصال الفكرة قبل أن يضع نصب عينيه التدبيج والتحبير.

ثالثاً: كان القائمون على كتابة الوثائق من رسائل وعهود واتفاقيات، بحكم ارتباط النثر بالدولة، من الخلفاء والقادة والأمراء مرتبطين بالدولة ولا يخرجون في أغراضهم وأساليبهم عمّا هو مقرّر من ناحية رسمية، فلم يكن هناك كتاب متخصصون ـ كما هو الحال في العهود التالية ـ غير مرتبطين بالدولة في حين أن هؤلاء يكتبون ما يُملى عليهم، وأصحاب الشأن تسلموا زمام الكتابة ووسموها بالجدّ وحرصوا على إيصال الفكرة دون العناية الشديدة بالأسلوب كما ذكر

---

(١) المجتمعات الاسلامية، ص: ٣٢١.

(٢) انظر تفصيل ذلك في: المجتمعات الاسلامية، ص: ٣٥٠-٣٦٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

غير مرّة ولعله كان هناك نصوص لرسائل إخوانية تحرر فيها كاتبوها من الأسلوب الرسمي ووشحوها بالفنون البلاغية والصور الفنية ولكنها لم تصل إلينا، وهذا الاحتمال له نصيب من الوجود، ولكن بناءً على ما وضح سابقاً من أن هذا النثر كان في بداية نشأته فإن الاحتمال الآخر وهو أن هذه الرسائل الاخوانية أو الشخصية المفترضة حتى لو وجدت فإنها سوف تنتحي سمت الكتابة الرسميّة إلى حد كبير وهذا أقرب إلى الحقيقة.

وكل ما قيل لا يعني أن نثر هذه المرحلة كان ركيكاً ضعيف التركيب، بل كان جارياً على السليقة العربية الفصحية في جدة الفاظه، وجزالته، وقوة تراكيبه ومتانتها، وهو لا يخلو من استخدام بعض الصور الفنية، والفنون البلاغية، وقد بالغ أحد الباحثين في تتبع ألوان من الفنون البلاغية في نثر هذه الحقبة، إذ كان الكثير من النصوص التي اتكأ عليها غير ثابتة الصحة[١]؛ إذ تعود في معظمها إلى المراسلات التي نسبت لزمن الفتنة التي يصعب على الباحث إثباتها لأسباب مرّت في الباب الأول.

ومن الأمثلة التي تحتوي لمسات فنية من التشبيه والكناية ما جاء في رسالة عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري موصياً: "... وإياك أن تزيغ فتزيغ عمالُك، فيكون مثلك عند الله مثل البهيمة نظرت إلى خضرة من الأرض فرتعت فيها تبتغي بذلك السّمن، وانما حتفها في سمنها "[٢]، وكتب النعمان بن مقرّن - وكان والياً على كورة كسكر[٣] - إلى عمر بن الخطاب طالباً اعفاءه من ولايتها وإلحاقه بجيش المسلمين: " مثلي ومثل كسكر كمثل رجل شاب وإلى جنبه مومسة تلوّن له وتعطر، فأنشدك الله لما عزلتني عن كسكر، وبعثتني إلى جيش من جيوش المسلمين "[٤]، ويلاحظ أن هذا التشبيه ينهل من البيئة، ويتأثر بها في صورها ومشاهدها، ومن الرسائل التي فيها كناية رسالة عمر إلى أبي موسى: "... اقبلوا الجزية ممن جرت عليه المواسي "[٥] والخيال الذي ورد في هذا النثر يتصف بأنه خيال غير محلق، ولا يتضمن صوراً مركبة كلية، ويعتمد التشبيه، والكناية، وغيرها من فنون البلاغة[٦].

---

(١) تاريخ الترسل النثري، ص: ٢٣٦-٢٦٨.

(٢) أبو يوسف، الخراج، ص: ٩٠.

(٣) كسكر: كورة واسعة بين الكوفة والبصرة، معجم البلدان، ٤/٤٦١.

(٤) تاريخ الرسل والملوك، ٤/١٢٦.

(٥) المصدر نفسه، ٤/٧٠.

(٦) أبو يوسف، الخراج، ص: ٢٨١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ونلمح في هذا النثر من الخصائص الأسلوبية اتباع سبيل الإقناع، وإتيان الحجة والبرهان، وبيان الأسباب التي تحض الخليفة على اختيار رأي دون الآخر، وقد تجلّى هذا في كتاب أبي بكر الصديق للمرتدين، وفي توجيهات عمر بن الخطاب لقادة الفتوح، وفي متابعته لخططهم الحربية، وظهر كذلك في الخلاف الذي وقع حول تقسيم أرض الفتح، إذ ردّ عمر على الولاة مبيناً الأسباب التي حدت به إلى عدم تقسيمها وتركها بيد أصحابها الأصليين يدفعون ضرائبها للدولة، وهذا كله يشي بعقلية قادرة على أن تسبر غور المشكلات، والحوار مع الأطراف المناوئة مثل المرتدين.

ومما يصعب على الباحث دراسة أسلوب الكتّاب في هذه الحقبة دراسة منفردة؛ لأن " الأوتار التي أنشد عليها أصحاب الآثار النثرية في الصدر الأول هي عند كل واحد منهم، وتوشك أن تكون أساليبهم في استخدام هذه الأوتار قريبة متشابهة ولكن تشابهها مع ذلك لا يخفي عنصرها الشخصي، غير أن القدر المشترك بينها كثيراً ما يطغى على هذا العنصر الشخصي ويطويه "، ويفسر ذلك بتشابه الموضوعات التي طرقوها، وبأن أسلوبهم يتفق وأسلوب الأدب الرسمي الموجه تحت إشراف الدولة، ومع ذلك فإننا يمكن أن نميز بين نوعين من الجمل الصادرة عن الخلفاء والصادرة عن القادة أو الولاة في هذا العهد؛ فالخلفاء في أكثر الأحيان يستعملون الجمل الإنشائية بحكم مهمتهم في القيادة العليا، والتوجيه، ووضع الأطر العامة لأساليب ادارة الولايات، ولوسائل تعامل الولاة مع الرعية، في حين أن رسائل القادة إلى الخلفاء كانت جل جملها خبريّة توصل للخليفة أخبار الفتح وأخبار الرعيّة.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثبت المصادر والمراجع

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثبت المصادر والمراجع

المصادر:

القرآن الكريم.

المصادر المخطوطة:

١- مجهول،
مكتوبات النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومكتوبات الخلفاء ـ رضي الله تعالى عنهم ـ مكتبة الدكتور جاسر أبو صفية.

المصادر المطبوعة:

٢- ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن محمد بن محمد الشيباني (ت ٦٣٠هـ)،
الكامل في التاريخ، ١٢م، دار صادر، بيروت، ١٩٦٥،
٣- الأزدي، محمد بن عبد الله (ت ٢٣١هـ)،
فتوح الشام، تحقيق عبد المنعم عبد الله عامر، ١م، مؤسسة سجل العرب، القاهرة، ١٩٧٠.
٤- أسامة بن منقذ، (ت ٥٨٤هـ)،
لباب الآداب، ط١، تحقيق: أحمد محمد شاكر، ١م، دار الجيل، بيروت، ١٩٩١.
٥- الأصفهاني، أبو نعيم أحمد بن عبد الله، (ت ٤٣٠هـ)،
حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ط١، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، ١٢م، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧.
٦- ابن أعثم الكوفي، (ت ٣١٤هـ)،
الفتوح، ط١، ٨م، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد الدكن، ١٩٧١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٧- الآبي، أبو سعد منصور بن الحسين، (ت ٤٢١هـ)،
نثر الدّر، تحقيق: محمد على قرنة وعلي محمد البجّاوي، ٧م، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨١.

٨- الباقلاني، ابو بكر بن الطيب، (ت ٤٠٣هـ)،
إعجاز القرآن، ط٣، تحقيق: السيد أحمد صقر، ١م، دار المعارف، مصر.

٩- البخاري، محمد بن اسماعيل (ت ٢٥٦هـ)،
الأدب المفرد، ١م، مكتبة الآداب ومطبعتها، ١٩٧٩.

١٠- برهان الدين ابراهيم بن علي بن أبي القاسم (ت ٧٩٩هـ)،
تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام، ٢م، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٩٥٨.

١١- البغدادي، صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق (ت ٧٣٩هـ)،
مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، ط١، تحقيق: علي محمد البجاوي، ٣م، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٣.

١٢- أبو بكر بن العربي (ت ٥٤٣هـ)،
العواصم من القواصم في تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ تحقيق: محب الدين الخطيب، ١م، دار الجيل، بيروت.

١٣- البلاذري، أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩هـ)،
أنساب الأشراف، تحقيق: غويتين، القدس، ١٩٣٦،
أنساب الأشراف، تحقيق: محمد باقر المحمودي، ط١، مؤسسة الاعلمي للمطبوعات، بيروت، ١٩٧٤.
أنساب الأشراف، ط١، تحقيق: سهيل زكار ورياض زركلي، ١٣م، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٦،
فتوح البلدان، تحقيق: عبد الله أنيس الطباع وعمر أنيس الطباع، مؤوسة المعارف، بيروت، ١٩٨٧.

١٤- البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي (ت ٤٥٨هـ)،
السنن الكبرى، ط١، ٩م، دار المعرفة، بيروت، ١٣٥٦هـ.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

١٥- ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف (ت٨٧٤هـ)،
النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ط١، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، ١٦م، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢.

١٦- ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد (ت ٧٢٨هـ)،
السياسة الشرعية في اصلاح الراعي والرعية، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٧٩،
رسالة في معنى القياس، ط١، تحقيق: عبد الفتاح محمود عمر، دار الفكر، عمان، ١٩٨٧.

١٧- الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن اسماعيل (ت ٤٢٩هـ)،
الاقتباس من القرآن الكريم، ط١، تحقيق: ابتسام مرهون الصفار، ١م، ١٩٩٢.

١٨- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (ت ٢٥٥هـ)،
البيان والتبيين، ط٢، تحقيق: عبد السلام هارون، ٢م، مكتبة الخانجي، مصر، ١٩٦١،
التاج في أخلاق الملوك (منسوب للجاحظ)، دار الفكر، بيروت، ١٩٥٥،
الرسائل، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، ١٩٩١،
رسالة في الحكمين، تحقيق: ش. بلات، الموسم، عدد ١٩، ١٩٩٤،

١٩- الجصاص، أبو بكر أحمد بن علي الرازي (ت ٣٧٠هـ)،
ط١، تحقيق: عبد السلام محمد علي شاهين، ٣م، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٤.

٢٠- الجهشياري، أبو عبد الله محمد بن عبدوس (ت ٣٣١هـ)،
الوزراء والكتاب، تحقيق: مصطفى السقا وزملاؤه، ١م، مصطفى البابي الحلبي، ١٩٣٨.

٢١- ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي (ت ٥٩٧هـ)،
سيرة عمر بن الخطاب، ١م، الدار القومية، القاهرة،
صفة الصفوة، ط١، تحقيق: ابراهيم رمضان وسعيد اللحام، ٢م، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٩،
المنتظم في تواريخ الملوك والأمم، ط١، تحقيق: سهيل زكار، ٨م، دار الفكر، ١٩٩٥.

٢٢- ابن حبيش، عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن يوسف (ت ٥٨٤هـ)،
كتاب الغزوات الضامنة الكاملة، والفتوح الجامعة الحافلة الكائنة في أيام الخلفاء الأول الثلاثة، ط١، تحقيق: سهيل زكار، ٢م، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٢.

٢٣- ابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ)،
تهذيب التهذيب، ١٤م، دار الكتب العلمية،

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تقريب التهذيب، ط١، تحقيق: صغير أحمد شاغف الباكستاني، ٢م، دار العاصمة، السعودية، ١٤١٦هـ،

لسان الميزان، ط١، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد عوض، ٧م، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٦.

٢٤- ابن أبي الحديد، عز الدين عبد الحميد (٦٥٥هـ)،

شرح نهج البلاغة، ط١، تحقيق: محمد أبو الفضل ابراهيم، ١٦م، دار احياء الكتب العربية، ١٩٥٩.

٢٥- ابن حديدة، أبو عبد الله محمد بن علي بن أحمد (ت ٧٨٣هـ)،

المصباح المضيء في كتاب النبي الأميّ ورسله إلى ملوك الأرض من عربي وعجمي، ط١، ١م، دار الندوة، الجديدة، بيروت، ١٩٨٦.

٢٦- ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد (ت ٤٥٦هـ)،

الفصل في الملل والأهواء والنحل، ط٢، ٢م، دار المعرفة، بيروت،

المحلّى، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي، ١٢م، دار الآفاق الجديدة،

ملخص أبطال القياس والرأي والاستحسان والتقليد والتعليل، تحقيق: سعيد الأفغاني، ١م، مطبعة جامعة دمشق، ١٩٦٠.

٢٧- حميد بن زنجويه،

الأموال، ط١، تحقيق: شاكر ذيب فياض، ٢م، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الاسلامية، الرياض.

٢٨- أبو حنيفة الدينوري، أحمد بن داود (ت ٢٨٢هـ)،

الأخبار الطوال، ط١، تحقيق: عبد المنعم عامر، ١م، ١٩٦٠.

٢٩- أبو حيّان التوحيدي، علي بن محمد بن العباس (ت ٤١٤هـ)،

البصائر والذخائر، ط١، تحقيق: وداد القاضي، ٩م، دار صادر، بيروت.

٣٠- الخزاعي، علي بن محمد بن سعود (ت ٧٨٩هـ)،

تخريج الدلالات السمعية على ما كان في عهد رسول الله من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية، ط١، تحقيق: احسان عباس، ١م، دار الغرب الاسلامي، ١٩٨٥.

٣١- الخوارزمي، أبو عبد الله محمد بن أحمد (ت ٣٨٧هـ)،

مفاتيح العلوم، الطبعة المنيرية، القاهرة، دار الرشيد للنشر، ١٩٨٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٣٢- الدولابي، أبو بشر محمد بن أحمد بن حماد (ت ٣٣٠هـ)،
الكنى والأسماء، ط٢، ١م، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٨٣.

٣٣- الذهبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ)،
المغني في الضعفاء، تحقيق: نور الدين عتر، ٢م.

٣٤- الرحبي، عبد العزيز بن محمد البغدادي (ت ١١٨٤هـ)،
فقه الملوك ومفتاح الرتاج المرصد على خزانة كتاب الخراج، تحقيق: أحمد عبيد الكبيسي، ١م، رئاسة ديوان الأوقاف، بغداد، ١٩٧٣.

٣٥- ابن رشد القرطبي، أبو الوليد محمد (ت ٥٩٥هـ)،
بداية المجتهد في نهاية المقتصد، ٢م، دار الفكر.

٣٦- ابن رشيق، أبو علي الحسن (ت ٤٥٦هـ)،
العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ط٢، تحقيق محمد محب الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، مصر، ١٩٦٣.

٣٧- الزبير بن بكار (ت ٢٥٦هـ)،
الأخبار الموفقيات، تحقيق: سامي مكي العاني، ١م، دار الرشيد، بغداد، ١٩٧٢.

٣٨- الزرقاني، محمد بن عبد الباقي (ت ٩٢٣هـ)،
شرح المواهب اللدنية، ط١، المطبعة الأزهرية المصرية، ١٣٣٦هـ.

٣٩- ابن سعد محمد (ت ٢٣٠هـ)،
الطبقات الكبرى، ٩م، دار صادر، بيروت.

٤٠- أبو سعيد الشعراني الهرثمي،
مختصر سياسة الحروب، تحقيق: عبد الرؤوف عوف، ١م، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة.

٤١- سعيد بن منصور (ت ٢٢٧هـ)،
السنن، تحقيق: حبيب عبد الرحمن الأعظمي، الهند، ١٣٨٧هـ.

٤٢- ابن سلام الجمحي، محمد (ت ٢٣١هـ)،
طبقات فحول الشعراء، تحقيق: محمود محمد شاكر، ٢م، مطبعة المدني، القاهرة، ١٩٨٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٤٣- السهيلي، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد (ت ٥٨١هـ)،
الروض الآنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام، ط١، تحقيق: مجدي بن منصور ابن سيد الشورى، ٤م، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧.

٤٤- سيد محسن الأمين:
أعيان الشيعة، تحقيق: حسن الأمين، مطبعة الانصاف، بيروت، ١٩٦٠.

٤٥- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن (ت ٩١١هـ)،
حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، ط١، تحقيق: محمد أبو الفضل ابراهيم، ٢م، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٦٧،
حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، مطبعة الموسوعات، مصر،
الدّر المنثور في التفسير بالمآثور، ط١، دار الفكر، ١٩٨٣.

٤٦- الشريف الرضي، أبو السن محمد بن الحسن الموسوي (ت ٤٠٤هـ)،
نهج البلاغة، ط٤، تحقيق: عبد العزيز سيد الأهل، ١م، دار الأندلس، بيروت، ١٩٧٨.

٤٧- شمس الدين السرخسي (ت ٤٩٠هـ)،
المبسوط، ط١، ١٥م، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٣.

٤٨- الشيزري، عبد الرحمن بن نصر بن عبد الله (ت ٥٨٩هـ)،
المنهج المسلوك في سياسة الملوك، ط١، تحقيق: محمد أحمد دمج، ١م، مكتبة المنار، الزرقاء، ١٩٩٤.

٤٩- الصفدي، صلاح الدين بن أيبك (ت ٧٦٤هـ)،
الوافي بالوفيات، ط٣، تحقيق: س. ريدرينغ، ٢٢م، دار صادر، بيروت، ١٩٩١.

٥٠- الصولي، أبو بكر محمد بن يحيى (٣٣٦هـ)،
أدب الكتاب،، تحقيق: محمد بهجة الآثري، ١م، المكتبة العربية، بغداد، ١٩٢٢.

٥١- ابن طباطبا محمد بن علي (ت ٧٠٩هـ)،
الفخري في الآداب السلطانية والدول الاسلامية، دار صادر، بيروت، ١٩٦٠.

٥٢- الطبري، أبو جعفر بن جرير الطبري (٣١٠هـ)،
تاريخ الرسل والملوك، تحقيق: محمد أبو الفضل ابراهيم، ١٠م، بيروت، لبنان،
جامع البيان عن تأويل القرآن، تحقيق: محمود محمد شاكر، دار المعارف، مصر.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٥٣- ابن عبد البر يوسف بن عبد الله (ت ٤٦٣هـ)،
الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق: علي محمد البجاوي، ٢م، مكتبة نهضة مصر.

٥٤- ابن عبد الحكم ابو عبد الله محمد (ت ٢٦٨هـ)،
فتوح مصر وأخبارها، تحقيق: محمد صبح، ١م، دار التعاون للطبع.

٥٥- ابن عبد ربه احمد بن محمد (ت ٣٢٨هـ)،
العقد الفريد، ط٣، تحقيق: أحمد أمين، وأحمد الزين، وابراهيم الأبياري، ٧م، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٦٥.

٥٦- أبو عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤هـ)،
الأموال، ط١، تحقيق: محمد خليل هراس، ١م، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٦،
الخطب والمواعظ، ط١، تحقيق: رمضان عبد التواب، ١م، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٩٨٦.

٥٧- ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن (ت ٥٧١هـ)،
تاريخ مدينة دمشق، تحقيق: محمد الدين ابي سعيد عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٥،
تاريخ مدينة دمشق، ترجمة عثمان بن عفان، تحقيق: سكينة الشهابي، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٤،
تاريخ مدينة دمشق، ترجمة عمر بن الخطاب، ط١، تحقيق: سكينة الشهابي، ١م، مؤسسة الرسالة، ١٩٩٤.

٥٨- العقيلي، أبو جعفر بن عمر (ت ٣٢٢هـ)،
الضعفاء الكبير، م١، تحقيق: عبد المعطي أمين قلعجي، ٤م، دار الكتب العلمية، بيروت.

٥٩- علاء الدين الهندي، علي المتقي بن حسام الدين (ت ٩٧٥هـ)،
كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، تحقيق: بكري حياتي وصفوت السقا، ١٦م، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٩.

٦٠- علي بن محمد الجرجاني،
التعريفات، ١م، دار السرور، بيروت.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٦١- عز الدين بن الأثير بن أبي الحسن علي بن محمد الجزري (ت ٦٣٠هـ)،
أسد الغابة في معرفة الصحابة، ط١، تحقيق: محمد عبد المنعم البري وآخرين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٤.

٦٢- الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد (ت ٥٠٥هـ)،
التبر المسبوك في نصحية الملوك، ط١، تحقيق: سامي خضر، مكتبة الكليات الأزهرية، ١٩٨٧.

٦٣- ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم (٢٧٦هـ)،
الإمامة والسياسة (منسوب للمؤلف)، ٢م، مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٥٧،
عيون الأخبار ط١، تحقيق: محمد الاسكندراني، ٢م، دار الكتاب العربي، ١٩٩٤.

٦٤- قدامة بن جعفر (ت ٣٢٩هـ)،
الخراج وصناعة الكتابة، تحقيق: محمد حسين الزبيري، ١م، دار الرشيد، ١٩٨١.

٦٥- ابن قدامة، شمس الدين أبو الفرج عبد الرحمن المقدسي (ت ٦٨٢هـ)،
الشرح الكبير، ط١، ١٣م، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٤.

٦٦- ابن قدامة، موفق الدين عبد الله بن أحمد بن محمد (ت ٦٢٠هـ)،
الاستبصار في نسب الصحابة من الأنصار، تحقيق: علي نويهض، دار الفكر،
المغني، تحقيق: محمد سالم محيسن وشعبان محمد اسماعيل، ١١م، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٦٧- القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري (ت ٦٧١هـ)،
الجامع لأحكام القرآن، ط١، دار الكتب المصرية، ١٩٣٣.

٦٨- القسطلاني، أحمد بن أحمد (ت ٩٢٣هـ)،
المواهب اللدنية بالمنح المحمدية، ط١، تحقيق: صالح أحمد السامي، ٤م، المكتب الاسلامي، ١٩٩١.

٦٩- القلقشندي، أحمد بن علي (ت ٨٢١هـ)،
صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ط١، تحقيق: يوسف علي طويل، ١٤م، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧.

٧٠- إبن قيم الحوزية، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر (ت ٧٥١هـ)،
أحكام أهل الذمة، ط١، تحقيق: صبحي الصالح، ٢م، دار العلم للملايين،

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أعلام الموقعين عن رب العالمين، تحقيق: عبد الرؤوف سعد، ٤م، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٣.

زاد المعاد في هدي خير العباد، ط٢، تحقيق شعيب الارناؤوط وعبد القادر الارناؤوط، ٣م، مؤسسة الرسالة، بيروت، ٣٠٩/٣.

٧١- أبن كثير، أبو الفداء اسماعيل بن عمرو (ت ٧٧٤هـ)،

البداية والنهاية، ط٤، تحقيق: أحمد أبو ملحم وآخرين، ٧م، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٨،

تفسير القرآن العظيم، نسخة مأخوذة عن طبعة دار الكتب.

٧٢- الكلاعي، أبو الربيع سليمان بن موسى (ت ٦٣٤هـ)،

الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء، ط١، تحقيق: محمد كمال الدين عز الدين علي، ٤م، عالم الكتب، بيروت، ١٩٩٧.

٧٣- مالك بن أنس (ت ١٧٩هـ)،

الموطأ، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، ٤م، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٨٥.

٧٤- الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي (ت ٤٥٠هـ)،

الأحكام السلطانية، ط١، تحقيق: محمد برد الدين النعماني، ١م، مطبعة السعادة، مصر، ١٩٠٩،

تسهيل النظر وتعجيل الظفر في أخلاق الملك وسياسة المُلك، ط١، تحقيق: محيي الدين هلال السرحان، ام، دار النهضة العربية، ١٩٨١.

أدب الدين والدنيا، ط١، تحقيق: محمد كريم راجح، ١م، دار اقرأ، بيروت، ١٩٨١.

٧٥- المبرد، أبو العباس، محمد بن يزيد (ت ٢٨٥هـ)،

الكامل، ط١، تحقيق: محمد أحمد الدالي، ٣م، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٦.

٧٦- المحب الطبري، أبو جعفر أحمد بن عبد الله بن محمد (ت ٦٩٤هـ)،

الرياض النضرة في مناقب العشرة، ط١، ٢م، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٤.

٧٧- محمد بن حبيب البغدادي (ت ٢٤٥هـ)،

المنمق في أخبار قريش، ط١، تحقيق: خورشيد أحمد فارق، ١م، مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٧٨- محمد بن الحسن الشيباني (ت ١٨٩هـ)،
السير الكبير، ط١، تحقيق: محمد حسن الشافعي، ٣م، دار الكتب العلميّة، بيروت، ١٩٩٧.
٧٩- محمد بن طولون الدمشقي (ت ٩٥٣هـ)،
إعلام السائلين عن كتب سيد المرسلين، ط٢، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط، ومحمود الأرناؤوط، ١م، مؤسسة الرسالة، بيورت، ١٩٨٧.
٨٠- محمد بن يحيى بن أبي بكر (ت ٧٤١هـ)،
التمهيد والبيان في مقتل الشهيد عثمان، ط١، تحقيق: محمود يوسف زايد، ١م، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٤.
٨١- مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم النيسابوري (ت ٥٨٩هـ)،
الجامع الصحيح، ٤م، دار الجيل، بيروت، دار الآفاق الجديدة، بيروت.
٨٢- المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ)،
امتاع الأسماع، تحقيق: محمود محمد شاكر، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٤١،
المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ٢م، دار صادر، بيروت.
٨٣- ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم (ت ٧١١هـ)،
لسان العرب، ١٥م، دار صادر، بيروت.
٨٤- المنقري، نصر بن مزاحم (ت ٢١٢هـ)،
وقعة صفين، ط١، تحقيق: عبد السلام هارون، ١م، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٣٦٥هـ.
٨٥- الميداني، أحمد بن محمد بن أحمد (ت ٥١٨هـ)،
مجمع الأمثال، ط١، تحقيق: نعيم حسن زرزور، ٢م، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٨.
٨٦- ابن النديم، محمد بن اسحق (ت ٣٨٥هـ)،
الفهرست، ط١، تحقيق: عبد المعطي أمين قلعجي، ١م، دار الكتب العلمية، بيروت.
٨٧- النويري، شهاب أحمد بن عبد الوهاب (ت ٧٢٣هـ)،
نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق: محمد أبو الفضل ابراهيم، ٢٤م، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٨٨- ابن هشام، ابو محمد عبد الملك (ت ٢١٣هـ)،
السيرة النبوية، تحقيق: طه عبد الرؤوف، ٤م، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٧.
٨٩- أبو هلال العسكري، الحسن بن عبد الله بن سهل (ت ٣٩٥هـ)،
الأوائل، تحقيق: محمد السيد الوكيل، ١م.
٩٠- الواقدي، أبو عبد الله محمد بن عمر (ت ٢٠٧هـ)،
الرّدة، ط١، تحقيق: محمد حميد الله، ١م، المؤسسة العالمية للنشر، باريس، ١٩٨٩،
الرّدة، تحقيق: محمد عبد الله أبو الخير، ١م، دار الفرقان، عما، الأردن، ١٩٩١،
فتوح الشام (منسوب إليه)، ١م، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ١٩٣٤.
٩١- وكيع، محمد بن خلف بن حيّان (ت ٣٠٦هـ)،
أخبار القضاة، ٣م، عالم الكتب.
٩٢- ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (ت ٦٢٦هـ)،
إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، ط١، تحقيق: احسان عباس، ٧م، دار الغرب الاسلامي، بيروت، ١٩٩٣،
معجم البلدان، ٥م، دار صادر، بيروت.
٩٣- يحيى بن آدم القرشي (ت ٢٠٣هـ)،
الخراج، ط٢، تحقيق: أحمد محمد شاكر، ١م، المطبعة السلفية، ١٣٨٤هـ.
٩٤- اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب (٢٩٢هـ)،
التاريخ، ١م، دار صادر، بيروت.
٩٥- أبو يوسف، يعقوب بن ابراهيم (١٨٢هـ)،
كتاب الخراج، ط١، تحقيق: احسان عباس، ١م، دار الشروق، بيروت، ١٩٨٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المراجع العربية:

١- ابتسام مرهون الصفّار:
أثر القرآن في الأدب العربي في القرن الأوّل الهجري، ط١، مطبعة اليرموك، بغداد، ١٩٧٤.

٢- ابراهيم أحمد العدوي،
النظم الاسلامية، مقوماتها الفكرية ومؤسساتها التنفيذية في صدر الاسلام والعصر الأموي، مكتبة الأنجلو المصريّة.

٣- أحمد زكي صفوت،
جمهرة رسائل العرب في عصر العربية الزاهرة، المكتبة العلمية، بيروت.

٤- أحمد عبد المنعم البهيّ،
تاريخ القضاء في الإسلام، مطبعة لجنة البيان العربي، مصر، ١٩٦٥.

٥- أحمد كمال،
القادسية، ط٩، دار النفائس، ١٩٨٩.

٦- أحمد محمد خلف المومني،
التعبئة الجهادية في الاسلام، ط١، دار الأرقم، عمان، ١٩٨٦.

٧- أكرم ضياء العمري،
المجتمع المدني في عهد النبوة، خصائصه وتنظيماته الأولى، ط١، ١٩٨٣،
السيرة النبوية الصحيحة، مركز بحوث السنة والسيرة.

٨- أمين أنورالخولي،
الرياضة والحضارة الاسلامية، دار الفكر العربي.

٩- أنيس المقدسي،
تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي، ط١، دار العلم للملايين، ١٩٦٠.

١٠- بسام العسلي،
فن الحرب في عهود الخفاء الراشدين ،عمليات الجبهة الشمالية والشرقية والبحرية، ط١، دار الفكر، ١٩٧٤،
المذهب العسكري الاسلامي، ط١، دار النفائس، بيروت، ١٩٩٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

١١- بريك محمد بريك أبو مايلة العمري،
السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة، دراسة نقدية تحليلية، ط١، دار ابن الجوزي، السعودية، ١٩٩٦.

١٢- ترتون،
أهل الذمة في الاسلام، ترجمة: حسن حبش، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٧.

١٣- جابر قميحة،
أدب الرسائل في صدر الاسلام (عهد النبوة)، ط١، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٨٦،
أدب الخلفاء الراشدين، دار الكتب الاسلامية، دار الكتاب المصري، دار الكتاب اللبناني.

١٤- حسين مؤنس،
عالم الإسلام، دار المعارف، مصر.

١٥- حسين نصّار،
نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي، ط٢، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٦.

١٦- السباعي السباعي،
تاريخ الأدب العربي في صدر الاسلام والعصر الأموي، ١٩٣٢.

١٧- سعيد الحكيم،
الرقابة على أعمال الإدارة في الشريعة الاسلامية والنظم الوضعية الحديثة، ط١، دار الشروق، بيروت، ١٩٨٣.

١٨- سليم عبد الله حجازي،
منهج الاعلام الاسلامي في صلح الحديبية، ط١، دار المنارة، جدة، ١٩٨٦.

١٩- سهيلة ياسين الجبوري،
اصل الخط العربي وتطوره حتى نهاية العصر الأموي، مطبعة الأدب البغدادية، ١٩٧٧.

٢٠- السيد عبد المحسن فضل الله،
نظرية الحكم والإدارة في عهد الامام علي - عليه السلام - للأشتر، ط١، مؤسسة الوفاء، بيروت، ١٩٨٣.

٢١- شاكر محمود رامز،
تحرير العراق (القادسية)، ط١، ١٩٨٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٢٢- شكري فيصل،
المجتمعات الاسلامية في القرن الأول، نشأتها، مقوماتها، تطورها اللغوي والأدبي، مكتبة المثنى، بغداد، ١٩٥٢.
٢٣- شوقي ضيف،
العصر الاسلامي، ط٧، دار المعارف، مصر،
الفن ومذاهبه في النثر العربي، ط١، دار المعارف، مصر.
٢٤- صادق عرجون،
خالد بن الوليد، ط٢، مكتبة الكليات الأزهرية، ١٩٦٧،
عثمان بن عفان، ط٣، الدار السعودية للنشر والتوزيع، الرياض، ١٩٨٣.
٢٥- صالح أحمد العلي،
الدولة في عهد الرسول، طبعة المجمع العلمي العراقي، ١٩٨٨.
٢٦- صالح درادكة،
العلاقات العربية اليهودية حتى نهاية عصر الخلفاء الراشدين، ط١، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، ١٩٩٢.
٢٧- صالح بن عبد الكريم الزيد،
أحكام عقد الأمان والمستأمنين في الاسلام، ط١، ١٤٠٦هـ.
٢٨- صبحي الصالح،
علوم الحديث ومصطلحه، ط٣، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦٥.
٢٩- صبري ابراهيم السيد،
نهج البلاغة، دار الثقافة، قطر، ١٩٨٦.
٣٠- عارف خليل أبو عيد،
العلاقات الخارجية في دولة الخلافة، ط٢، دار الأرقم، بريطانيا، ١٩٩٠.
٣١- عبد السميع سالم الهرّاوي،
لغة الادارة العامة في صدر الاسلام، المؤسسة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦، ص: ٣٥٢.
٣٢- عبد العزيز الدوري،
بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب، دار المشرق، بيروت،
النظم الاسلامية، ط١، مطبعة نجيب بغداد، ١٩٥٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٣٣- عبد الكريم زيدان،
أحكام الذميين والمستأمنين في دار الاسلامية، ط٢، ١٩٧٦.
٣٤- عبد الله غوشة،
الدولة الاسلامية دولة انسانية، ١٩٧١،.
٣٥- عبود الراضي،
موقف الاسلام من الأرض والاقطاع، دار التربية، ١٩٧٠.
٣٦- عثمان علي جمعة،
المعاهدات الدولية في فقه الامام محمد بن الحسن الشيباني، (دراسة فقهية مقارنة)، رابطة العالم الاسلامي.
٣٧- عدنان علي رضا النحوي،
ملامح الشورى في الدعوة الاسلامية، ط٢، ١٩٨٤.
٣٨- عرفان عبد الحميد،
دراسات في الفرق والعقائد الاسلامية، ط١، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٤.
٣٩- علي حسن عبد القادر،
نظرة عامة في تاريخ الفقه الاسلامي.
٤٠- علي بن حسين علي الأحمدي،
مكاتيب الرسول، دار صعب، بيروت.
٤١- علي الخطيب،
عمر بن الخطاب، ط١، عالم الكتب، ١٩٨٦.
٤٢- عون قاسم الشريف،
نشأة الدولة الاسلامية على عهد رسول الله، ط٢، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتب اللبناني، بيروت، ١٩٨١.
٤٣- غانم جواد رضا،
الرسائل الفنية في العصر الاسلامي حتى العصر الأموي، مطبعة أسعد، بغداد.
٤٤- فرج محمد الهوني،
النظم الادارية والمالية في الدولة العربية، ١٩٧٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٤٥- مجدي عبد المنعم،
ديوان المظالم، نشأته وتطوره واختصاصاته مقارناً بالنظم الحديثة، ط١، دار الشروق، بيروت، ١٩٨٣.

٤٦- مجيد خدوري،
الحرب والاسلام في شرعة الاسلام، ط١، الدار المتحدة للنشر، بيروت، ١٩٧٣.

٤٧- محمد ارشيد العقيلي،
السفارات النبوية إلى ملوك العالم وأمراء أطراف الجزيرة العربية، ط١، دار إحياء العلوم، بيروت، مكتبة المحتسب، عمان، ١٩٨٦.

٤٨- محمد بلتاجي،
منهج عمر بن الخطاب في التشريع، دار الفكر العربي.

٤٩- محمد تيسير التميمي،
موضوعات في فن القيادة، ط١، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٩٢.

٥٠- محمد جاسم حمادي المشهداني،
موارد البلاذري عن الأسرة الأموية في أنساب الأشراف، مكتبة الطالب الجامعي، مكة المكرمة، ١٩٨٦.

٥١- محمد جمال الدين محفوظ،
المدخل إلى العقيدة والاستراتيجية الاسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتب، ١٩٧٦.

٥٢- محمد حسن شرّاب،
معجم بلدان فلسطين، ط٢، الأهلية للنشر والتوزيع، ١٩٩٦.

٥٣- محمد حسين هيكل،
الفاروق عمر، مكتبة النهضة، ١٩٦٤.

٥٤- محمد حميد الله،
مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، ط٦، دار النفائس، بيروت، ١٩٨٧.

٥٥- محمد دواس قلعة جي،
موسوعة فقه عمر بن الخطاب، ط٢، مكتبة الفلاح، الكويت، ١٩٨٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٥٦- محمد سعيد الوكيل،
جولة تاريخية في عصر الخلفاء الراشدين (دراسة وصفية تحليلية لأحداث تلك الفترة)، ط١، دار المجتمع للنشر والتوزيع، السعودية، ١٩٨٦.

٥٧- محمد الصادق عفيفي،
المجتمع الاسلامي وأصول الحكم، دار الإعتصام، ١٩٧٩،
المجتمع الاسلامي والعلاقات الدولية، مؤسسة الخانجي، القاهرة.

٥٨- محمد عبد الرحمن البكر،
السلطة القضائية وشخصية القاضي، ط١، الزهراء للإعلام العربي، ١٩٨٨.

٥٩- محمد عبد الغني حسن،
المعاهدات والمهادنات في تاريخ العرب، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٦.

٦٠- محمد عبد المنعم خفاجي، وعبد العزيز شرف،
التفسير الإعلامي للسيرة النبوية، ط١، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٢.

٦١- محمد عبد المنعم خميس،
الإدارة في صدر الاسلام، المجلس الأعلى للشؤون الاسلامية.

٦٢- محمد عجاج الخطيب،
أصول الحديث وعلوم مصطلحه، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٩.

٦٣- محمد علي الحق،
العلاقات الدولية في القرآن الكريم والسنة النبويّة، ط٢، جمعية عمال المطابع التعاونية، ١٩٨٢.

٦٤- محمد مهدي شمس الدين،
دراسات في نهج البلاغة، ط٢، بيروت، ١٩٧٢،
عهد الأشتر، ط١، مؤسسة الوفاء، بيروت.

٦٥- محمود خطاب،
السفارات النبوية، المجمع العلمي العراقي، ١٩٨٩.

٦٦- محمود بن محمد بن عرنوس،
تاريخ القضاء في الاسلام، مكتبة الكليات الجامعية.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٦٧- محمود المقداد،
تاريخ الترسل النثري عند العرب في صدر الاسلام، ط١، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، سوريا، ١٩٩٣.
٦٨- مصطفى عليان،
نحو منهج اسلامي في رواية الشعر ونقده، ط١، دار البشير، عمان، ١٩٩٢،
مقدمة في دراسة الأدب الاسلامي، ط١، دار المنارة، السعودية، ١٩٨٥.
٦٩- مونتجمري وات،
الحرب عبر التاريخ، ترجمة فتحي عبد الله النمر، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧١،
محمد في المدينة، ترجمة: شعبان بركات، المكتبة العصرية، بيروت.
٧٠- هاشم الملاح،
الوسيط في السيرة النبوية والخلافة الراشدة، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، جامعة الموصل.
٧١- وليد محمد جرادات،
استراتيجية الفتوحات الاسلامية.
٧٢- ياسين سويد،
الفن العسكري الاسلامي، أصوله ومصادره، ط٢، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، ١٩٩٠.

المراجع الأجنبية:

73- Gold Ziher, Ignaz,
The Zahiris, Their Doctrine and their History, Leiden, 1971.
74- Grohmann, Adolf,
From the World of Arabic Papyri, Cairo, 1952..
75- Levy, Reuben,
The Social Structure of Islam, Cambridge, 1965.
76- Phil, C. H. Becker,
Papyri Schott-Reinhardt I, Heidelberge, 1906.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

البحوث المنشورة في:

أ- كتاب لمجموعة مؤلفين:

٧٧- محمد سعيد رمضان البوطي، الشورى في عهد الخلفاء الراشدين، الشورى في الاسلام الجزء الاول، المجمع الملكي لبحوث الحضارة الاسلامية(مؤسسة آل البيت)، ١٩٨٩.

ب- الدوريات العربية:

٧٨- أحمد داود المزجاجي،
التنظيم الاداري في الاسلام، مفهومه وخصائصه، مجلة جامعة الملك سعود، م٣، السعودية، ١٩٩١. ص: ٣٥-٧٧.

٧٩- جاسر أبو صفية،
الشعر في عهد النبوة والخلافة الراشدة، دراسة نقدية، دراسات، م٢٢، ع٤، عمان، ١٩٩٥، ص: ١٩٠٩-١٩٤٧.

٨٠- سعود بن سعود بن دريب،
رسالة الفاروق لأبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنهما ـ والمباديء العامة في أصول القضاء، مجلة البحوث الاسلامية، ع٧، الرياض، ١٤٠٣هـ، ص: ٢٦٨-٢٨٩.

٨١- السيد عبد القادر زيدان،
في سيكولوجية الإدارة الاسلامية، دراسات مجلة كلية التربية، ع١، جامعة الرياض، ص: ٩٩-١٨٠.

٨٢- عادل محيي الدين الألوسي،
قطائع الرسول، المؤرخ العربي، ع٣٣، ١٩٨٧، ص: ١٩٧-٢٠٤.

٨٣- عبد الباقي قصة،
تحقيق بعض الوثائق النبوية من العهود التي أعطاها الرسول لليهود والنصارى، الدارة ١، ع ٣، الرياض، ١٩٨٠، ص: ١٢٤-١٣٠.

٨٤- عبد الجبار منسي العبيدي،
سرية نخلة سرايا الرسول الهامة، المؤرخ العربي، ع٩، بغداد، ١٩٧٨، ص: ١٤٥-١٧٩،
الفتوح العربية الاسلامية ودوافعها، المؤرخ العربي، ع١٤، بغداد، ١٩٨٠، ص: ٢٩٠-٢٩٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٨٥- عبد الحميد بهجت فايد،
الإدارة في الاسلام، نماذج من الفكر والتطبيق، المسلم المعاصر، ع٣٠، بيروت، ١٩٨٢، ص: ١٠١-١٣٧.

٨٦- عبد الشافي محمد عبد اللطيف،
دولة الاسلام وعلاقاتها الدولية في عهد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، ممجلة كلية العلوم الاجتماعية، ع٢، الرياض، ١٩٧٨، ص: ٤٦١-٥١٣.

٨٧- عتيق عبد الرحمن العثماني،
دراسة للمعاهدات في العهد النبوي، المؤرخ العربي، ع١٦، القسم الأول، ١٩٨١، ص: ٢٨٠-٣٠٤.

٨٨- عز الدين ابراهيم،
الدراسات المتعلقة برسائل النبي إلى الملوك، المؤرخ العربي، ع٢٣، بغداد، ١٩٨٣، ص: ٢٣٩-٢٦٢.

٨٩- فالح حسين،
العشور ضرائب التجارة في صدر الاسلام، دراسات تاريخية، ع٢٩-٣٠، ١٩٨٨، ص: ٣٢-٥٣.

٩٠- محمد حامد حسنين،
نظام الحوافز في الاسلام، المجلة العربية للإدارة، ع٤، ١٩٨٢، ص: ٧٤-٧٩.

٩١- محمد عبد القادر خريسات،
عمر بن الخطاب والولاة، المؤرخ العربي، ع٢٥، ١٩٨٤، ص: ١٥٣-١٨٣،
القطائع في صدر الاسلام، دراسات تاريخية، ع٢٧-٢٨، ١٩٨٧، ص: ٦٧-٩٩.

٩٢- محمد فريد محمود عزت،
المعلومات ودورها الفعّال في السرايا والغزوات النبوية، مجلة المكتبات والمعلومات العربية، ع٣، الرياض، ١٩٨٤، ص: ٥-٣٨.

٩٣- معالي عبد الحميد حمودة،
الرقابة في النظام الإداري في الاسلام، مجلة الإداري، ع٤٢، ١٩٩٠، ص:١٢٥-١٤٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٩٤- لويس شيخو،
عهود بني الإسلام والخلفاء الراشدين للنصارى، المشرق، جزء ١٢، ١٩٠٩، ص: ٦٠٨-٦١٨، ٦٧٤-٦٨٢.

الدوريات الأجنبية:

95- Hamidullah, M.,
Administration of Justice in Early Islam, Islmic Culture Board, Vol. XI, No. 2, 1937, p. 163-171,
Some Arabic Inscriptions of Medinah of the Early of Hijrah, Islamic Culture, 1939, USA, Vol. 13, No. 4, p. 429-443.

96- Henri Lammens,
Le Caliphat de Yazid I, Melanges, Vol. V, 3, 1912, p. 327-369.

97- Krenkow, F.,
Grant of Land by Muhammed to Tamim ad-Dari, Islmica, 1924, Vol.1, p. 529-532.

98- Serjeant, R. B.,
The Constitution of Medina, The Islamic Quartery, Vo. 8, No. 1, and 2, 1964, p. 3-16.

جـ- الندوات والمؤتمرات بالعربية:

٩٩- ابراهيم زيد الكيلاني،
المرسلات النبوية مع بعض القبائل العربية في جنوب بلاد الشام، المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام (بلاد الشام في صدر الاسلام)، م٢، عمان، الأردن، ١٩٨٩، ص: ٨٥-١٠١.

١٠٠- جاسر أبو صفية،
المراسلات النبوية مع بعض القبائل العربية في جنوب بلاد الشام، المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام (بلاد الشام في صدر الاسلام)، م٢، عمان، الأردن، ١٩٨٩، ص: ٦٥-٨٣.

١٠١- زكريا القضاة،
معاهدة فتح بيت المقدس، العهدة العمرية، المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام (بلاد الشام في صدر الاسلام)، م٢، عمان، الأردن، ١٩٨٩، ص: ٢٧٨-٢٨٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

١٠٢- عبد العزيز الدوري،

تنظيمات عمر بن الخطاب (الضرائب في بلاد الشام)، المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام (بلاد الشام في صدر الاسلام)، م٢، عمان، الأردن، ١٩٨٩، ص: ٤٣٣-٤٥٥.

التنظيمات المالية لعمر بن الخطاب (الضرائب - السواد)، وقائع ندوة النظم الاسلامية، الجزء الثاني، أبو ظبي، ١٩٨٤، ص: ١٥٣-١٨٥،

الجزيرة العربية في عصر الخلفاء الراشدين، الندوة العالمية الثالثة لدراسات تاريخ الجزيرة العربية، م٣، جامعة الملك سعود، السعودية، ١٩٨٣، ص: ١٨٥-٢١٤.

١٠٣- فالح حسين،

الفروض العينية - الضيافة والأرزاق - كمصدر لتمويل جيش الفتح، المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام (بلاد الشام في صدر الاسلام)، م٢، عمان، الأردن، ١٩٨٩، ص: ١٧٥-١٩٢.

١٠٤- فرناس عبد الباسط البنا،

التنظيم الإداري في الدولة الإسلامية - منهجاً وتطبيقاً، وقائع ندوة النظم الاسلامية، الجزء الأول، أبو ظبي، مكتب التربية العربي لدول الخليج العربي، ١٩٨٤، ص: ١٨١-٢٣٧.

١٠٥- محمد طاهر عبد الوهاب،

الرقابة الإدارية في النظام الإداري الإسلامي، وقائع ندوة النظم الإسلامية، الجزء الأول، أبو ظبي، ١٩٨٤، ص: ٢٤٥-٣٢٥.

١٠٦- مناع خليل القطان،

النظام القضائي في العهد النبوي وعهد الخلافة الراشدة، وقائع ندوة النظم الاسلامية، الجزء الأول، أبو ظبي، ١٩٨٤، ص: ٣٣٥-٤١٠.

١٠٧- نجدة خماش،

الإدارة ونظام الضرائب في الشام في عصر الراشدين، المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام (بلاد الشام في صدر الاسلام)، م٢، عمان، الأردن، ١٩٨٩، ص: ٤١١-٤٥٥.

١٠٨- هادون أحمد العطاس،

أضواء على رسائل الرسول - صلى الله عليه وسلم - القيل وائل بن حجر الحضرمي، أبحاث مقدمة للندوة الثالثة لدراسات تاريخ الجزيرة العربية، جامعة الملك سعود، السعودية، الجزء الأول، ١٩٨٣، ص: ١٠٥-١١٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

١٠٩- وداد القاضي،

مدخل إلى دراسة عهود الصلح الاسلامية زمن الفتوح، المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام (بلاد الشام في صدر الاسلام)، م٢، عمان، الأردن، ١٩٨٩، ص: ١٩٣-٢٤٧.

وبالإنجليزيـــــة:

110- Forister Martin,
Aspects of the Administration and Military Organization of the Early Caliphate, in:

الندوة العالمية الثالثة لدراسات تاريخ الجزيرة العربية، جامعة الملك سعود، م٣، ص: ٧٧-٨٨.

د - رسائل الماجستير والدكتوراة:

أ- بالعربيـــــة:

١١١- باسل طه جاسم،

التنظيمات الإدارية في عهد الخليفة عمر بن الخطاب، رسالة ماجستير، جامعة الموصل، العراق، ١٩٨٨.

١١٢- بيان ممدوح المجالي،

محمد بن اسحق في كتابة التاريخ، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، عمان.

١١٣- جاسر أبو صفية،

الخطابة وتطورها في عصر الخلفاء الراشدين، رسالة ماجستير، الجامعة اللبنانية، بيروت، ١٩٧٧.

١١٤- عدنان محمد الحاج أسعد حسين،

المؤرخون العرب والفتنة الكبرى (القرن ١هـ - ٤هـ)، دراسة تاريخية منهجية، رسالة دكتوراة، الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٩٦.

١١٥- علي كامل القرعان،

أبو مخنف ودروه في نشأة الكتابة التاريخية، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٩٤.

١١٦- غيداء خزنة كاتبي،

الرّدة، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٨٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

١١٧- محمود أحمد عبد الله أبو ليل،
أسس العلاقات الدولية في الإسلام، رسالة دكتوراة، جامعة الأزهر، ١٩٧٨.

١١٨- ناجي ابراهيم محمد العبيدي،
أدب معارك تحرير العراق في صدر الاسلام، رسالة ماجستير، جامعة المستنصرية، بغداد، ١٩٨٦.

١١٩- ناجي مصطفى،
الواقع التاريخي للقضاء في صدر الاسلام، رسالة ماجستير، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، ١٩٩٦.

ب- بالإنجليزيـــــة:

120- Atef Mohamed,
The Philosophy of Sport in Islamic Religion M. A., University of Southern California, 1981.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

Diwani Prose in the Early Islamic Period

By

Firyal A. Hudieb

Supervisor

Dr. Salah Jarrar

This dissertation examines the Diwani documents of the early period of Islam and of the orthodox enlightened Caliphate in terms of from and content. Important as they are, these documents deal with matters which relate to the administration of war and states, and to organizing relationships with other peoples. They are, therefore, legislation's and a constitution for following eras as they originate from the prophet (peace be upon him) and from the four enlightened caliphs. They establish the principles of letter writing and conventions, and were adopted by these who came later who added to, and improved them.

The present study is based on a methodology which refers narration's and stories back to their respective origins. It investigates into these narration's

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

and relies to achieve this on rational and ascription (isnad) evidence based on contrasting and verification of narration's and on referring them to the era of the prophet and to that of the enlightened caliphs in order to know the effect the narrators' tendencies and of cheir porty and religions affiliation in narrating documents, and in order to highlight the role of oral narration and the effect of losiry the original documents and the extent of distortion and falsification which these documents under went. My main objective has been to present a clear picture the hteiary issues of this eara and of the role of language in manifesting them.

The dissertation is made up of three parts, each of which consists of a number of chapters. The first part deals in detail with the means of wars of conquest fought by Muslims to spread Islam. The second part deals with the administration principles manifested in these documents and how they were implemented in governing the subjects of the Islamic state and the state policy (in relation to its foreign relationships) and in the administration of the state financial resources. The third part deals with the technical characteristics of these documents.

The study draws from rich, diversified sources. I have made extensive use of historical, Fiqhi and literary sources, as well as from Sharia' books, books of

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

religions policy and books on the admonition of the state subjects. I have also made use of commentary books and of tradition. ٤٩٤٨٧٨

I have arrived at the follows conclusions. First, the study shows that falsification and distortion has affected the majority of the topics of this eka's documents. The study of literature in this period, therefore, should be thoroughly and cautiously carried out. Second, the study highlights the role of correspondence in the administration of the state affairs in all fields. Letters carried instructions and regulation which were implemented in terms of war, and showed how to deal with subjects, Muslims and non-Muslims. Third, the technical study shows that these documents were distinctively constructed and drawn from the spirit of Aslam. The construction was sound and good, and images were not heavily influenced by local environment. The styly was clear and words had definite meanship and were far from being ambiguous. Fourth, the study shows the high level of administration of the state and Islam affairs. It surpasses, the study shows, modern administrative methods because of its observance of the material and immaterial rights of subjects.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit